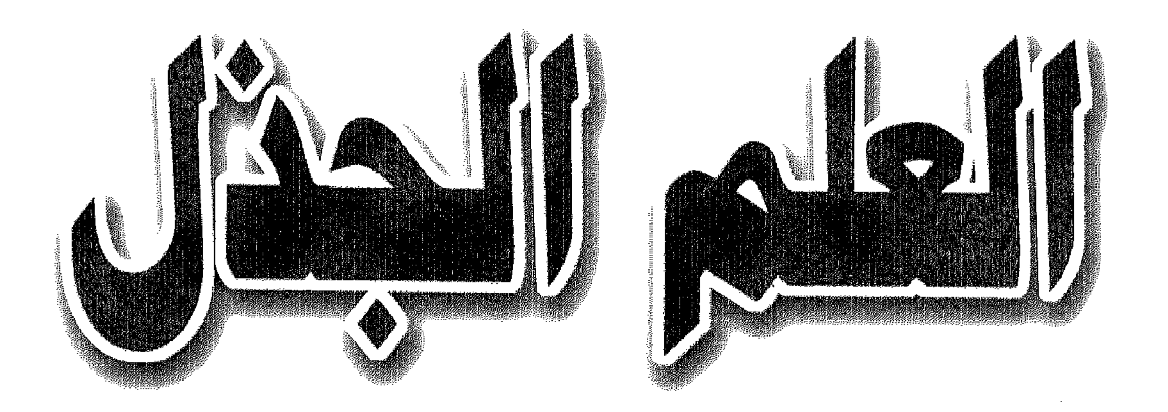
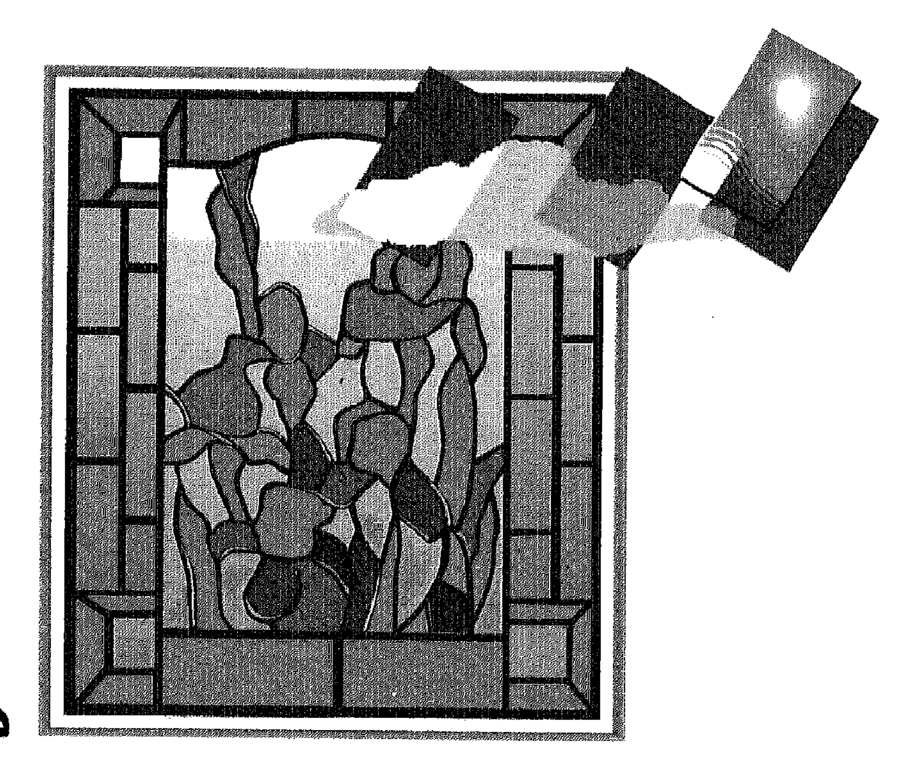
نيتشه





ترجمة

د. سعاد حرب



العلم الجذل

الطبعة الأولى
1421 هـ ـ 2001 م

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع
ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان

توزيع



بيروت - الحمرا - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف 791123 - تلفاكس 791124 - بيروت
ص.ب. 6311 /113 ـ بيروت ـ لبنان

فريدريك نيتشه

العلم الجذل

ترجمة

د. سعاد حرب

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة

NIETZSCHE

LE GAI SAVOIR

La Gaya Scienza

Introduction et traduction
de Pierre Klossowski

أشكر د. جورج كتورة لمراجعته الترجمة باللغة العربية
ومقارنتها بالنص الألماني.

سعاد

أقيم في دارتي الخاصة
لم أقلد أحداً قط
وأسخر من كل معلم
لم يسخر من ذاته.

«نقش على بابي».

تقديم

- 1 -

قد يحتاج هذا الكتاب لأكثر من مقدمة؛ ومع ذلك يبقى الشك بأن تستطيع مقدمات أن تؤثر بامرىء لم يعش التجربة المسبقة لهذا الكتاب. يبدو أنه مكتوب بلغة رياح حقيقية: كل ما فيه حد، مقلق، متناقض، كطقس نيسان، بحيث يعيدنا دوماً إلى الشتاء القريب العهد، كما إلى النصر على الشتاء، هذا النصر الآتي، الذي ينبغي أن يأتي والذي ربما كان قد جاء. . . وهو يطفح بالعرفان بالجميل، كأنما قد تحقق الحدث غير المأمول على الاطلاق، جميل رجل قد شفي لأن الشفاء هو الحدث الميؤوس منه. «العلم الجذل»، هاك ما يبشر «بالزحليات»* لذهن قادم بصبر ضغط مرعب وطويل، بصبر، بصرامة، ببرودة، من دون أن يخضع، ولكن أيضاً من دون أمل، وفجأة وجد نفسه مفعماً بالأمل، بأمل الصحة، بنشوة الشفاء. فما الذي يدعو للعجب لو برز في هذه الحالة الكثير من الجنون واللامعقول، ولو بدد الكثير من العطف الكيفي على إشكالات شائكة لم تصنع للمداعبة أو الاغواء. ذلك أن هذا الكتاب كله ليس إلا عيداً يعقب طول حرمان وطول عجز، ليس إلا ارتعاشات للقوى المتجددة ولعودة الإيمان بالغد وما بعده، ليس إلا شعوراً فجائياً وهجس بالمستقبل،

(*) الزحليات (Les saturnales): أعياد كانت تقام في روما القديمة على شرف الكوكب زحل (Saturne)، وكان العبيد خلالها يأخذون مكان الأسياد، وكانت مناسبة لابتهاجات متنوعة، Le petit Robert، (م).

بمغامرات وشيكة، ببحار أعيد فتحها، بأهداف أعيد السماح بها، وأعيدت لها الجدارة بالايمان. ما الذي لم أخضه حتى الآن! طرف الصحراء هذه، وهذا الانهاك والجحد والجمود في عز الفتوة، هذه الشيخوخة المبكرة، سطوة الألم، نتجاوزها بسطوة الإباء الذي يرفض خلاصات الألم. والحال فالخلاصات تعزيات ـ هذا التوحد الجذري كحصانة يائسة ضد بغض للبشر ذو بصيرة معلة، الحصر المطلق الذي لا يقبل الا المر والحد والوجه الجارح للمعرفة كما ينص عليه التقزز النامي شيئاً فشيئاً إكراماً لحمية روحية طائشة. ميوعة حقة للذهن ـ هذا كله يسمى رومنطيقية ـ آه، من بامكانه أن يكابد هذا الجحيم! غير أن المتمكن سيود بدون شك أن يزيد في غفرانه لي بعض جنون وحيوية، «علم جذل»، ـ قبضة من الأغاني مثلاً، يسخر شاعر فيها من كل الشعراء بطريقة يصعب غفرانها. وليس الشعراء وجميل «مشاعرهم الوجدانية» ممن يرغب هذا العائد بأن يجرب معهم خبثه: من يعرف نمط الضحية التي سيختارها، ما هو الموضوع المخيف الذي سيثير محاكاته السافرة؟incipit tragœdia ـ كتب في نهاية هذا الكتاب بطلاقة مخيفة: فلنحذر! شيء ما يتهيأ زبدته الخبث والمكر: **Incipit parodia** ليس في ذلك أدنى شك. . .

ـ 2 ـ

لكن لنترك السيد نيتشه هنا: فماذا يهمنا في استعادة السيد نيتشه لصحته؟. . . قلما يعرف عالم النفس مسائل مغرية كمسألة العلاقة بين الصحة والفلسفة وفي حال مرضه بالذات، فإنه يعايش مرضه مع كل حشريته العلمية. في الواقع، لكل شخص فلسفته، المهم أن نكون شخصاً: ومع ذلك ثمة اختلاف بيّن هنا. فالبعض تتفلسف فيه عيوبه، والبعض الآخر قوته وغناه. فلسفة الأول ضرورة له، كدعامة وترياق وخلاص وترفع وابتعاد عن الذات، وليست فلسفة الآخر إلا ترف جميل، وفي أحسن الأحوال، تَنَعُّم، اعتراف بالجميل لمنتصر عليه لكي يكتمل أن يندرج بأحرف كونية على جَلْد المفاهيم.

وفي الحالة الأخرى الأكثر شيوعاً، عندما يتفلسف البؤس كما عند جميع المفكرين المرضى، وربما كان المفكرون المرضى هم الأكثر شيوعاً

في تاريخ الفلسفة: إلى ما يصير الفكر نفسه، عندما يخضع لضغط المرض؟ ذلك هو السؤال الذي يهم عالم النفس: هنا يمكن للتجربة أن تقوم، ولا يختلف الأمر عن أمر المسافر الذي يقرر أن يستيقظ في ساعة محددة ليخلد بعدها إلى النوم بهدوء: فالأمر عينه، بالنسبة لنا نحن الفلاسفة، لنفترض أننا مرضنا، فإننا ننغمس في المرض قلباً وقالباً، ونغفل عن كل ما عدانا. وكما أن المسافر يعرف أن شيئاً ما يبقى متيقظاً في داخله، يعد الساعات ليوقظه في الوقت المناسب، نحن أيضاً نعرف أن اللحظة الحاسمة ستجدنا يقظين حيث سينبجس شيء ما سيضبط الذهن في حالة تلبس، أي أنه اما على وشك أن يضعف أو أن يعود أدراجه، أو أن يخضع أو أن يتصلب، أو أن يكتئب أو أن يقع فيما لا أدريه من حالات الذهن المرضية، التي تصطدم في أوقات العافية بإباء الذهن (ذلك انه، ولنبق على نفس القافية، الذهن الأبي، والطاووس والحصان هي أكثر حيوانات الأرض إباءً). بعد كل هذا التحقيق مع الذات، وهذا الاغراء للذات، نتعلم بأن نعيد النظر بشكل أكثر حدة مع كل ما تمت فلسفته حتى الآن: نحذر أفضل من قبل ضلال وألاعيب وأنواع المصايف وزوايا الفكر المشمسة، حيث لم يترك الفلاسفة أنفسهم ينقادون ويفتنون، بالرغم منهم، إلا لكونهم كانوا مرضى. ومن الآن فصاعداً، نعرف إلى أين ونحو أي شيء يقود الجسم المريض، مع فاقته، الذهن ويدفعه بلا وعي نحو الشمس، نحو الهدوء، نحو العذوبة، نحو الصبر ونحو الأدوية، بمعنى ما نحو التعزية. كل فلسفة تعطي للسلام مكانة أعلى من الحرب، وكل أخلاق تنمي مفهوماً سلبياً للسعادة، وكل ميتافيزيقا وفيزياء تطمحان إلى الغاية إلى النهاية إلى حالة نهائية ما، كل نزوع نحو هيمنة جمالية أو دينية، نحو جانب آخر، نحو ما وراء، نحو خارج، نحو فوق، تبيح لنا أن نسأل إذا لم يكن المرض هو ملهم الفيلسوف، يمكن لتنكر الحاجات الفيزيولوجية اللاواعي تحت أقنعة الموضوعية والمثال والعقلانية المجردة يمكنه أن يبلغ مقادير مروعة، وغالباً ما تساءلت، إذا لم تكن الفلسفة، بالضرورة، وبعد كل حساب، عبارة عن تأويل للجسد عن سوء فهم للجسد. وتختفي خلف أسمى الأحكام الخلقية التي قادت تاريخ الفكر حتى اليوم، خلافات ناشئة عن البنية البدنية، سواء من ناحية أفراد منعزلين، أو من ناحية طبقات اجتماعية أو أعراق بكاملها.

ومن المبرر، في البدء، اعتبار انحرافات الميتافيزيقا المتهورة وبخاصة الأجوبة التي تقدمها حول مسألة قيمة الوجود على أنها أعراض للبنية البدنية الخاصة ببعض الأفراد؛ وإذا لم تكن هذه الاعتبارات الايجابية أو السلبية للحياة، تحتوي من الوجهة العلمية، أي ذرة من الحقيقة، فإنها تبقى بالنسبة للمؤرخ ولعالم النفس مؤشرات نفِيسة بصفتها أعراض للبدن، لنجاحاته، لفشله، لغناه ولمقدرته، لسيادته في التاريخ، أو، على العكس، لقلقه أو لتعبه أو لافقاره، ولشعوره بالنهاية وبإرادته في الانتهاء. كما أنني لا أزال أنتظر وصول فيلسوف طبيب بالمعنى الاستثنائي لهذه الكلمة، تكون مهمته دراسة معضلة مجمل صحة شعب، مرحلة، عرق أو الانسانية، والذي قد يملك الجرأة ليحمل شكي إلى أقصى حد له، ويجرؤ على طرح الفرضية: في كل نشاط فلسفي تم حتى اليوم، لم يكن الأمر يتعلق بإيجاد «الحقيقة»، بل يتعلق بشيء آخر مختلف، لنقل بالصحة، بالمستقبل، بالنمو، بالقدرة، بالحياة.

- 3 -

نحزر أني لا أريد أن أنفض عني من دون أي اعتراف بالجميل مرحلة الانحطاط الخطير هذه، والتي لم أستنفذ بعد فوائدها. كما أني أعي كل الأفضلية المطلقة التي تقدمها لي التغيرات اللامتناهية لصحتي، حول كل ممثل فظ للذهن. إن كل فيلسوفٍ قد مر ولا يزال يمر بعدة حالات من الصحة، قد مر بعدد مماثل من الفلسفات: ولا يمكنه إلا أن يحوّل كل حالة من الحالات إلى الشكل والأفق الأكثر روحانية. لا يحق لنا نحن الفلاسفة أن نفصل بين الروح والجسد، كما تفعل العامة، كما أنه ليس من حقنا أبداً، أن نفصل بين الروح والذهن. فنحن لسنا ضفادع مفكرة، أدوات توضيح وتسجيل من دون شعور. إذ يجب علينا دائماً أن نولد أفكارنا من أعماق آلامنا، نغذيها بكل أمومة بكل ما لدينا من دم وقلب ورغبة وعشق وعذاب ووعي وقضاء وقدر. أن نعيش... يعني بالنسبة لنا: أن نحوّل على الدوام إلى نور، إلى شعلة، كل ما نحن عليه وأن نحوّل، على النحو عينه أيضاً، كل ما يمسنا؛ ولن يكون بامكاننا أن نفعل على غير هذا النحو. والمرض؟ هل يمكن فقط، هل يستميلنا سؤال ما إذا كان

بالامكان توفيره؟ الألم العظيم فقط يحرر الذهن في آخر المطاف، مربي الشك العظيم الذي يحول كل U إلى X، X أصيلة حقاً، الحرف ما قبل الأخير للحرف قبل الأخير... الألم العظيم فقط، هذا الألم المديد والبطيء الذي يأخذ وقته، والذي يحرقنا كما لو كنا نحترق بحطب أخضر، يجبرنا، نحن الفلاسفة، على الانحدار حتى آخر عمق في طوايانا، ويجردنا من تلك الثقة، من ذلك العطف، من كل حل وسط، حيث كنا ربما قد وضعنا إنسانيتنا. أشك بأن ألماً كهذا الألم يجعلنا «أفضل» ـ لكنني أعرف أنه يصيّرنا أعمق. عندها، سواء تعلمنا أن نواجهه بإبائنا، بسخريتنا، بقوة إرادتنا شأننا في ذلك شأن الهندي الأحمر الذي يتحمل أشد أنواع العذاب ليناكد جلاده، أو سواء انطوينا، بفضل هذا الألم، في هذا العدم الشرقي ـ الذي يسمونه النيرفانا ـ في الصمت، في الخدر، في صمم التخلي، في النسيان وفي انطفاء الذات: يبقى أن تمارينا كهذه التمارين المديدة والخطيرة في السيطرة على الذات تجعل منا رجلاً آخر مع علامات استفهام أكثر، وقبل كل شيء مع إرادة استفسار، من الآن فصاعداً، أكثر إصراراً وعمقاً وصرامة وقسوة وخبثاً، وسكينة أكبر مما كان قد عُرف حتى الآن. فقدت الثقة بالحياة! الحياة نفسها صارت إشكالاً. ولكن لا يصل الظن إلى أن نتصور أن أحداً ما قد صار بالضرورة، كارهاً للبشر! فحب الحياة لا يزال ممكناً أيضاً ـ إلا أنه حب بطريقة مختلفة من الآن فصاعداً. إنه حب كما تُحب امرأة توقظ فينا الريبة. وبتأثير السحر الخاص لكل ما له طبيعة إشكالية، فإن البهجة التي يعرفها رجل شبيه بهؤلاء الرجال الروحانيين لا تخفي معها كل شقاء الإشكال، كل مخاطر التردد، وحتى كل غيرة العاشق، إنه يعرف غبطة جديدة.

ـ 4 ـ

في النهاية، وحتى لا يبقى بيت القصيد منسياً: نعود من مثيل هذه المهاوي، من مثيل هذا الضنى الثقيل، حتى من ضنى الشك الثقيل، نعود وقد ولدنا من جديد، بجلد جديد ـ نعود وقد صرنا ـ أكثر قابلية للدغدغة، أكثر خبثاً، متمتعين بذوق أشد تهذيباً للبهجة وبمذاق أشد لطافة لكل الأشياء الطيبة، مع حواس أشد بهجة، مع براءة ثانية أشد خطورة، في

البهجة، أشد سذاجة، ومن الآن عينه، مئة مرة أشد صفاء من كل ما كناه من قبل. آه، كم سيبدو لكم مقززاً، فظاً، تافهاً، وباهتاً التمتع كما يفهمه عادة المتمتعون، «مثقفونا» وأغنياؤنا وحكامنا! بأي لذة ماكرة سنسمع من الآن فصاعداً صخب الأسواق هذا، حيث يستسلم «الرجل المثقف»، رجل المدينة اليوم لاغتصابه بالفن والكتاب والموسيقى من أجل «تمتع روحاني»، بقوة الأشربة الروحانية! كم صارت صرخة العشق المسرحية تشنف آذاننا، كم صار التمرد الرومانطيقي كله، وكل اختلاط الحواس الذي يفضله الرعاع المثقف، مع كل توقه إلى ما لا يوصف، وإلى النشوة وإلى الهرج هذا كله كم صار غريباً عن ذوقنا! لا، إذا كنا نحن النقَّه لا نزال بحاجة أيضاً إلى فن، فإنه فن مغاير تماماً، فن ساخر، رشيق، شارد، كامل الطلاقة وكامل الصنعة، ينبجس كشعلة مضيئة في سماء صافية! وقبل كل شيء، فن للفنانين، ليس إلا لفنانين! وأفضل ما نجيده، هو قبل كل شيء، ما يلزم هذا الفن: الجذل، الجذل كله، يا أصدقائي!

بصفتي فنان أيضاً: أحب أن أبرهنه. ثمة أشياء نعرفها الآن جيداً، نحن الرجال الواعون: آه، كم يجدر بنا الآن، بصفتنا فنانين أن نتعلم نسيانها ألاّ نعرف! وبخصوص المستقبل: فسيجدوننا بصعوبة في أثر خطى أولئك الشباب المصريين الذين يعكرون ليلاً سكينة المعابد، يعانقون الانصاب، ويصرون على هتك، ونبش وتعرية ما حُفِظ سراً لأسباب وجيهة، لا، هذا الذوق السيء، إرادة الحقيقة هذه، «الحقيقة مهما كان الثمن»، هذيان الشباب هذا، بتنا نمقته: إننا أشد ضراوة، أشد رزانة، أشد فرحاً، أشد كوياً بالنار، أشد عمقاً من كل هذا! ما عدنا نؤمن أن الحقيقة تبقى حقيقة إذا ما كشفنا سترها: عشنا الكثير لنؤمن بهذا. اليوم صارت بالنسبة لنا قضية لياقة أن لا نتوخى رؤية كل شيء عارياً، ومشاهدة كل عملية وفهم كل شيء و«العلم» بكل شيء. سألت بنية والدتها «هل صحيح أن الله حاضر في كل مكان: أرى ذلك معيب جداً» رأي في تصرف الفلاسفة! علينا أن نجل أكثر الحكمة التي تتخفى ورائها الطبيعة بألغاز وشكوك مبرقشة. ربما كانت الطبيعة إمرأة لديها أسباب تجعلها تخفي أسبابها؟ ربما كان اسمها، ولنتكلم يونانياً Baùbo!

. . . آه من هؤلاء اليونانيين! كم كانوا يجيدون العيش! وهذا ما يفترض قراراً شجاعاً بالتوقف عند السطح، عند الطية، عند الآدمة؛ عبادة الظاهر، الايمان بالصيغ (formes) بالأصوات بالكلمات وبأولمبيا الظاهر كله! كان هؤلاء اليونانيون سطحيون ـ بعمق! ألسنا نرجع إلى ذلك بالذات، نحن متهورو الفكر، الذين تسلقنا أعلى قمم التفكير المعاصر وأخطرها، ومن ذلك الارتفاع استقصينا الآفاق، من ذلك الارتفاع ألقينا نظرة نحو اليونانيين؟ ألسنا يونانيون، في هذا بالضبط؟ عاشقين للأشكال والأصوات والكلمات؟ ألسنا ولهذه الأسباب فنانون؟

Ruta. près de Gênes.

automne de cette année

1886.

روتا ـ قرب جنوه. خريف هذه السنة 1886

مزح، حيلة وانتقام

1 ـ دعوة

تجرأوا على تذوق طعامي أيها الآكلون!
غداً يصير طعمه أفضل.
وبعد غد سيبدو لكم طيباً
وإذا طلبتم المزيد
فإن وصفاتي القديمة
ستوحي لي بالجديد

2 ـ من سعادتي

مذ تعبت من البحث
تعلمت الاكتشاف
مذ واجهتني الريح
أبحر مع كل ريح

3 ـ جرأة

أينما تلقى نفسك، أرجس
فالنبع في القاع
واترك الغربان تنعق:
«الجحيم دائماً في القاع».

4 ـ حوار

A ـ هل كنت مريضاً؟ هل شُفيت؟
ومن كان طبيبي؟
كأنني نسيت كل هذا!
B ـ الآن، أصدق شفائك
لأن المعافى ينسى.

5 ـ إلى الفضلاء

لتعرف فضائلنا كيف تأتي وترحل
برشاقة أشعار هوميروس.

6 ـ حكمة

لا تبقى في الأراضي المنخفضة
احذر الأعالي الشاهقة
فاجمل مرأى للعالم
من وسط الحدر

7 ـ Vade mecum-Vade tecum

أعجبك، وأقوالي تجذبك
تريد أن تتبعني، وأن تسير على خطاي؟
اتبع بإخلاص، ذاتك ذاتها
هكذا تتبعني رويداً رويداً . . .

8 ـ عند سلخ الجلد الثالث

تقشر جلدي وتشقق
والأفعى في داخلي تتوق
بهمة الى أرض جديدة

رغم البراري المقطوعة
زاحفاً بين العشب والحصى،
نَهِمٌ على دربي المعوج
إلى غذائي الأبدي:
أنتِ، ياقوت الأفعى، أنتِ أيتها الأرض.

9 ـ أزهاري

نعم! تريد سعادتي أن تفتنك
أليس هذا مراد كل سعادة؟
أتريد جني أزهاري؟
إنخفض إذن، واختبئ
بين الصخور والعليق
والعق أصابعك مراراً،
لأن سعادتي منكدة!
لأن سعادتي ماكرة!
أتريد جني أزهاري؟

10 ـ المزدري

اتخلى عن أشياء كثيرة
اتركها للصدفة
ويقال اني مزدرٍ
عندما تشرب الكأس مترعة
يسال الكثير من الشراب،
ومع هذا، لا يقال ان الخمر يزدري.

11 ـ يقول المثل

فج ولطيف، فظ ومرهف
غريب واليف

نتن وطاهر
ملتقى المجانين والحكماء
أنا كل هذا، وهذا ما أريد
حمامة، وأفعى وخنزير.

12 ـ إلى صديق للنور

إذا كُنتَ لا تريد أن تتعب عينيك وحواسك
انطلق وراء الشمس في الظل

13 ـ للراقصين

جليد مصقول
هو الجنة
لمن يعرف أن يرقص

14 ـ الشجاع

عداوة صريحة
أجدى من صداقة مفبركة.

15 ـ الصدأ

لا يكفي أن تكون يقظاً.
الصدأ أيضاً ضروري.
وإلا قيل دائماً: «انه غر».

16 ـ الصعود

ما هي أسرع طريق للوصول إلى القمة؟
اصعد ولا تفكر في الأمر

17 ـ حكمة رجل قوي

لا تطلب أبداً. لا تنتحب أبداً.
أقول لك: خذ، ولا تتوقف عن الأخذ.

18 ـ أذهان بليدة

ما أفظع الأذهان البليدة:
ليس فيها من شيء طيب البتة، ولا حتى خبيث.

19 ـ الخط

يرمي، لهواً، كلمة في الهواء.
وقد أوقعت هذه الكلمة،
بالرغم من كل شيء
امرأة.

20 ـ للوزن

تحمل ألم مزدوج
أيسر من تحمل ألم وحيد
أترغب بالتجربة؟

21 ـ زهو

لا تنتفخ: خشية أن تنفجر عند أقل وخزة.

22 ـ رجل وامرأة

اخطف المرأة التي يخفق لها قلبك. هكذا يفكر الرجل؛
المرأة لا تخطف أبداً، إنها تسرق.

23 ـ تأويل

أفسر ذاتي بذاتي، وأخدعها.
عاجز عن تأويل نفسي،
فقط، من يقتفي طريقه الخاص.
يرفع معه معرفتي بذاتي.

24 ـ ترياق للمتشائمين

كل الأشياء فقدت نكهتها إذن؟
ليس إلا مشاربك القديمة؟
غيظك وشتائمك وتجاديفك
تنهك صبري وقلبي.
قرر بحرية
أن تبلع دفعة واحدة
علجوماً دسماً، من دون أية تكلفة.
علاج ضد التخمة!

25 ـ صلاة

أعرف خُلد الكثير من الرجال
ولا أعرف من أكون أنا!
فعيني شديدة القرب مني.
لست ما أرى.
ولا ما رأيت
أكون أجم فائدة لنفسي
لو كنت أكثر بعداً عني
بالطبع، على مسافة أقل من عدوي؟
حتى صديقي الحميم بعيدٌ جداً عني.
لكن في وسط الطريق، بيني وبينه.
هل حزرتم لمن أصلي؟

26 ـ صلابتي

علي أن أتسلق مئة درجة
علي أن أصعد، وأسمعكم تصرخون:

انت صلد! ثم، هل نحن من حجر؟
علي أن أتسلق مئة درجة.
وما من أحد يقبل أن يخدمني كدرجة.

27 ـ المسافر

«دون صراط، الهاوية وصمت الأموات».
هذه مشيئتك! لماذا تركت الصراط!
أيها الجسور! إنها اللحظة! أنظر ببرودة وذكاء
ستضيع، لو آمنت بالخطر.

28 ـ مواساة للمبتدئيين

أنظروا الطفل تحيطه الخنازير المزمجرة.
أعزلاً متردداً
البكاء، هو كل ما يستطيعه
هل سيعرف أن يستقيم في وقفته وان يمشي!
لا تخافوا، فقريباً، أعتقد
سترون الطفل يرقص!
وما ان يقف على قدميه
حتى يستند على رأسه أيضاً.

29 ـ أنانية الكواكب

لو لم أكن أدور. كالدن المدحرج
حول نفسي،
كيف كنت سأحتمل من دون أن احترق
الركض خلف الشمس المضطرمة.

30 ـ القريب

قريباً، يزعجني القريب
فلينطلق للأعالي.
بغير ذلك كيف يصير نجمتي؟

31 ـ القديس المستور

حتى لا تكدرنا سعادتك
تتستر بدهاء الشيطان
بخبثه وثيابه
ولكن، عبثاً تفعل! فمن أعماق نظرك
تشع القداسة.

32 ـ القن

A ـ إنه يقف، ينصت: من خدعه؟ أي طنين يسمع؟
من الذي صرعه هكذا؟

B ـ مثل من كان مقيداً بالسلاسل، فإنه يسمع صليلها في كل مكان!

33 ـ المتوحد

أمقت التبعية بمقدار ما أمقت القيادة
الإذعان، لا، إطلاقاً، واطلاقاً الحكم.
من لا يوحي بالرعب لنفسه
لا يوحيه للآخرين
وفقط من يوحي به يستطيع أن يقود.
وأصلاً، أمقت أن أقود ذاتي!
أحب، شأني شأن الحيوانات البرية والبحرية.
أحب أن أضيع لبعض من الوقت.

أنحت في متاهة رائعة
وفي الأخير، ومن بعيد أعود أدراجي شيئاً فشيئاً
إلى بيتي
حتى أعود وأغري ذاتي بذاتي.

ـ 34
Seneca et hoc genus omne[*]

هذا الوغد يكتب ويعيد الكتابة
بحكمة بغيضة،
كما لو كان همّه أن يكتب أبداً.
وأن يتفلسف من ثمّ

35 ـ ثلج

أحياناً أصنع الثلج
ممتاز لعسر الهضم
لو كان لديكم الكثير لتهضموه
آه، كم ستحبون ما أصنعه.

36 ـ مؤلفات الشباب

مبتدأ ونهاية حكمتي
تصدح في أذني: وماذا سمعت!
لقد تغيرت نغمتها
لم أعد أسمع الا: آه وآخ
آه وآخ شبابي الابديتين.

(*) سينيكا والأنواع الأخرى. سينيكا هو فيلسوف يوناني وكان معلماً لنيرون.

37 ـ حذر

لم يعد السفر آمناً في هذه الصقاع:
وإذا كنت فطناً، ضاعف اليقظة؟
يتم جذبك، تدليلك، ومن ثم تمزق!
هذه الأذهان المهووسة: ينقصها الذهن.

38 ـ الرجل الورع يتكلم

الله يحبنا لأنه خلقنا
«الانسان هو من خلق الله»
يرد الفطنون
والا يحب الانسان ما خلقه بنفسه؟
وهل لأنه خلقه عليه أن ينكره؟

39 ـ في الصيف؟

علينا أن نأكل خبزنا بعرق جبيننا؟
وينصح الأطباء
بأنه عندما نعرق من الأفضل ألا نأكل
ما الذي ينقص في القيظ؟
على ما تدلنا شعلته
بعرق جبيننا
علينا أن نشرب عرق عنبنا

40 ـ بدون حسد

نعم، يخلو نظره من الحسد
ولهذا تكرمونه؟
انه لا يأبه لتكريمكم
فهو لا يراكم
ولا يرى إلا النجوم، النجوم!

41 ـ هيرقليطية!

كل سعادة على الأرض
أصلها الصراع، يا أصدقائي!
نعم، لنصير أصدقاء
يلزم قصف المدافع
يتحد الاصدقاء في ثلاثة أشياء
أخوة أمام البؤس
متساوون أمام العدو
أحرار. . . أمام الموت.

42 ـ مبادئ المرهفين

على رؤوس الاصابع
أحرى من الحبي
العبور من ثقب القفل
أحرى من الأبواب المشرعة.

43 ـ نصيحة

أتشتهي المجد؟
إذن احفظ هذه الأمثولة:
في الوقت المناسب تخلى طوعاً
عن التكريم!

44 ـ رجل الأعماق

ـ باحث، أنا؟ ـ رجاء تحاشى هذه الكلمة!
لستُ إلا ثقيلاً، جد ثقيل
فأنا أهبط، أهبط بدون توقف
حتى أصل، أخيراً، إلى العمق.

45 ـ إلى الأبد

«قدمت اليوم، لأن اليوم يعجبني»
هكذا يفكر كل القادمين إلى الأبد
غير عابئين بثرثرة الناس:
«لقد جئت قبل الأوان، لقد جئت بعد فوات الأوان!».

46 ـ أحكام الكائنات التعبة

كل المنهكين يلعنون الشمس:
وهم، لا يعتبرون الأشجار إلا لظلها!

47 ـ انحطاط

«انه ينخفض، والآن يقع»
لا تنفكون تهزؤون منه.
وفي الحقيقة، انه ينزل اليكم،
ففيض سعادته يشقيه
وفيض نوره يلحق ظلماتكم

48 ـ ضد القوانين

منذ اليوم سأعلق في رقبتي
في حبل من الشعر ساعة
منذ اليوم سيتوقف مدار الكواكب
والشمس وصياح الديك والظل
وكل ما يمكنه أن يعلن لي الزمن
صار بالنسبة لي
أبكماً وأصماً وأعمى
صمتت الطبيعة كلها
إكراماً لتيك تاك القانون والساعة

49 ـ الحكيم يتكلم

غريبٌ، مع إني مفيدٌ للشعب
أمضي في طريقي في الشمس أو في السحاب
ودائماً أعلى من هذا الشعب

50 ـ إضاعة الرأس

إنها فطنة الآن.
كيف استطاعت ذلك؛
لقد فقد رجل مؤخراً رأسه من أجلها
وكانت رأساً غنية قبل هذه المهزلة
وهل مضى رأسه إلى الشيطان؟
لا، بل إلى المرأة

51 ـ أمنيات ورعة

لو يستطيع كل مفتاح
أن يضيع في الحال
وأن يدور في كل قفل
مفتاح عام!
هكذا يفكر في كل لحظة
من كان بنفسه ـ مفتاحاً عاماً

52 ـ الكتابة بالقدم

لا أكتب بيدي فقط
قدمي تريد دائماً أن تأخذ نصيبها أيضاً
متينة، حرة وباسلة، تركض
طوراً في الحقول وطوراً على الورق.

53 ـ «آدمي، مفرط الآدمية» كتاب

مكتئب وشرس
طالما أنت تنظر إلى الخلف
واثق من المستقبل ما ان تثق بنفسك
آه، أيها العصفور، هل أعدك بين النسور؟
هل أنت بوم مينرڤ المفضل؟

54 ـ إلى قارئي

ضرس طيبة ومعدة جيدة
هذا ما أتمناه
وإذا هضمت كتابي
فستتفاهم حتماً معي.

55 ـ الرسام الواقعي

الطبيعة كلها؛ وبأمانة!
كيف يصل إليها؟
ومتى أمكن للطبيعة أن تستنفذ في لوحة؟
لا متناهية هي أقل شذرة في الطبيعة!
وفي الأخير لا يرسم إلا ما يحلو له
وماذا يحلو له؟ ما يعرف ان يرسمه!

56 ـ زهو الشاعر

أعطوني الصمغ فقط
وسأجد بنفسي الخشب
ان تجد معنى لاربعة قوافٍ لا معنى لها
ليس موضوعاً صغيراً للفخر.

57 ـ الذوق يختار

لو تركت لي حرية الاختيار
لاخترت طوعاً مكان صغير
في قلب الجنة:
والأفضل عند بابها.

58 ـ الأنف المعقوف

يتقدم أنفك بخيلاء
في العالم وتنتفخ خياشيمك
لهذا، أيها الرجل المتعالي
كركدن بلا قرن
تقع دائماً على وجهك
لدرجة نرى دائماً معاً
إباءاً مستقيماً وأنفاً مقعوفاً.

59 ـ الريشة تخربش

الريشة تخربش انه الجحيم
هل أنا محكوم بالخربشة؟
هيا، لآخذ الدواة بجرأة
كم يفيض الحبر وأنا أكتب!
كم يسيل مفعم ورحب
كم أنجح في كل ما أكتب الآن
لا شك، كتابتي غير واضحة
وماذا يهم، فمن يفكر بأن يقرأ ما أكتب؟

60 ـ رجال الأعالي

هذا يصعد! بخ
لكن ذاك يأتي دائماً من الأعلى
حتى انه يعيش أعلى من المديح
انه من فوق!

61 ـ المتشكك يتكلم

نصف حياتك قد مضى
العقرب يتقدم، وروحك ترتعش
تدور منذ زمن طويل
تبحث دون أن تجد شيئاً. تتردد هنا؟
نصف حياتك قد مضى:
ليس إلا الحزن هنا وهناك، ومن ساعة لأخرى الخطأ
عما تبحث أيضاً: ولماذا؟
بالضبط. ابحث عن سبب لبحثي.

62 ـ هوذا الرجل

نعم، أعرف أصلي،
نهم كالشعلة
أفنى متوهجاً
نور كل ما ألمسه
فحم كل ما أتركه
أنا شعلة حقاً!

63 ـ أخلاق الكواكب

موسوماً لفلك الكواكب
أيها النجم، بماذا يهمك الليل؟
در بسكينة في الزمان!
ولتبق غريباً وبعيداً عن بؤسه
فنورك مقدر للعوالم البعيدة
لتكن الشفقة خطيئة لك
ولا تقبل الا قانوناً لك: أن تبقى صافياً.

كتاب أول

1 ـ عقيدة، هدف الحياة

كلما جهدت في تفحص البشر، كلهم بما هم فيه وكل واحد فيهم، باستحسان أو بعين السوء، فإني لا أجدهم منكبين دائماً إلا على مهمة واحدة: صنع ما ينفع لحفظ النوع. ولا يتم ذلك حباً بهذا النوع، بل ببساطة لأنه ليس لديهم من شيء أشد قدماً وتمكناً وقدرة، وتصلباً من هذه الغريزة، . . لأن هذه الغريزة هي بالضبط ماهية النوع التجمعي الذي نشكله. مع أننا نتوصل بسرعة، مع قصر نظرنا المعهود، إلى تصنيف البشر تبعاً للعادة إلى رجال نافعين ومضرين، طيبين وسيئين، فإننا وبعد كل اعتبار، وبعد تفكير عميق حول مجمل العملية، ننتهي إلى الشك بهذا النهج من التصفية والتقطيع ونتخلى في الأخير عنه. وربما كان أسوأ الرجال لا يزال أفضلهم من وجهة نظر حفظ النوع؛ لأنه يحتفظ في نفسه، أو يحتفظ الآخرون بتأثيره بغرائز من دونها كانت الانسانية قد تراخت وفسدت منذ زمن طويل. فالكره والفرح لتعاسة الآخرين، والتعطش للنهب والسيطرة وكل ما ندينه على أنه شر: هذا كله ينتمي إلى اقتصاد حفظ النوع المدهش، اقتصاد باهظ ومسرف من دون شك، وأخرق بشكل رهيب، ولكن يمكن البرهان على أنه قد حافظ على نوعنا حتى هذا اليوم. ولا أدري، آه يا مثيلي، يا قريبي العزيز فيما إذا كان لا يزال بإمكانك العيش على حساب النوع، أي أن تعيش بطريقة «لاعقلانية» و«قبيحة»؛ فما كان بامكانه أن يسيء إلى النوع قد مات منذ آلاف السنين، ربما قد صار منذ الآن فصاعداً من الأشياء التي لا يستطيع الله نفسه حيالها أي شيء. إتبع

أفضل نزعاتك أو أسوأها، وقبل كل شيء أعدم ذاتك، فإنك تبقى في كلا الحالتين، بطريقة أو بأخرى محركاً للانسانية ومحسناً لها. ويحق لك، بهذه الصفة، بمُقَرِّيظِكَ بمقدار ما يحق لك بالساخرين منك! لكنك لن تجد على الاطلاق من بامكانه أن يجعلك مهزأة مطلقة، أنت، أيها الفرد الخاص، حتى في أفضل ما عندك، وأن يجعلك تشعر، كما تقتضيه الحقيقة، أيتها الذبابة المسكينة، أيها الضفدع المسكين، مبلغ فاقتك التي لا حصر لها. وفي الحقيقة لكي يعرف المرء أن يضحك من ذاته كما يجدر بأن يكون الضحك، ضحكاً يرن من أعماق الحقيقة كاملة، فإن أفضل العقول لا تملك حتى الآن ما يكفي من حس الحقيقة، وأشد الموهوبين يملكون ما ضئل من العبقرية! ربما لا يزال هناك مستقبل للضحك أيضاً! وذلك عندما تكون فرضية: «النوع هو الكل، والفرد لا شيء» قد نفذت في الانسانية حتى النخاع. وعندما يكون، في كل لحظة، هذا الخلاص النهائي، هذه اللامسؤولية النهائية، في متناول كل فرد. عندها قد يكون الضحك قد تحالف مع الحكمة، عندها قد لا يكون ثمة علم الا «العلم الجذل». إلا أن الأمر لا يزال على خلاف ذلك حتى الآن، فمهزلة الوجود لم «تعي ذاتها» بعد، وبانتظار ذلك، فإننا لا نزال في مرحلة المأساة، مرحلة الأخلاق والأديان. على ماذا يدل هذا الظهور المتكرر دائماً لهؤلاء المؤسسين للاخلاق والأديان، لهؤلاء المحرضين على الصراع من أجل انتصار معايير أخلاقية، ما هي دلالة جهابذة تأنيب الضمير وحروب الأديان هؤلاء؟ هؤلاء الابطال على هذا المسرح؟ ذلك أنهم كانوا هم الأبطال حتى هذه اللحظة، وكل ما تبقى، وكان لوحده مرئياً ومباشراً، لم يخدم الا كتوطئة لهؤلاء الأبطال، إما كالآلات والكواليس، واما كأمناء على الأسرار وكفراشين (الشعراء مثلاً كانوا دائماً فراشي أخلاق ما). من البديهي أن هؤلاء المأساويين يشتغلون في خدمة «النوع» مع أنه بامكانهم أن يعتقدوا أنهم يشتغلون في خدمة الله، وبصفتهم مرسلين من الله. هم أيضاً يعززون حياة النوع، بتعزيزهم الإيمان بالحياة، «الحياة تستحق أن تعاش ـ هكذا يصرخ الواحد منهم، هذه الحياة تعني شيئاً ما، شيئاً ورائها، تحتها. فانتبهوا!». تنبثق هذه الغريزة التي تفعل فعلها بانتظام في أرفع الرجال كما في أدناهم، غريزة حفظ النوع، تنبثق من وقت لآخر في شكل العقل

والهوى الفكري، تصحبها آنذاك دوافع براقة، وتسعى إلى أن تنسينا أن كل هذه القوى ليست في الواقع إلا دافع، غريزة، جنون، وغياب للأسس. الحياة يجب أن تُحب، لأن...! يجب على الانسان أن يؤثر ذاته وأن يؤثر قريبه، لأن...! وأياً كانت تعريفات هذه الـ «يجب» وهذه الـ «لأن» الحاضرة والمستقبلية: فعندها ولكي يظهر أن لكل ما ينتج بالضرورة! ومن نفسه دائماً، ومن دون أي هدف، لكي يظهر أن له هدفاً محدداً ويكتسي بالنسبة للانسان بداهة العقل والقانون النهائي، ينبري دكتور الأخلاق على المسرح مع عقيدته في «هدف الوجود» يخترع وجوداً آخر، وجوداً ثانياً وبواسطة ألاعيبه الجديدة يخرج وجودنا القديم المبتذل من رزانته المبتذلة. بالطبع، انه لا يريدنا على الاطلاق أن نضحك من الوجود، ومن أنفسنا ـ ولا حتى منه! فالفرد يبقى فرداً بالنسبة له، شيء ما أول وأخير، كما أنه رحب، النوع غير موجود على الاطلاق بالنسبة له، ولا الجمع ولا الاصفار. وبمقدار جنون إبداعاته وتقديراته وبمقدار هوسها، فإنه يجهل سير الطبيعة، وينكر شروطها ـ لقد كانت الأخلاق دائماً خرقاء وضد الطبيعة، لدرجة أن كل واحدة منها كان بامكانها أن تقوض البشرية في حال تمكنت هذه الأخلاق من السيادة عليها، ومع هذا كله، ففي كل مرة يظهر فيها «البطل» على المسرح، يحصل شيء جديد، المناقض الرهيب للضحك والانفعال العميق لكثير من الأفراد عند هذه الفكرة: «نعم، الحياة تستحق العيش! نعم، أنا جدير بأن أعيش!»، الحياة، أنا، أنت، كلنا، بما نحن فيه، عدنا مهمين لبعض الوقت، مما لا شك فيه أنه مع مرور الوقت وحتى إشعار آخر انتهى الأمر بأن ينتصر الضحك والعقل والطبيعة على كل واحد من جهابذة «الهدف» هؤلاء: لم تتوقف المأساة القصيرة عن العودة إلى ملهاة الوجود الأبدية، ولنتكلم مع آشيل Eschyle. «في النهاية ستلطم أمواج القهقهة التي لا تحصى، أكبر هؤلاء المأساويين أيضاً». إلا أن الطبيعة البشرية، وبالرغم من هذا الضحك بفضيلته المُصْلِحة، قد تغيرت بفعل الظهور المستمر لأساتذة «هدف الوجود» هؤلاء ـ لقد صار لهذه الطبيعة حاجة إضافية. إنها بالضبط الحاجة المستمرة لهؤلاء الجهابذة ودروسهم. وشيئاً فشيئاً صار الانسان حيواناً خيالياً خاضعاً، أكثر من أي حيوان آخر إلى شرط للوجود: عليه من وقت لآخر أن يعتقد انه يعرف

لماذا هو موجود، لا يمكن لنوعه أن يزدهر من دون ثقة دورية بالحياة! من دون إيمان بالعقل في الحياة! ولن يتوقف الانسان من وقت لآخر عن إقرار: ثمة شيء لم يعد يحق لنا على الاطلاق الضحك عليه، وسيعرف أفطن صديق للنوع البشري أن يضيف: «ليس الضحك والحكمة الجذلة فقط ما يشكلان، وسائط وضرورات لحفظ النوع، فالطابع المأساوي بلا عقلانيته السيئة يدخل أيضاً في عداد هذه الوسائط» بالتالي. . . ، وبالتالي! هل تفهمونني، آه، يا أخواتي؟ هل تفهمون قانون المد والجزر الجديد هذا؟ نحن أيضاً ستحين ساعتنا!.

2 ـ الوعي الفكري

ما برحت أقوم بالتجربة عينها، وما برحت أرفض بداهتها، مع أنها ملموسة: أغلب البشر ينقصهم الوعي الفكري؛ وغالباً ما بدا لي أن تملُّك هذا الوعي يعني أن تعيش وحيداً وسط المدينة الآهلة، كما لو كنت في الصحراء. ينظر الواحد اليك بعين الريبة متابعاً تشغيل ميزانه، ناعتاً هذا حسن وذاك خبيث؛ وما من أحد يحمرُّ خجلاً لو أنت لمَّحت له إلى أن أوزانه مجوفة؛ ـ إضافة إلى أن أحداً لن يسخط عليك، ربما يضحكون من شكوكك. أريد أن أقول: لا تجد غالبية البشر أنه من المعيب أن تؤمن بهذا الشيء أو ذاك، وبأن تتصرف تبعاً له، من دون أن تكون قد وزنت ما له وما عليه. من دون أن تعي بحق الأسباب الأخيرة لتصرفها، من دون أن تجهد في تقصي هذه الأسباب فيما بعد، ولا يزال أمهر الرجال وأنبل النساء ينتمون إلى فئة الغالبية هذه. بماذا تهمني الطيبة والرهافة والعبقرية ما ان يغض رجل هذه الفضائل، الطرف عن فتور الإيمان في قلبه، وفتور حُكْمِهِ، ما لم تكن الرغبة في اليقين أقصى طروحاته وأخص ضروراته، ما لم يكن يرى في ذلك ما يميز أسمى الرجال عن أوضعهم! لقد وجدت عند ناس أتقياء كرهاً للعقل شكرتهم عليه: إذ أنه يكشف خبث وعيهم الفكري! لكن أن تلقى نفسك منتصباً وسط هذه recum concordia discors، وسط هذا الارتياب الرائع، وتعددية الوجود هذه، من دون أن تتساءل، ومن دون أن ترتعد من الرغبة في البحث ولذته، ألاّ تكره المُسْتَجْوِبْ ولو أنك قد تهزأ منه عند الحاجة حتى السقم، هذا ما أجده حقيراً، وهذا الاحتقار هو

ما أبحث عنه قبل كل شيء عند كل أمرئ. لا أعلم أي جنون يصور لي دائماً أن كل رجل ـ فرد يملكه. هذه هي طريقتي في التعسف.

3 ـ نبيل ووضيع

يبدو للوضعاء من الناس أن كل المشاعر النبيلة والكريمة تخلو من المنفعة العملية، ولهذا السبب فإنها تثير ريبتهم: فما ان يسمعوا بها حتى يطرفون بعيونهم كأن لسان حالهم يقول: «لا شك أن الأمر يخفي فائدة ما، ذلك أننا لا نستطيع أن ندرك كل شيء»، وهم يحتدون على الرجل النبيل لأنهم يشكون في أنه يسعى إلى مصلحته بطرق ملتوية. وإذا ما توصلوا إلى الاقتناع بغياب أي مصلحة وأي دافع وربح شخصي، يصير الرجل النبيل بنظرهم مجرد مجنون بائس: فيحتقرون أفراحه ويسخرون من ضياء عينيه.

«كيف يمكن التمتع بتحمل الأذى، كيف نُقبل عليه مع سابق معرفة! لا بد أن هوى النبيل يعود إلى مرض عقلي ما!»، هكذا يفكرون مع نظرة احتقار، هذا الاحتقار الذي يكونوه للافراح التي يمكن للمجنون أن يستقيها من فكرته المُتسلطة. يُعرف الطبع الوضيع بأنه لا يترك أبداً مصلحته تضيع عن ناظريه، وبتسلط فكرة الهدف والمنفعة على أقوى الغرائز الأخرى لديه، وبكونه لا يترك نفسه تنجر وراء اندفاعاتها في أفعال لا طائل منها. هذا ما يشكل حكمته وعظمته. إن الطبع الأعلى بالمقارنة معه هو الأشد لاعقلانية: لأنه عندما يضحي الرجل النبيل، الكريم بذاته، فإنه في الواقع يخضع لاندفاعاته الخاصة، وفي أجمل لحظاته يتوقف عقله. إن حيواناً يخاطر بحياته ليحمي صغاره، أو يلحق في وقت التزاوج أنثاه حتى الموت، لا يفكر أبداً في الخطر، فعقله يتوقف أيضاً، لأن المتعة التي يجلبها له صغاره أو الأنثى والخوف من فقدانها تسيطر عليه تماماً فيصير أكثر حماقة مما هو عليه في العادة، شأنه في ذلك شأن الرجل النبيل والكريم، لهذا الرجل عدد من مشاعر اللذة أو النفور تبلغ من الشدة درجة تجعلها تسكت العقل أو تجعله في خدمتها: عندها يدخل القلب في العقل عند هذا الكائن، ومذ ذاك لا يتم الكلام إلا عن «الهوى» (لا شك أن العكس يحدث أحياناً، نوع ما من «انقلاب للهوى»، كما في حالة Fontenelle مثلاً، الذي قال له أحدهم مرة واضعاً يده على قلبه: «ان ما

تملكه هنا يا عزيزي، هو أيضاً مخ). ان لاعقلانية أو عقلانية الهوى المنحرفة هو ما يحتقره الوضيع عند الرجل النبيل، خاصة عندما يتجه هذا الهوى نحو مواضيع تبدو له أن قيمتها وهمية أو عبثية، فإذا كان يغضب لمرأى من يخضع لهوى بطنه، فإنه مع ذلك يفهم تسلط هذه اللذة، إلا أنه لا يمكنه على الاطلاق أن يفهم، كيف يمكن مثلاً، أن نخاطر بصحتنا وكرامتنا حباً بالمعرفة. يتجه ذوق الطبائع العليا نحو الاستثناءات، ونحو مواضيع يهملها عادة أغلب البشر، وتبدو بدون أي جاذبية: إن للطبع الأعلى حكم قيمي خاص، إلا أنه بشكل عام لا يعتقد أن معياره خاص بجبلة ذوقه، بل على العكس، فإنه يخمن أن قيمه ولا قيمه الشخصية هي قيم كونية، لذلك فإنه يقع في سوء الفهم وفي نطاق المتعذر. نادراً جداً ما يملك الطبع الأعلى من العقل ما يسمح له بفهم ومعاملة الرجل المتوسط بما هو عليه: إذ أنه غالباً ما يعتقد أن هواه هو الهوى الحميم للجميع، وهذا الاعتقاد هو ما يملؤه حرارة وتوهجاً. حين لا يشعر هؤلاء الرجال الاستثنائيون بأنهم كذلك، كيف سيتمكنون بالتالي من فهم ذوي الطبع الوضيع، ويقيمون القاعدة بانصاف! فيتكلمون هم أيضاً بالتالي عن الجنون، وعن فوات الفرص الملائمة، وعن الأحلام الخيالية للبشرية، مندهشين أمام هذا الجري الأخرق للخليقة التي لا تريد أن تقر بـ «الشيء الوحيد الضروري»، هذا هو التعسف الأبدي للطبائع النبيلة.

4 ـ ما يحفظ النوع

إن المفكرين الأقوياء، المفكرين الخبثاء هم أكثر من ساهم حتى الآن في تقدم البشرية: فهم لا يفتأوا يؤججون الاهواء المنطفئة، وكل مجتمع منظم يخمد الاهواء ـ لا يفتأوا يوقظون عقلية المقارنة والتناقض والميل إلى الجديد، والاختبارات الجريئة، والتجريب ويجبرون البشر على المواجهة بين رأي ورأي بين نموذج ونموذج. شاهرين السلاح غالباً، مقوضين أطراف التخوم، منتهكين التقوى، ولكن أيضاً مبدعين أدياناً وأخلاقاً جديدة! ان «الخبث» الذي نلقاه عند كل استاذ للجديد، عند كل واعظ بالأشياء الجديدة، هو عين «الخبث» الذي يثير التبخيس، غير أنه في تلك الحالة يعمل بحذاقة أشد، ولا يثير حركة العضلات مباشرة، ولا يثير

ذلك الجحود. في كل حال، يبقى الجديد هو الشر، كونه يريد أن يستولي وأن يدوس بقدميه أطراف ـ التخوم القديمة وأن يجندل التقى القديمة، ذلك أن القديم وحده هو الخير! إن الرجال الصالحين في كل مرحلة هم الذين يفلحون الأفكار القديمة بعمق شديد حتى تثمر، إنهم مزارعي الفكر، إلا أنه لا بد لكل تربة من أن تستنفذ في النهاية؛ وعلى محرات الشر أن يعود دائماً. ثمة نظرية أخلاقية اليوم، عقيدة خاطئة من أساسها، تروج لها إنكلترا بشكل خاص، وتفيد أن «الخير» و«الشر» ينمان عن مجمل التجارب «النافعة»، و«غير النافعة»: يسمى «خيراً» كل ما يحفظ النوع و«الشر» كل ما يضر به، وفي الحقيقة فإن الغرائز الشريرة هي مفيدة بدرجة أرفع، وملائمة لحفظ النوع بمقدار الغرائز الطيبة، إلا أنه لديها وظيفة مختلفة.

5 ـ الواجبات المطلقة

كل الرجال الذين يشعرون بالحاجة إلى أشد الكلمات والنبرات حرارة، وأشد الحركات والأوضاع بلاغة لكي يمارسوا أي عمل ما، شأن الثوار والاشتراكيين وواعظي التوبة سواء كانوا مسيحيين أم لا؛ كل هؤلاء الرجال يتكلمون عن «الواجبات»، ودائماً عن الواجبات ـ ذات الطابع المطلق ـ وإلا فإنهم لن يستطيعوا أن يبرروا الهوى (Pathos) الكبير الذي يثيرهم: وهم يعرفون ذلك جيداً. لذلك يلجأون إلى فلسفات الأخلاق التي تبشر بالآمر القطعي، أو يبلعون جرعة كبيرة من الدين، كما فعل مازيني Mazzini. ولأنهم يريدون أن يوثق بهم بشكل مطلق، فإنه يلزمهم قبل كل ذلك أن يثقوا بأنفسهم، وبطريقة مطلقة، بفضل قانون أعلى، جليل في ذاته، ولا يقبل النقاش، يشعرون أنهم خدمه وأداته، ويتصرفون على هذا الأساس. نلقى في هذه الفئة من البشر أشد الأعداء الطبيعيين للتحرر والشك الأخلاقيين وأشدهم تأثيراً بشكل عام: إلا أنهم نادرون. بالمقابل، ثمة طبقة وفيرة لهؤلاء الاعداء تلقاها حيث توصي المنفعة بالخضوع، بينما يبدو أن السمعة والشرف ينهيان عن ذلك. مثلاً يشعر كل من يتحدر من عائلة عريقة نبيلة، بالاهانة لفكرة أن يكون أداة لأمير، لحزب أو لملة، حتى لسلطة مالية، مع أنه يريد أن يكون هذه الأداة، أو أنه يجد نفسه مضطر لذلك، فإنه يحتاج إلى مبادئ مؤثرة يستطيع أن يتفوه بها في معرض

كل شيء: مبادئ لواجب مطلق يحق لنا أن نخضع لها وأن نظهر خاضعين من دون أي خجل. يبقى كل إذلال أشد دقة مرتبطاً بالأمر القطعي ويبقى بالتالي العدو المستميت لكل أولئك الذين يريدون أن يجردوا الواجب من طابعه المطلق: هذا ما تفرضه عليهم اللياقة وشيء آخر أيضاً.

6 ـ اعتبار ضاع

لقد فقد التأمل كل اعتبار خارجي، لقد حول الطقس والوضعية الاحتفالية إلى سخرية، ولم يعد بالامكان تحمل حكيم من النمط القديم. فنحن نفكر بسرعة مفرطة، في الطريق، وفي عز المسير وفي خضم الأعمال من أي نوع كانت، حتى عندما يتعلق الأمر بأخطرها؛ فإننا لا نحتاج إلا إلى القليل من التحضير، وحتى من الصمت: يتم كل شيء كأننا نحمل في رأسنا آلة تدور باستمرار وتتابع عملها حتى في أسوء الشروط. فيما مضى، كانت تلحظ مباشرة هيئة من يريد أن يفكر، وكان أمراً استثنائياً بدون شك ـ من يريد إنطلاقاً من لحظة ما ان يكتسب حكمة وينتظر أن تهل فكرة له: فترتسم على وجهه هيئة لائقة كما لو كان يصلي، أو يتوقف عن المسير، نعم، عندما كانت الفكرة «تأتي»، كان يبقى لساعات متسمراً في الشارع، على ساق واحدة، أو على الساقين، كانت الفكرة «تستحق» هذا العناء.

7 ـ ملاحظات للمجدين

كل من يريد اليوم أن يجعل من المسائل الأخلاقية مادة للدراسة، قد يفتح ميدان عمل عظيم. ثمة أنماط من الأهواء من كل نوع للتأمل فيها كل نمط بمعزل عن الآخر عبر العصور، وعند الشعوب والافراد الكبار والصغار، ولاظهار نهج تفكيرها... ونهج تقديرها للقيم وتفسيرها للاشياء! إن كل ما يعطي طعماً للوجود لم يحصل على تاريخه بعد: إذ أين بوشر بدراسة تاريخ الحب والطمع والرغبة والوعي والشفقة والقساوة؟ إلى الآن لا يوجد البتة حتى تاريخ مقارن للحقوق أو ببساطة للعقوبات. هل خطر لنا أن نجعل من مختلف أجزاء اليوم، ونتائج التحديد المنظم للعمل وللأعياد ولأيام الراحة، مادة للدراسة؟ هل نعرف التأثير الأخلاقي للأطعمة؟ هل توجد فلسفة غذائية؟ (يكفي وحده الهرج الذي يحصل دائماً

مع أو ضد النباتيين ليبرهن أن هذه الفلسفة غير موجودة) هل جمعت نتائج تجارب العيش المشترك، مثلاً نتائج العيش في الأديرة؟ هل عرضت جدلية الزواج والصداقة؟ هل وجدت مختلف عادات العلماء أو التجار أو الفنانين أو الحرفيين منظِّريها؟ هل يصعُب التفكير في هذه المسائل؟ هل تمت بعمق دراسة كل ما اعتبره الرجال حتى اليوم على أنه «شروط وجودهم» ووضعوا فيه كل عقلهم وهواهم وتطيرهم؟ يكفي رصد مختلف أنماط النمو التي تأخذها الغرائز البشرية ويمكن أن تأخذها أيضاً بتأثير المناخات الأخلاقية، لتشكل عملاً وأكثر لأنشط الباحثين. يلزم أجيال وأجيال من العلماء المتكاتفين بدراية ليستنفذوا مادة هذا المجال ومختلف وجهات نظره، وسيكون الأمر عينه لو أردنا أن نفهم أسباب اختلاف المناخات الأخلاقية (لماذا شمس هذا الحكم الأخلاقي، هذا المعيار القيمي تلمع في هذه المنطقة وليس في المنطقة الأخرى؟) وثمة عمل جديد أيضاً يشمل تحديد خطأ علل هذا الحكم الأخلاقي وطبيعته التي رجحت حتى اليوم. ولنفرض أن هذا العمل قد أنجز، عندها ستبرز على السطح أشد المسائل صعوبة: هل بمقدور العلم أن يحدد أهدافاً للعمل، بعدما بيّن أنه قادر على خلع وإعدام مثل هذه الأهداف؟ عندها تبدأ تجارب قادرة على إشباع كل أنواع البطولات، تجارب لعدة قرون قادرة على خسف كل الأعمال الكبيرة وكل التضحيات التي كلّمنا عنها التاريخ. حتى الآن، لم يشيد العلم هذه الصروح العملاقة: وهذا زمن سيأتي أيضاً.

8 ـ فضائل لاواعية

كل خصال المرء، الخصال كلها التي يعيها وبالأخص عندما يفترض أنها جلية ومرئية لمحيطه ـ تخضع لقوانين تطور مختلف تمام الاختلاف عن خصاله اللاواعية أو التي لا يعرفها جيداً، والتي تختفي لدقتها حتى عن عيون أرهف المراقبين، وتعرف أن تتوارى كما لو كانت وراء ستار من العدم. وهذا ما يتم في النقش الرقيق الذي ينحت حراشف الزواحف: التي يخطئ من يعتبرها زخرفاً أو سلاحاً، لأنه لا يمكن تميزها إلا بواسطة مجهر، أي بفضل عين ذات حدة مصطنعة لدرجة لا تملكها الحيوانات التي ستشكل هذه الحراشف بالنسبة لها زخرفاً أو سلاحاً! تمضي خصالنا

المرئية، وبالأخص تلك التي نعتقد أنها كذلك في طريقها، كما تمضي تلك التي تملك الاسم عينه والتي لا نراها، ولا يمكنها بالتالي أن تخدمنا كسلاح أو كزينة، تمضي أيضاً في طريقها، طريق مختلف مزدان على الأرجح بالخطوط والرهافة وبنقش قد يرضي إلهاً يملك مجهراً إلهياً. هاك مثلاً حيويتنا، وطموحنا وفطنتنا التي يعرفها الجميع. ولكن الا تملك فيما عدا ذلك حيويتـنا وطموحـنا وفطنتـنا، حراشف زواحف لم يوجد بعد أي مجهر يستطيع رؤيتها!. هنا سيقول أتباع الأخلاق الغرائزية: بخ! إنه يقبل على الأقل بامكانية وجود فضائل لاواعية ـ.. وهذا يكفينا، ـ آه! كم تكتفون بالقليل!

9 ـ تدفقاتنا

لقد اكتسبت البشرية في مراحل تطورها السابقة عدداً لا يحصى من الاستعدادات، إلا أنها لا تزال ضعيفة وجنينية لدرجة أن ما من أحد يستطيع أن يدرك أنها قد اكتُسبت، والتي تنبجس فجأة إلى النور بعد وقت طويل من اكتسابها، ربما بعد عدة قرون: خلال ذلك تكون قد نضجت وصلبت. تبدو بعض الأزمنة، كما يبدو بعض الرجال أنهم يفتقرون إلى هذه الموهبة أو تلك، هذه الفضيلة أو تلك؛ ولكن لننتظر إذا كان لدينا الوقت، أبناء أبنائهم، وأبناء هؤلاء: فإنهم سيبرزون إلى النور بواطن أجدادهم، هذه البواطن التي كان أجدادهم أنفسهم يجهلونها. غالباً ما يفشي الإبن نفسه سر أبيه: وهذا الأخير يفهم نفسه بشكل أفضل ما ان يصير لديه هذا الابن، نحمل كلنا في داخلنا مزارع وحدائق سرية: ولأسْتَعْمِل تشبيهاً آخر، كلنا براكين تنمو وتنتظر ساعة التفجر: ـ أما بخصوص معرفة ما إذا كانت تلك الساعة قريبة أو بعيدة، فإن أحداً بالتأكيد، حتى «الله الطيب» لا يعرف ذلك.

10 ـ نوع من الوراثة

أحب اعتبار الرجال النادرين في مرحلة ما بوصفهم الذرية المتأخرة التي تنبثق فجأة من حضارة قديمة وقوى بائدة. أرى فيهم نوعاً من الوراثة لشعب ولعاداته: ـ وعلى هذا الأساس ثمة شيء في حالة هؤلاء الرجال

يجدر فهمه! فهم يبدون اليوم غريبين، ونادرين وغير مألوفين: وكل من يشعر بوجود مثل هذه القوى في ذاته عليه أن ينميها ويدافع عنها ويجلها ضد العالم المعادي والمتمرد. فأما ان يصير رجلاً كبيراً، واما يصير فرداً غريباً ومجنوناً، ذلك إن لم يهلك في الطريق. فيما مضى كانت هذه الخصال النادرة عامة وفي متناول الجميع؛ ولم تكن تمنح النبل، ربما لأنها كانت مفروضة ولازمة: فلم يكن باستطاعتك أن تجد فيها العظمة، لأنك على الأقل لا تخاطر معها بأن تصير متوحداً أو مجنوناً. نلقى بالأخص، أن العائلات والفئات المحافظة لشعب ما تنبت مثل هذه الردة للغرائز الهرمة، بينما يقل حظ هذا النمط من الوراثة عند الاعراق التي تتغير عاداتها ومعايير قيمها بسرعة. للايقاع عند قوى النمو عند الشعوب أهمية توازي أهميته في الموسيقى: في الحالة التي تعنينا للسرعة المعتدلة ضرورة مطلقة، بصفتها إيقاع فكر شغوف وبطيء: وفي هذا الاتجاه بالضبط تعمل ذهنية العائلات المحافظة.

11 ـ الوعي

الوعي هو آخر طور من أطوار نمو الحياة العضوية، وهو بالتالي أقل ما فيها كمالاً وأكثرها هشاشة. تنبثق عن الحياة الواعية زلات لا تحصى وأفعال ناقصة تؤدي إلى فناء حيوان أو كائن إنساني قبل أوانه، «بالرغم من القدر» حسبما يقول هوميروس. لو لم يكن موضع الغرائز، هذه الفضيلة المنظمة أقوى بكثير من الوعي، لو لم يكن يلعب بالاجمال دور المنظم، لكانت البشرية قد هلكت تحت وطأة أحكامها العبثية وهذيانها وطيشها وسرعة تصديقها. باختصار لكانت قد هلكت من حياتها الواعية بالذات: أو بالأحرى من دونه كانت البشرية قد هلكت منذ زمن طويل! طالما لم تنضج وظيفة ما، طالما لم تبلغ نموها الكامل، فإنها تبقى خطراً على الجهاز العضوي: وانه لحظ كبير أن يُستبد بها جيداً: ولقد استبد بالوعي بقسوة، وليس تشامخه أقل ما استبد به. يُعتقد أن هذا التشامخ هو نواة الانسان، وأنه ما يشكل عنصره الدائم، الأبدي، الأعلى والأولي! ويتم اعتبار الوعي كمقدار معطى ثابت! يُنكر تطوره وتقاطعاته! ويعتبر كـ «وحدة للجهاز العضوي». هذه المغالاة بتعزيز الوعي، والجهل به المضحكين، كان لهما

أن يُجَنِّبا الوعي نضجاً مفرط السرعة. ولأن الناس يعتقدون أنهم بالأصل يمتلكون الوعي. فإنهم لم يهتموا بأن يكتسبوه ـ ! ولم يتغير الوضع اليوم على الاطلاق! أن نتمثل المعرفة يعني أن نجعلها غريزية، هاكم ما يشكل المهمة الجديدة كلياً، والتي بالكاد يمكن تمييزها، والتي لا يدرك البصر البشري منها إلا النذر القليل، مهمة لا يدركها إلا من أدرك أننا لم نتمثل بعد إلا أخطاءنا، وان كل وعينا يعزى اليها.

12 ـ في أهداف العلم

ما الذي يقال؟ إن أسمى غاية للعلم هي أن يجلب للانسان أكبر قدر ممكن من اللذة ويجنبه أقل قدر من الكدر؟ ولكن كيف سيتمكن العلم من ذلك إذا كانت اللذة والكدر يشكلان عقدة واحدة، لدرجة أن من يريد أن يحصل على أكبر قدر ممكن من اللذة عليه أن يعاني القدر عينه على الأقل من الكدر، إذا كان من يريد أن يصل إلى «جنات النعيم» عليه أن يستعد «ليكون حزيناً حتى الموت»؟ وربما كانت الأمور تسير على هذا النحو! فالرواقيون، على الأقل، كانوا من هذا الرأي، وكانوا منطقيين مع أنفسهم حيث كانوا يرغبون بأقل قدر ممكن من اللذة لكي يحصلوا من الحياة على أقل قدر ممكن من الكدر (فالحكمة التي كان لسان حالهم يرددها: «أسعد الرجال أفضلهم»، يمكن استخدامها كشعار لمدرسة للعوام، بمقدار استخدامها كحالة دقيقة من حالات علم حل مشكلات الضمير للمرهفين)... وحتى اليوم لا يزال لديكم الخيار عينه: فإما أقل قدر ممكن من اللذة، ولنقل من غياب الألم ـ وفي الحقيقة هذا ما يجدر بالاشتراكيين وسياسيي كل حزب ألاّ يعدوا أتباعهم بنزاهة بأكثر منه ـ أو بأكبر قدر ممكن من الكدر كفدية للحصول على تكاثر وفير للذات والافراح اللطيفة التي نادراً ما تم التنعم بها حتى الآن! فإذا ما اعتمدتم القرار الأول، بِنِيّة خفض وتقليص قدرة الرجال على الألم، والحال، يلزم عندها خفض وتقليص قدرتهم على الفرح. وفي الواقع يمكن بواسطة العلم ترجيح الهدف الأول كما الهدف الثاني! ربما يُعرف العلم اليوم أكثر بواسطة وسائله العظيمة بقدرته على سلب الانسان أفراحه وعلى جعله أشد بروداً وأشد شبهاً بتمثال، وأشد رواقية. إلا أنه يمكنه جداً أن يكشف ذات يوم أنه أكبر

مُموّن للألم ـ وعندها ربما أمكننا أن نكتشف في الوقت عينه قدرته الفائقة على أن يضيء للبشرية كواكب جديدة من الفرح!

13 ـ في مذهب الشعور بالاقتدار

سواء أحسنّا أم أسأنا للآخرين، فإننا نمارس مقدرتنا عليهم؛ ولا نبغي أكثر من ذلك! فالشر نمارسه على من نريد أن نجعلهم يشعرون به، وللوصول إلى هذه الغاية يشكل الألم وسيلة أكثر تأثيراً من اللذة: يتطلب الألم دائماً أسباباً، بينما تميل اللذة إلى أن لا تأخذ بالاعتبار غير ذاتها، دون أن تنظر إلى أي جانب آخر. نمارس قدرتنا على فعل وإرادة الخير نحو من يخضع لنا بطريقة أو بأخرى (أي الذين من عادتهم أن يفكروا بنا على أننا مبدأهم) فنريد حقاً أن نضاعف قدرتهم الخاصة، لأننا بتلك الطريقة نضاعف قدرتنا، أو نريد أن نظهر لهم المنفعة التي يجدونها في خضوعهم لنا، فيشتد بالتالي رضاهم عن وضعهم، ويصيرون أشد عداوة وضراوة في مواجهة أعدائنا الخاصين. ولو قدمنا التضحيات للقيام بالخير أو بالشر، فإن ذلك لا يغير من القيمة النهائية لأعمالنا: حتى لو عرضنا حياتنا للخطر شأننا في ذلك شأن شهيد دينه، فإننا نقوم بهذه التضحية لعطشنا الخاص إلى مقدرتنا، أو للحفاظ على الأقل على شعورنا بأننا نملكها. عندما نشعر بأننا «نملك الحقيقة»، ما الذي لا نرمي به عرض الحائط لنحتفظ بهذا الشعور! ما هي الأشياء التي لا نتخلى عنها لنبقى محافظين على «ارتفاعنا»! أي أعلى من الذين لا يعرفون «الحقيقة»! مما لا شك فيه أنه نادراً ما يكون حالنا عند القيام بالشر ممتع وخالٍ من كل شائبة على غرار حالنا عندما نقوم بالخير، وهذا دليل على أنه لا تزال تنقصنا المقدرة، أو أنه يفشي مرارتنا أمام هذا النقص؛ إنه إشعار بمخاطر جديدة بشكوك جديدة خاصة برأسمال قدرتنا؛ حيث يحجب أفقنا توقع الثأر والسخرية والعقاب والفشل. النزقين فقط وأشد المتعطشين إلى الشعور بالمقدرة يمكنهم أن يشعروا ببعض الرضى في دمغ العاصين بخاتم سلطتهم: فهم يشعرون بحمل ثقيل وملل لمرأى الخاضعين لهم (بصفتهم موضوع رعايتهم). الأمر كله رهن بالتوابل التي نحب أن نضيفها إلى حياتنا؛ هل نريد لمقدرتنا أن تنمو ببطء أو فجأة؟ نمواً مؤكداً أو مخاطر

فيه، المسألة مسألة ذوق: إذ أننا نختار هذا البهار أو ذاك تبعاً لجبلتنا. فالطريدة السهلة هي موضوع احتقار الطبائع المتكبرة، التي لا يمتلكها الشعور بالرضى إلا لمرأى رجال لم يقدر عليهم أي شيء والتي بإمكانها أن تعاديها، حيث لا يجذبها إلا مرأى حيازة ما يصعب الوصول اليه؛ غالباً ما يُظهر أصحاب هذا الطبع قسوة حيال المتألم، لأنه يبدو غير جدير بفخرهم وبجهودهم؛ وعلى العكس، يظهر هؤلاء الرجال أشد ما يكون من الكياسة لمن يساويهم، لمن يكون الصراع معه في كل حال من الأحوال مدعاة للفخر، إذا ما سنحت الفرصة لذلك. لقد كانت الشفقة دائماً ألذ شعور لأولئك الذين يملكون أقل قدر ممكن من الفخر ولا يمكنهم أن يأملوا بانتصارات كبيرة؛ فالطريدة السهلة ـ وهذا هو حال كل متألم ـ تشكل بالنسبة لهم أمراً رائعاً. يتم إطراء الشفقة على أنها فضيلة بنات الهوى.

14 ـ كل ما يسمى حب

الجشع والحب: آه، شتان ما بين المشاعر التي يوحي لنا بها هذين اللفظين! مع أنه يمكن أن يكونا تعبيراً عن غريزة واحدة، سُميت مرتين. مرة على وجه محط من وجهة نظر الشَّبعى، والذين وجدت لديهم هذه الغريزة بعض الاكتفاء والذين باتوا يخشون الآن على ما «يملكون»؛ ومرة من وجهة نظر غير المكتفين والعطشى، الذين يمجدون هذه الغريزة ويجدونها «جيدة». أليس حب القريب لدينا هو غريزة قاهرة لاستملاك ممتلكات جديدة؟ والأمر عينه بالنسبة لحب المعرفة وحب الحقيقة؟ وبشكل عام لكل حب للجديد؟ شيئاً فشيئاً نشمئز من القديم، مما تأكدت لنا ملكيته، ونمد أيدينا لنقبض على الجديد؛ حتى أجمل مشهد لا يعود أكيداً من حبنا له بعد تمضية ثلاثة أشهر بالقرب منه، ثمة شاطئ بعيد يجذبنا نحوه: عادة ما تبخس الملكية بفعل الاستعمال. تسعى اللذة التي نشعر بها بأنفسنا دائماً للحفاظ على ذاتها بأن تحول شيئاً الينا، وهذا هو بالضبط معنى التملك. أن تتعب من الملكية معناه أن تتعب من نفسك (فالتألُّم من الوفرة ممكن أيضاً، يمكن لحاجة الطرح والمشاطرة أن تتسربل باسم «الحب» الكريم). عندما نرى أحدهم يتألم نتمسك عن طيب خاطر بالفرصة المهداة الينا لنتملكه. وهذا ما يقوم به مثلاً الرجل المحسن والرؤوف، فهو

أيضاً يعتقد أنه يشعر بـ «الحب»، ما ان يرغب بملكية جديدة، ويجد فيها لذة كما لو كان يستجيب لفتح جديد. إلا أن حب الجنس للجنس الآخر هو الذي يكشف على أوضح ما يكون غريزة التملك: إذ يريد العاشق أن يمتلك معشوقه بشكل حصري، يريد أن يمارس سلطة مطلقة على روحه وعلى جسده، يريد أن يحبه الآخر بشكل مطلق دون أي شخص آخر، وأن يسكن روحه ويسيطر عليها كأسمى وأشهى ما تريده. وإذا ما فكرنا أن هذا لا يعني أقل من حرمان العالم كله من التمتع بملكية وبسعادة ثمينة، لو فكرنا أن العاشق يهدف الى إفقار وحرمان كل المنافسين الآخرين ولا يطلب إلا أن يصير تنين كنزه، شأنه في ذلك شأن «الفاتح» المكتشف الأكثر تجرداً من الوساوس والأكثر أنانية؛ وإذا ما تصورنا أخيراً أن العالم يبدو سواء بسواء، شاحب، تافه، وانه مستعد للقيام بكل التضحيات، وأن يعكر كل نظام قائم أن يضع كل مصلحة في المقام الثاني، سنندهش من أن هذا الجشع الوحشي، تعسف الحب الجنسي المفرط هذا، قد مجِّدَ وأُلِّهَ لهذه الدرجة في كل العصور، وأسوأ من ذلك أيضاً، لقد إسْتُخْرِجَتْ من هذا الحب فكرة الحب المناقض للأنانية، بينما هو يشكل صيغتها الأشد تلقائية. قد يعود هذا الاستعمال الى الذين لم يعرفوا الملكية مع رغبتهم بذلك. ومما لا ريب فيه أنهم كثيرون. أما أولئك الذين أسعفهم القدر، في هذا المجال، بكثير من الملكية والاكتفاء فقد مرروا بعض الكلمات هنا وهناك بخصوص هذا «الشيطان الرجيم» شأن ألطف وأحب اليونانيين سوفوكل: إلا أن ايروس يسخر دائماً من هؤلاء المجدفين ـ خاصة أنهم أشد من يفضلهم. لا شك أننا نلقى على الأرض هنا وهناك نوع من امتداد للحب يترك فيه هذا الطمع الجشع والمتبادل بين شخصين يترك المكان لطمع جديد، ولجشع جديد، لتعطش أسمى مشترك لمثال يتجاوزهما: ولكن من ذا الذي يعرف هذا الحب؟ من ذا الذي عاشه؟ اسمه الحقيقي الصداقة.

15 ـ الرؤية عن بعد

يشكل هذا الجبل كل فتنة المنظر الطبيعي الذي يسوده، ويهبه سحره: لقد قلنا ذلك مئة مرة وجُننا به وسلَّمنا به لدرجة إعتقدنا معها، أنه بمنحه

هذا السحر، لا بد أن يكون بنفسه أكثر ما في البلاد من فتنة؛ فنصعد اليه ويخيب أملنا. فجأة يختفي سحر منحدراته وسحر المشهد الذي يحيط بنا والمترامي عند أقدامنا؛ لقد نسينا أن مفاخر كثيرة، شأنها شأن الكثير من الطيبة تتطلب رؤيتها عن بعد، خاصة من الأسفل. وهذه ملاحظة أساسية، وليس من الأعلى، فهذه طريقتها لتكون ذات تأثير، ربما كنت تعرف في محيطك أشخاص لا يمكنهم أن ينظروا إلى أنفسهم إلا من خلال مسافة ما، حتى يكون بامكانهم تحملها وأن يشعروا أنهم جذابون أو منعشون: هؤلاء يجب نصحهم بالاعراض عن معرفة الذات.

16 ـ المعبر

عند معاشرة الذين يحتشمون في مشاعرهم، عليك أن تعرف المداهنة؛ إذ بامكانهم أن يواجهوك بكره مفاجئ لو أنت كشفت لديهم بغتة شعوراً بالرقة أو بالحماس أو بالنبل كأنما اقتحمت هيكل سريرتهم، وإذا شئت أن تفرحهم في تلك اللحظة عليك بأن تضحكهم أو بأن تداعبهم بسخرية لاذعة...؛ عندها يبرد انفعالهم ويعودون كما كانوا. لكنني أروي الحكمة قبل القصة... ذات مرة كان الواحد منا قريباً من الآخر في الحياة لدرجة أن لا شيء كان يبدو أنه يعكر صداقتنا وأخوتنا، ما خلا معبر لا يزال يفصل بيننا. وقد كنت على أهبة أن تعبره، عندما طلبت اليك: «هل تريد أن تعبر وأن تجيء إلي؟»، عندها كنت قد عدلت عن ذلك، ولم تعد تجيب على توسلاتي المتكررة. ومنذ ذلك الحين انتصبت بيننا جبال وسيول وكل ما يجعل المرء غريباً عن الآخر لدرجة لم نعد نستطيع بعدها أن نلتقي حتى لو شئنا ذلك! إلا أنك عندما تفكر اليوم بذلك المعبر، فإنك لا تجد ما تقوله، ولا تلقى إلا النحيب والذهول.

17 ـ علل بؤسك

مما لا شك فيه أنه ما من حيلة بامكانها أن تحول فضيلة بائسة إلى أخرى غنية ووفيرة، ومزدهرة، إلا أنه يمكننا بالمقابل أن نجمل بؤسنا بتأويله على أنه ضرورة لدرجة لا تعود رؤيته تؤلمنا ولا تجعله ضربة من القدر. على هذا المنوال يسلك البستاني الحكيم الذي يضع ساقيته الصغيرة

الهزيلة بين يدي حورية الينابيع، معللاً بذلك بؤسه؟ ومن أكثر منه بحاجة إلى الحوريات؟

18 ـ كبرياء الاقدمين

إن التمييز الدقيق للنبل ينقصنا لأننا لم نعد نملك حس العبودية القديم. كان اليوناني الكريم النسب يجد بين موقعه الخاص وآخر درجة الانحطاط هذه عدداً كبيراً من الدرجات الوسيطة لدرجة لا يعود معها باستطاعته أن يرى العبد بشكل دقيق: حتى أفلاطون لم يكن يراه بالكامل. أما بالنسبة لنا، فالأمر مختلف تماماً، نحن المعتادون على مذهب المساواة. إذا لم يكن على المساواة نفسها. فإن إمرءاً لا يحتكم إلى ذاته ولا يملك أي وقت فراغ لا يشكل بنظرنا مدعاة لأي احتقار: ربما كنا جميعاً ملطخين جداً بهذا النوع من العبودية، نتيجة لشروط مجتمعنا ونشاطنا الاجتماعي المختلف كلياً عن شروط مجتمع القدماء ونشاطهم الاجتماعي. كان الفيلسوف اليوناني يحيا وفي سريرته شعور بأن هناك من العبيد أكثر بكثير مما يُعتقد: فكل من لم يكن فيلسوفاً كان بنظره عبداً. وكانت فكرة أن أقدر القادرين على الأرض هو في عداد هؤلاء العبيد تملؤه كبرياءً، هذا الكبرياء أيضاً غريب عنا ولا يمكننا تصوره: حتى أن كلمة «العبد» بمعناها الرمزي قد فقدت بالنسبة لنا كامل معناها.

19 ـ الشر

تفحص حياة أفضل وأخصب الرجال والشعوب، وانظر إذا ما كان بوسع شجرة ينبغي لها أن ترتفع بفخر إلى الأعالي، أن تتغاضى عن الأنواء والعواصف: إذا كانت ممانعة الخارج وعدوانيته، وممانعته وكل أنواع الكره والعناد والحذر والقسوة، والجشع والعنف لا تشكل جزءاً من الظروف الملائمة التي لا يمكن من دونها لأي شيء، حتى الفضيلة، أن ينمو بعظمة؟ فالسم الذي يميت الطبيعة الضعيفة يُقَوِّي القوي ـ كما أنه لا يبالي بأن نسميه سُمّاً.

20 ـ شرف الجنون

بعد بضعة آلاف من السنين على خطى القرن الماضي! وفي كل ما سيصنعه الانسان سيظهر الذكاء الأعلى: إلا أن الذكاء، ولهذا بالذات، سيفقد شرفه. لا شك أنه سيكون من الضروري أن تكون ذكياً، إلا أنه أيضاً سيكون أمراً عادياً، لدرجة أن من يتمتع بذائقة نبيلة سيشعر بهذه الضرورة على أنها وضاعة. وكما أنه بمقدور تعسف الحقيقة والعلم أن يجعلنا نقيّم الكذب عالياً، كذلك بمقدور تعسف الذكاء أن ينتج نوعاً جديداً من الحس النبيل. أن تكون نبيلاً ـ ربما سيعني أن تملك أفكاراً مجنونة في رأسك.

21 ـ إلى أساتذة النزاهة

تنعت فضائل رجل بالفضائل الجيدة ليس بالنسبة للنتائج التي يمكن أن تعود به عليه، بل للنتائج التي يمكن أن تعود بها علينا وعلى المجتمع: لم نكن يوماً «متجردين» ولا «غيريين» في مدح الفضيلة! بدون هذا كنا سنلاحظ أن الفضائل (شأن المثابرة، الطاعة، العفة، التقوى والعدالة) تسيء بشكل عام إلى أصحابها لأنها تشكل غرائز تتحكم فيهم بقوة، وبجشع بليغ، ولا تريد أن يتحكم العقل بها ويوازن بينها وبين الغرائز الأخرى. عندما نملك فضيلة، فضيلة حقيقية، كاملة (وليس مجرد ميل إلى الفضيلة) فإننا نكون ضحيتها! يَمْدَح المتحمس مع أن حماسه يضر بقدرة عينيه على الرؤية، ويضني تلقائية ونضارة فكره: نُكَرِّم ونتأسف على شاب «قضى من العمل» لأننا نفكر على الشكل التالي: «إن فقدان أفضل فرد في سبيل سمو المجتمع لهو تضحية صغيرة، وانه لمن المؤسف أن تكون هذه التضحية ضرورية، لكن الأمر كان سيكون أسوأ لو أن الفرد الخاص كان يفكر بشكل مغاير ويعطي أهمية للحفاظ على نفسه ونموه أكثر من أهمية العمل لخدمة الجميع!». وهكذا نتحسر على خسارة هذا الشاب لا لنفسه، بل لأن المجتمع قد فقد معه أداة خاضعة، غير مبالية بذاتها، باختصار «رجل شجاع» كما يقال. وربما نسأل أيضاً إذا لم يكن من الأفضل لصالح المجتمع لو انه كان قد إعتدل في استخدام قوته في العمل ليحافظ على نفسه لمدة أطول؛ وقد نمضي حتى إلى الاعتراف بالمنفعة التي كان يمكن

أن تتم لو تم ذلك، إلا أننا نقدر هذا الأمر أقل من الأول على اعتبار أن تضحية قد قدمت، وهكذا فإن عقلية الحيوان المخصص للتضحية قد شهدت مرة أخرى تأكيداً علنياً لها. فما يمدح حقيقةً في الفضائل، عندما تمدح هو الأداة، الغريزة التي تعمل في هذه الفضائل وترفض أن تلجمها مصلحة الفرد، باختصار إن ما نمجده هو لاعقلانية الفضيلة الذي بموجبها يترك الفرد نفسه يعامل على أساس المجموع. فالتمجيد بالفضيلة يمجد شيئاً ما مضراً بحياة الفرد الخاصة، يمجد غرائز تحرم الفرد من أنبل شعور بحب الذات، ومن أعلى حماية ذاتية. صحيح أنه مع التربية وتمثل العادات الحميدة نبين أن الفضيلة والمصلحة الخاصة هما متضامنين دائماً معاً ـ ومثل هذا التضامن موجود بالفعل! فنصور مثلاً الفوران الأعمى للمتحمس، هذه الفضيلة الخاصة بذوي الطبيعة الوظيفية، على أنه الطريق إلى الغنى والمجد، على أنه السم الأكثر فعالية ضد الملل والاهواء: إلا أننا نسكت عن خطره، عن طابعه الأكثر خطورة. تسلك التربية حتمياً على النحو التالي: تسعى بواسطة التحريض والمصلحة، إلى أن ترسي في الفرد طريقة تفكير وعمل تسيطر عليه، ما ان تصير عادة وغريزة وهوى، على حساب مصلحته الأخيرة، لصالح «أفضل منفعة عامة». كم من المرات لاحظت أن الفوران المتحمس الأعمى، العمل الوطيس، يجلب الثروات والمجد من دون شك، إلا أنه ينزع عن الاعضاء الرهافة الضرورية التي تتيح التمتع الحقيقي بالثروات والمجد. والأمر عينه بالنسبة لهذا العلاج الجذري ضد الملل والاهواء فهو يضعف الحس ويجعل الذهن عاصياً عن كل ميل جديد. (إن أكثر الأزمنة حماسة، زمننا، لا يعرف ماذا يفعل بحماسه وبأمواله، ما لم يكن دائماً حماس أكثر وأموال أكثر، أيضاً؛ ذلك أنه يلزم للإنفاق عبقرية أكبر من العبقرية اللازمة للكسب! فليكن! لننتظر أحفادنا). وإذا نجحت التربية، وشكلت كل فضيلة للفرد منفعة جماعية وضرراً شخصياً بالنسبة للهدف الأعلى للحياة الشخصية؛ فإنها على الأرجح لن تتوصل إلاَّ إلى إتلاف الذهن والانحطاط المبكر: لنتفحص من هذا المنظور فقط واحدة واحدة فضائل رجل مطيع، عفيف، ورع وعادل. إن كل المديح الذي نكيله لغير المغرض، للمستشهد طوعاً، للفاضل ـ أي للذي لا يكرس كل قوته وكل رجاحة عقله للحفاظ على حياته الشخصية ونموها ورفعتها

ولمصلحة زيادة قدرتها، بل للذي يعيش بتواضع من دون أن يكترث بنفسه حتى أنه ربما يكون لا مبالياً أو ساخراً منها، هذا المديح لا ينتج في أي حال من الأحوال عن ذهنية متجردة! «فالقريب» يمدح تجردنا لأنه يجد فيه مصلحته! إذ لو أنه كان بنفسه يفكر بذهنية متجردة، لكان رفض هذا البتر للقوة، هذه الخسارة على حساب مصلحته، ولعارض نمو مثل هذه الاندفاعات مظهراً تجرده، بقوله ان هذه الاندفاعات غير طيبة! هاك ما يفضح التناقض الأصيل في هذه الأخلاق التي نجلّها اليوم. فدوافع هذه الأخلاق تتعارض مع مبادئها! فالحجة التي تستخدمها لتبرهن شرعيتها تعمد في الوقت عينه إلى تهفيت معيارها الأخلاقي. فمبدأ «عليك أن تتخلى عن نفسك وأن تضحي بها» حتى لا يتناقض مع فحواه يجب أن يكون قد سنّ من قبل كائن يتخلى بنفسه عن مصلحته الخاصة وربما يفتعل سقوطه الخاص نتيجة للتضحية التي يفرضها على الأفراد. لكن ما ان يوصي القريب (أو المجتمع) بإيثار الآخرين لهدف نفعي، حتى يطبق المبدأ المعارض ألا وهو: «عليك أن تبحث عن مصلحتك، حتى لو كانت على حساب الآخرين». فهو يعظ وبنفس الأريحية: «يجب عليك» و«لا يجب عليك إطلاقاً».

22 ـ البرنامج اليومي للملك

لقد بدأ النهار: لنبدأ بتنظيم أعمال وملذات هذا النهار لعاهلنا الرحيم. الذي لا يزال في مثل هذه الساعة ينعم بالنوم. سيجد جلالته اليوم أن الطقس سيءٌ: سنحترس أن نقول أنه سيء، فلا نتكلم عن حال الطقس... لكننا سنزيد الأبهة قليلاً في معالجة الأمور هذا النهار، وسنضيف القليل إلى فخامة الملذات للدرجة التي لا تكون من دونها مقبولة. وربما سيجد جلالته أنه مريض: سنكتفي ساعة الافطار بآخر خبر طيب وصلنا بالأمس، وصول السيد مونتاني الذي يجيد الفكاهة في كلامه عن مرضه: إذ أنه يشكو من البحصة. سنستقبل بعض الشخصيات (الشخصيات؟ ـ ماذا سيقول إذن ذلك الضفدع المنتفخ الموجود بينهم، لو سمع هذه الكلمة: «أنا لست أبداً بشخصية، أنا القضية كلها!) وسيطول الاستقبال أكثر مما يستحسنه أي شخص كان، وسيكون ذلك سبباً كافياً

للكلام عن ذلك الشاعر الذي حفر على بابه: «من يدخل اليَّ يكرمني، ومن لا يدخل... يفرحني» هاكم بالضبط أسلوب لبق لقول وقح. وربما كان هذا الشاعر محقاً تماماً بأن يكون غير متأدب فيما يخصه: يقال أن أشعاره أفضل من ناظمها. والحال، فلينظم الكثير منها وليبتعد عن الناس قدر طاقته فهذا هو معنى وقاحته المحببة. ها نحن نتجادل والحاشية كلها تعتقد أننا نعمل وأننا نشق النفس، ونافذتنا أول من يتلقى نور الصباح! صه! ألم يكن الجرس؟ إلى الجحيم! بدأ النهار والرقص ونحن لا نعلم شيئاً من أمره. فعلينا بالتالي أن نرتجل يومنا، كما يفعل الجميع، لنتصرف شأننا شأن الجميع!..

على هذا النحو تبدد حلمي الصباحي الرائع، على الأرجح على ضربات ساعة البرج التي تعلن، بكل وقارها الخاص، الساعة الخامسة. وتراءى لي أن إله الاحلام كان يريد هذه المرة أن يتهكم من عاداتي... إذ أنه من عاداتي أن أبدأ نهاري بأن أنظمه بشكل أصير معه قادراً على احتماله، ومن المحتمل أني غالباً ما قمت بهذا الأمر بأبهة مفرطة وبطريقة أميرية مفرطة.

23 ـ مؤشرات الفساد

هل لك أن تعاين من وقت لآخر العوارض الضرورية للمجتمع والتي تنعت بـ «الفساد»، المؤشرات التالية: ما ان يدخل الفساد بشكل ما حتى يدخل التطير المتنوع ويبدأ بالسيطرة بينما يشحب بكليته، ويعجز الايمان الكامل الذي كان الشعب يجاهر به حتى ذلك الحين. والتطير في الواقع هو تفكير حر من المقام الثاني. والمستسلم له يختار عدداً من الصيغ والعبارات التي تتوافق معه ويبيح لنفسه بالتالي حق الاختيار. فالمتطير، بالمقارنة مع المتدين، «ذاتي» أكثر بكثير، والمجتمع المتطير أصلاً هو المجتمع الذي يتضمن الكثير من الأفراد، حيث تنكشف الرغبة في التفرد. من وجهة النظر هذه يبدو التطير على أنه تطور على الايمان ودلالة على أن الفكر صار أكثر استقلالية وعلى أنه يريد تأكيد حقه. عندها يشتكي متعبدي الدين القديم من الانحلال ـ لقد كانوا هم من ابتدعوا حتى اليوم المصطلحات الشائعة وطعنوا في التطير بالقرب من أكثر العقول تحرراً.

فلنعلم إذن أن التطير هو أحد عوارض التحرر. وفي المقام الثاني أيضاً يُتهم بالانحلال المجتمع الذي يحل فيه الفساد: فمن الجلي أن سطوة الحرب والحماس لها يفتران بينما ينتعش فيه التوق إلى رفاهية العيش بنفس حماس الماضي للمراتب الرياضية والحربية. لكن عادة ما يهمل المراقبون ملاحظة أن تلك الطاقة القديمة، تلك الاهواء الشعبية القديمة التي كانت تكتسب من الحروب والمباريات تمظهراً رائعاً، قد صارت اليوم أقل بروزاً لأنها قد تحولت منذ ذلك الحين إلى عدد لا يحصى من أهواء الحياة الخاصة: حتى أنه من المحتمل أن طاقة أمة في حالة الفساد تكون أقدر وأعنف من أي وقت مضى، وان الفرد يبذر هذه الطاقة بسعة لم يكن بمقدوره من قبل أن يجاريها لأنه لم يكن غنياً بما فيه الكفاية! وبالتالي، ففي زمن «الانحلال» بالضبط، تجوب المآسي البيوت والشوارع، ويولد الحب الكبير والكره الكبير، وتتفجر شعلة المعرفة نحو السماء. وفي المقام الثالث، مما يشمله ذم مراحل التطير والفساد، يزعم عادة أن العادات ترق وتتقهقر الفظاظة بشكل كبير، بالمقارنة مع ما كانت عليه في المراحل الأشد إيماناً وقوة. إلا أنه لا يمكنني أن أنضم تحت لواء هذا النوع من المديح أكثر مما انضممت إلى الذم السابق: أسلم فقط بأن الفظاظة قد صارت أشد دقة، وان أشكالها الأشد قدماً، قد صارت تخدش الذوق السليم: إلا أن فن التجريح والتنكيل بواسطة الكلام أو النظر يبلغان أقصى كمالهما؛ عندها فقط يولد الخبث واللذة في التخابث. يظهر رجال المراحل الفاسدة روحانيين وواشين، يعلمون أنه يمكن أيضاً القتل بغير الخنجر والقبضة؛ ويعرفون أيضاً أنه يتم تصديق كل قول حسن.

رابعاً، عندما «تفسد التقاليد» تنبثق أولاً هذه الكائنات التي تسمى «طغاة»، إنهم المبشرين، إنهم بقول آخر: طلائع الأفراد. قليلاً من التروي، وتتدلى أخيراً فاكهة الفواكه هذه، ناضجة ذهبية على شجرة الشعب؛ والحال فإن هذه الشجرة لم توجد إلا لتحمل مثل هذه الفاكهة! عندما يصل التفتت إلى أقصى مداه، وكذلك صراع كل أنواع الطغاة، نرى دائماً بروز القيصر، طاغية النهاية الذي يضرب الضربة القاضية في هذا الصراع الواهن على السلطة المطلقة لفرد، مستفيداً من الإعياء لصالحه.

عند وصوله يكون الفرد عادة قد نضج تماماً، وتكون الثقافة، بالتالي في أوجها وفي أخصب درجاتها... إلا أن ذلك لا يكون بسببه، ومع أن المثقفين ثقافة عالية يحبون أن يطروا القيصر معتبرين أنفسهم من صنيعه. وهم في الحقيقة يحتاجون إلى السلام الخارجي، لأن قلقهم في داخلهم، ولأن عملهم أمر داخلي. في تلك الأزمنة تصير الرشوة والخيانة من أكثر الأمور شيوعاً؛ لأن حب الانا الحديث الاكتشاف يكون أعتى بكثير من حب «الوطن» البالي والقديم والمقتول من كثرة التشدق بالكلمات. وتجعل الحاجة إلى الامان من غدر تقلبات الحظ، أيادي حتى أنبل الرجال تمتد، ما ان يُظهر رجل قادر وغني انه مستعد لهرق الذهب. فالمستقبل يكون غير آمن لدرجة يعيش معها الناس يوماً بيوم، وهذا ما يشكل نفسية تغري الغاوين من كل نوع؛ لأنه لا يتم الاستسلام والارتشاء إلا «اليوم» ونحتفظ بالفضيلة للمستقبل. نعرف أن الفرد، هذا الـ «في ـ ذاته» والـ «ذاته» الحقيقيين ينشغل بهموم الآن، أكثر من نقيضه، رجل القطيع، لأنه لا يعتقد أن باستطاعته الاعتماد على ذاته أكثر من المستقبل؛ كما أنه يتعلق بالطغاة لأنه يشعر أن ما باستطاعته القيام به من أعمال وغزوات لا يمكن أن يفهمها العوام ولا أن يرضوا عنها... إلا أن الطاغي أو القيصر يعتبر حق الفرد من ضمن تعدياته، ويرى أن من مصلحته أن يسوغ لاخلاق خاصة أكثر جرأة وأن يدافع عنها بقوة ـ لأنه يفكر في ذاته، ويريد أن نفكر عنه ما قاله نابليون ذات يوم على طريقته الكلاسيكية: «يحق لي أن أجيب على كل شكوى لك بأنا أبدية. لأني مستثنى عن العالم كله ولا أقبل شروط أي أمرئٍ كان. وعليك أن تخضعي لكل ما يخطر لي، وان تجدي انه لأمر بسيط أن أسمح لنفسي بمثل تلك الملاهي». هكذا كان نابليون يتكلم لزوجته التي كان لديها ذات يوم ما يكفي من الأسباب لتشك في إخلاص زوجها لها.

فأزمنة الفساد هي التي تسقط فيها الاثمار عن الشجر: أعني الأفراد الذين يحملون في ذواتهم بذور المستقبل، ومحرضي الاستعمار الفكري. أولئك الذين يريدون أن يغيروا العلاقات في الدولة والمجتمع، فلا تشكل كلمة الفساد سوى لفظ مشين للدلالة على خريف الشعب.

24 ـ أنواع استياء مختلفة

إن المستائين الضعفاء، ولنقل المستائين الأنثويين هم الادهى في فن تجميل الحياة وجعلها أعمق؛ أما المستائين الأقوياء الذين يشكلون الجنس المذكر حتى نبقى مخلصين لاستعارتنا، فإنهم أحذق في الأدوية الملائمة لتحسين الحياة وأمنها. يعرض الأولون ضعفهم وتأنثهم بأن يستسلموا طوعاً للخداع من وقت لآخر، وبأن يكتفوا بسهولة بالقليل من النشوة والحماس. إلا أنه لا يمكن إرضاؤهم في العمق. ويعانون من استيائهم الذي لا شفاء منه؛ إضافة إلى أنهم يؤثرون أولئك الذين يعرفون أن ينتجوا التعزيات المنومة والمخدرة، ولأنهم يحقدون، بالتالي، على كل من يضع الطب أعلى من الكاهن، فإنهم يحافظون على استمرارية الأوجاع الحقيقية! ولو لم تعرف أوروبا، منذ القرون الوسطى ما لا يحصى عدده من هذا النوع من المستائين، ربما لم تكن الخاصة الأوروبية الشهيرة في التطور المستمر لتعرف النور: وفي الواقع، فإن متطلبات الجنس القوي من المستائين هي فظة ومفرطة التواضع لدرجة أنه لا يمكن أن تمنع عن الاشباع كلياً في يوم من الأيام. تقدم لنا الصين مثلاً للبلاد التي انطفأ فيها الاستياء الكبير وخاصية التحول منذ قرون عديدة، ويمكن للاشتراكيين ومتعبدي الدولة في أوروبا ان يقودونا نحن أيضاً بسهولة، بواسطة تدابيرهم لتحسين شروط الحياة وأمنها، إلى ذلك الوضع، إلى هذه «السعادة» الصينية، بشرط أن يقضوا في البدء على هذا الاستياء، هذه الرومانطيقية الأشد سقماً، والأشد رقة، والأشد أنوثة، والتي لا تزال متوفرة حتى الآن، تحت أوجه متعددة في بلادنا. أوروبا مريض يدين بالفضل إلى دائه العضال وإلى التحول الأبدي لآلامه: لقد إنتهت هذه الأوضاع، وهذه المخاطر، وهذه الآلام بتجددها المستمر، إنتهت بأن ولدت هذا الغضب الفكري الذي يوازي العبقرية، والذي هو في كل حال والدة كل عبقري.

25 ـ غير مُعَدٍّ للمعرفة

هناك نوع أحمق من التواضع، وهو ليس بنادر، يكفي أن تكون مصاباً به حتى تصير إلى الأبد غير جدير بأن تصبح طالب معرفة، وفي الحقيقة: ففي اللحظة التي يدرك فيها رجل من هذا النمط شيئاً ما صارخاً،

حتى يعود أدراجه بشكل ما، قائلاً في ذاته: «لقد ضللت! أين كانت أفكاري؟ لا يمكن لهذا أن يكون حقيقة!» ـ ومذَّاك، وبدلاً من أن يعيد النظر بقرب أشد، ويصيخ السمع بانتباه أكثر، تراه يهرب، جفلاً من أفكاره. ذلك ان شريعته الداخلية تقول له: «إنك لا تريد أن ترى ما يناقض الرأي العام! هل تصلح أنت لاكتشاف حقائق جديدة؟ وهناك كيل طافح من الحقائق القديمة».

26 ـ معنى أن تحيا

أن تحيا يعني: أن ترمي بعيداً عنك شيئاً يموت، أن تحيا، يعني: أن تكون قاسياً، متعنتاً في كل ما يضعف فينا ويموت؛ وليس فقط فينا. أن تحيا، هل يعني إذن: أن تكون قاسي القلب على كل المنازعين والبؤساء، والعُجَّز؟ أن تقتل باستمرار؟ ومع ذلك، فإن موسى العجوز قد قال: «لن تقتل إطلاقاً».

27 ـ الرجل الذي يزهد

ما الذي يفعله ذلك الذي يزهد، إنه يتوق إلى عالم أعلى، يريد أن يواصل تحليقه أعلى وأبعد من كل رجال التأكيد، أن ينزع عنه الكثير من الأشياء التي تثقل إنطلاقه، ومن بينها العديد من الأشياء القيمة والعزيزة عليه: يضحي بها إرضاء لطموحه إلى العلو. يشكل هذا الأسلوب في التخلي، في الرمي عن كاهله، المظهر الوحيد الظاهر من شخصه: وبمقتضى هذا المظهر يقال انه زاهد، وبصفة الزهد هذه، ينتصب أمامنا معتمداً قلنسوته كأنه روح المسوح. لا ريب بأنه راضٍ عن تأثيره هذا فينا؛ فهو يريد أن يخفي عنا طموحه وفخره؛ ونيته في أن يطير بعيداً فوقنا. . . نعم انه أكثر احتيالاً مما نعتقد، هذا الرجل الفائق اللطف معنا، هذا الرجل الإيجابي! لأن هذه هي حقيقته، رغم زهده.

28 ـ الإساءة بأفضل ما لدينا

أحياناً تدفع بنا قوانا بعيداً لدرجة لا نعود نحتمل فيها ضعفنا فتهلكنا: لا ريب بأننا نحدس هذا المصير، ولا نريد غيره. عندها نقسو على ما

يجدر بنا أن نراعيه فينا. وتكمن عظمتنا في افتقارنا هذا للرحمة. هذه التجربة التي ننتهي بأن ندفع لها من حياتنا ترمز إلى مجمل الفعل الذي يمارسه الرجال العظام على الآخرين وعلى زمانهم: فبالفعل بواسطة أفضل ما لديهم، بواسطة ما يقدرون عليه لوحدهم، يقوضون الكثير من الضعفاء، والمرتابين الذين لا يزالون في طور التغيير، ولا يملكون إلا إرادتهم. هذا ما يجعل هؤلاء الرجال مؤذيين، والحال وعند الاستحقاق فإنهم ليسوا إلا كذلك: إذ لا يتم تلقي أفضل ما عندهم، بالأحرى لا يتم تمثله إلا من قبل أولئك الذين يفقدون رشدهم وفرديتهم. كما لو كانوا تحت تأثير كحول قوي جداً: إذ أنهم ينتشون لدرجة لا يتوانوا فيها عن كسر أعضائهم في كل السبل والميادين الخاطئة التي تقودهم نشوتهم اليها.

29 ـ تلفيق إضافي

عندما شُرع في فرنسا في محاربة وحدات أرسطو الثلاث شُرع بالتالي في الدفاع عنها. صار بالامكان رؤية ما يمكن أن نراه غالباً، ولكن دائماً باشمئزاز. فقد عمد إلى ابتداع أسباب تعلل وجوب بقاء هذه القوانين، وذلك فقط حتى لا نقر لأنفسنا أننا إعتدنا عليها ولا نريد على الاطلاق أن نغيرها. وبمثل هذه الطريقة يتم التصرف داخل كل دين وأخلاق جارية، وذلك منذ الأزل: إذ أن العلل والمآرب التي تنسب عادة إلى كل عادة، لا تعزى اليها الا بافتراء متأخر، ابتداء من اليوم الذي يبدأ فيه بعضهم بالاعتراض على عادة ما بالتقصي عن عللها ومآربها. وهذا أقصى ما تشتمل عليه سوء نية محافظي كل العصور: فهم يأخذون على عاتقهم التلفيق الاضافي.

30 ـ ملهاة الرجال المشهورين

إن الرجال المشهورين، والذين يحتاجون إلى شهرتهم، شأن السياسيين مثلاً، لا يختارون إطلاقاً أصدقاءهم وحلفاءهم من دون أفكار مبيتة. فهم يريدون من فلان نصيباً من تألقه، ومن فلان آخر الوجه المخيف لبعض خصاله المرهوبة الجانب والتي يعرفها الجميع؛ ويسرقون صفة ثالث مشهور بتكاسله واسترخائه، لأنه من المناسب لمصالحهم الخاصة أن

يظهروا بين الحين والآخر على أنهم لا مبالين وخمولين: وهذا ما يتيح لهم بأن يموهوا ترصدهم؛ فهم تارة يحتاجون إلى رجل غريب الأطوار بقربهم، وتارة إلى باحث، وتارة إلى مدع، لنقل إلى صورة لأناهم الخاصة في تلك اللحظة، إلا أنهم قد يهملونهم كلياً في اللحظة التالية. وهكذا يموت محيطهم باستمرار مع تلاميحه الخارجية، مع أنه يبدو أن كل شيء ينمو في هذا المحيط ويطمح إلى أن ينطبع بطابعهم. وهم بهذا يشبهون المدن الكبيرة. تتغير سمعتهم وخصالهم باستمرار، ذلك أن وسائلهم المتقلبة تفرض هذه التغيرات، وتدفع إلى المقام الأول بهذه الخصلة الموجودة حقاً أو المتخيلة أو تلك لكي تبرزهم على المسرح: وكما قلت فإن أصدقاءهم وحلفاءهم يشكلون جزءاً صغيراً من هذه الخصال المسرحية. بالمقابل، على مرادهم أن يستمر صلباً، بصلابة الفولاذ، وأن يبقى على تألقه، وهذا ما يفرض أحياناً ألاعيباً مسرحية وكوميدية.

31 ـ التجارة والأرستقراطية

يعتبر البيع والشراء اليوم أمراً عاماً يوازي في عموميته فن القراءة والكتابة. فكل إمرىء، حتى لو لم يكن تاجراً، قد جرب هذا الفن، ولا يزال يجربه كل يوم، تماماً شأنه شأن أيام الانسانية البدائية الغابرة: حيث كان كل واحد صياداً، ويتمرن يومياً على الصيد. إلا أنه وكما صار الصيد امتيازاً للقادرين والنبلاء، وانتهى بأن فقد بالتالي طابعه العامي واليومي ـ حيث لم يعد الصيد أمراً ضرورياً ليصير مسألة بذخ ونزوة ـ فإن الأمر عينه قد يتم مع البيع والشراء في مرحلة ما. يمكن تصور شروطاً إجتماعية لا يتم فيها البيع والشراء، حيث تختفي ضروب هذا الفن شيئاً فشيئاً. عندها قد يسمح بعض الأفراد المتحررين من رتبة الشروط العامة، لأنفسهم بأن يبيعوا ويشتروا من باب الاحساس بالبذخ. منذ تلك اللحظة فقط تكتسب التجارة تميزها، ويتفرغ النبلاء لها عن طيب خاطر، كما كانوا يتفرغون سابقاً للحرب والسياسة، عندها تفقد هذه الأخيرة حظوتها كلياً، ولا تعود مهنة الرجل الشريف: ويمكن لها ذات يوم أن تعتبر دنيئة لدرجة تصنف معها، شأنها شأن أدب الصحافة والاحزاب، في خانة «تعهر الفكر».

32 ـ طالبان غير مرغوب بهما

ماذا أفعل بهذين المراهقين! إنهما طالبان غير مرغوب بهما! هكذا صرخ بنزق فيلسوف يفسد الناشئة كما أفسدها سقراط في الزمن الغابر. فهذا لا يعرف أن يقول لا، وذاك في كل حين يقول: «بطريقة ما»... لنفترض أنهما قد فهما عقيدتي، فسيتألم الأول كثيراً منها، لأن فكري يتطلب روحاً مقاتلة، وإرادة تعذيب، ولذة المعارضة، وأدمة قاسية، ـ فهو سينهار تحت وطأة جراحه الظاهرة والكامنة. أما الثاني، فإنه يتدبر أمر كل قضية يساندها ليحولها إلى قضية وضيعة ـ مثل هذا الطالب أتمناه لعدوي!

33 ـ خارج قاعة الجلسات

لأبرهن لكم أن الانسان بمجمله ينتمي إلى طائفة الحيوانات الوديعة، يكفي أن أذكركم بسرعة تصديقه المفرطة التي برهن عليها خلال زمن طويل. إذ أنه اليوم فقط، أي في زمن متأخر جداً، وبعد جهود خارقة لينتصر على نفسه، صار حيواناً حذراً ـ «نعم! فالانسان اليوم أخبث مما كانه على الاطلاق». هذا ما لا أفهمه: لماذا صار الانسان اليوم أشد حذراً وأشد خبثاً؟ لأنه يملك الآن علماً ـ «إنه بحاجة إلى علم!».

Historia abscondita ـ 34

يمارس كل رجل عظيم قوة تفعل رجعياً: فهو يعيد وضع التاريخ كله موضع السؤال؛ وتزحف آلاف أسرار الماضي من أوكارها لتضيئها شمسه. لن يستطيع أحد أن يتنبأ إلى ما سيؤول التاريخ. ربما لا يزال الماضي محجوباً بشكل أساسي، لا نزال بحاجة إلى الكثير من القوى ذات المفعول الرجعي.

35 ـ هرطقة وسحر

إن التفكير بشكل مغاير لما جرت عليه العادة، لهو أمر بعيد جداً عن أن ينتج عن فكر أفضل، عن أن ينتج عن تأثير ميول متسلطة، خبيثة، ميول تفصل، تعزل، ميول متغطرسة، ساخرة، خادعة، تحمل على اللذة في إلحاق الأذى بالآخر. الهرطقة تتبع السحر، وهي ليست في شيء بأشد

براءة منه ولا أكثر إجلالاً في ذاتها. إذ أن الهراطقة والسحرة هما نوعين من الكائنات الخبيثة: والقاسم المشترك بينهم هو أنهم يشعرون بخبثهم، غير أن حاجة قاهرة تدفعهم إلى أن ينالوا من كل من ذي نفوذ (رجال أو آراء). لقد قدَّم الاصلاح، وهو ضرب مضاعف من ذهنية العصر الوسيط، في مرحلة لم تعد فيها هذه الذهنية تتمتع بنقاء الضمير، قدَّم العدد الوافر منهم.

36 ـ آخر الكلام

ستذكر الطريقة التي تكلم فيها عن نفسه الامبراطور أوغسطين، هذا الرجل الرهيب الذي يعرف أن يكبح جماح نفسه وأن يصمت بمقدار ما يعرفه رجل حكيم كسقراط، فلقد ظهر بدون تحفظ أمام نفسه عندما قال كلماته الأخيرة: فلقد ترك ولأول مرة قناعه الذي كان يحمله في نومه، عندما بيّن أنه قد لبس قناعاً وانه كان يمثل: لقد لعب على العرش دور والد الوطن والحكمة، لعبه بمقدرة أحيت الوهم. Plaudite amici, Comœdia finita est! ـ وفكرة نيرون المحتضر، Qualis artifex pereo! كانت هي أيضاً فكرة أوغسطين: غرور بهلوان، وهذره! والنقيض التام لفكرة سقراط المحتضر! غير أن تيبار Tibère، قد مات في صمت، تيبار أشد المتألمين بين الذين آلموا أنفسهم ـ ذاك كان أصيلاً، ولم يكن ممثلاً على الاطلاق؛ ما الذي بإمكانه أن يدور في خلده عند رمقه الأخير! ربما كان التالي: ليست الحياة إلا موت طويل! أي مجنون كنت حتى أقصر حياة هذا العدد الكبير من الناس؟ كان يجدر بي أن أعطيهم الحياة الأبدية: هكذا كان بامكاني أن أراهم يموتون أبدياً. هذا كنت أجيد رؤيته تماماً: qualis spectator pereo!»، وعندما بدا انه يستعيد قواه بعد نزاع طويل، قُضي انه من الأفضل خنقه تحت وسائده ـ فمات بذلك مرتين.

37 ـ ثلاثة حجج وثلاثة أخطاء

لقد شُجع تطوير العلوم خلال القرون الماضية، إما على أمل أن يتم التوصل بها ومعها إلى فهم أفضل لطيبة وحكمة الإله، دافع أساسي لروح أكبر الانكليز ـ (نيوتن). وإما لأن هناك اعتقاداً بضرورة المعرفة المطلقة، وبشكل خاص بالعلاقة الوثيقة بين الاخلاق والعلم والسعادة ـ وهذا ما

شكل الدافع الأقوى لكبار الفرنسيين (شأن ڤولتير) - واما لأن هناك إدعاءاً بأن تملُّك العلم وحبه هو شيء نزيه، وغير مضر ومكتفٍ بنفسه، شيء بريء حقاً، ليس لدوافع الانسان الخبيثة أي مجال فيه - وهذا ما شكل الدافع الأساسي لسبينوزا، الذي شعر بالألوهية في نفسه، لكونه عارفاً: - إذن، بناء على ثلاثة أخطاء.

38 - الطبائع المتفجرة

لو قيّمنا حاجة التفجر الملحة الكامنة في قوى الشباب، لن يدهشنا على الاطلاق أن نراهم يقررون في هذه القضية أو تلك بهذا القدر من قلة الرهافة وقلة التبصر: فما يحثهم هو الفوران الذي تثيره قضية ما، أي بكلام آخر رؤية الفتيل مشتعلاً، وليس القضية نفسها. وهكذا فإن الغاوين الأشد حذاقة يعمدون إلى جعلهم يأملون الانفجار ويهملون تبرير قضيتهم: إذ لا نربح براميل البارود هذه بالحجج.

39 - تبدُّل الذوق

إن تبدل الذوق العام أهم بكثير من تبدل الآراء: فالآراء بكل براهينها أو تهافتها وكل الرياء الفكري الذي يصاحبها ليست إلا مجرد اعراض للذوق الذي يتبدل. وهي ليست بالتأكيد سبب هذا التبدل، كما لا يزال يُعتقد غالباً. كيف يتبدل الذوق العام؟ بفعل عدد من الأفراد المنعزلين، القادرين والمؤثرين يعبرون من دون خجل عما يخصهم hoc est ridiculum، وhoc est absurdum عما يروق لهم وما لا يروق لهم، ويفرضونه بطريقة استبدادية: وهكذا يخضعون الكثيرين عنوة، لما سيصير شيئاً فشيئاً عادة لعدد أكبر ويصير في الأخير حاجة للجميع. لكن أن يشعر هؤلاء الأفراد المنعزلون وأن يستلذوا على وجه مختلف، ذاك ما يرجع عادة إلى تفرد في طريقة عيشهم وفي تغذيتهم في هضمهم وربما إلى وجود ما يكثر أو يقل، من الاملاح اللاعضوية في دمهم وفي دماغهم، باختصار في بنية جسمهم: إلا أنهم يملكون الجرأة، في إعلان هذه البنية الجسدية: ويصغون بانتباه إلى أكثر متطلباتها دقة: فأحكامهم الجمالية والأخلاقية تشكل جزءاً من تلك «التنوعات الدقيقة» لجسدهم.

40 ـ في غياب الشكل المميَّز

هناك دائماً بين الجنود ورؤسائهم علاقات متبادلة تفوق كثيراً العلاقات الموجودة بين العمال وأرباب العمل. وراهناً على الأقل تبقى كل حضارة عسكرية شرعية أرفع بكثير من كل ما يقال له حضارة صناعية: فهذه الأخيرة، بشكلها الحالي هي بالإجمال أحطّ شكل من أشكال الوجود التي أمكننا أن نراها حتى اليوم. فقانون البؤس هو الذي يفعل فيها. نريد أن نعيش وعلينا أن نبيع أنفسنا، إلا أننا نحتقر من يستغل هذا البؤس ويشتري العامل. وانه لأمر غريب أن يكون الخضوع لأشخاص قادرين يوحون بالخوف لا بل بالرعب، الخضوع للطغاة والزعماء العسكريين، أقل مشقة على النفس من الخضوع لأشخاص مجهولين وغير مهمين، شأن جميع أقطاب الصناعة؛ لا يرى العامل عادة في رب العمل سوى كلب محتال، مصاص دماء، يضارب بكل أنواع البؤس لا يعني له الاسم والشخص والعادات والسمعة أي شيء. من المحتمل أنه لا يزال ينقص الصنَّاع وكبار أصحاب المشاريع حتى الآن، لا يزال ينقصهم كل أشكال وخصائص العرق الأعلى، التي تعطي الأهمية للأشخاص: لو كان لديهم تَميُّز كرام المحتد في النظرة والسلوك، ربما لما كان هناك من اشتراكية العوام. إذ أن هؤلاء الآخَرين مستعدون عموماً لأي نوع من أنواع العبودية، شرط أن يُشرع الفرد الأعلى تفوقه باستمرار، بصفته قد ولد ليحكم، بتمييزه في الشكل، فإن أوضع الرجال يشعر جيداً أنه لا يمكن ارتجال التمييز وانه جدير بالإحترام بصفته ثمرة قرون طويلة ـ بينما لا يثير لديهم غياب الاشكال العليا والفظاظة الحقيرة عند الصنَّاع بأيديهم الغليظة والمحمرة إلا التفكير بأن الصدفة والحظ فقط هما ما رفع الواحد أعلى من الآخر؛ وسيقول: أحسن، فلنجرب بدورنا الصدفة والحظ. لنرمي النرد! ـ وتبدأ الاشتراكية.

41 ـ ضد التوبة

يرى المفكر في كل أفعاله محاولات وتساؤلات للحصول على هذا الايضاح أو ذاك: فالنجاح والفشل هما بالنسبة اليه أجوبة قبل أي شيء آخر. أما التأثر أو حتى التوبة عن فشل فهذا ما يتركه لأولئك الذين لا

يعملون إلا لأنهم يؤمرون وينتظرون السياط إذا كانت النتيجة لم تعجب معلمهم الظريف.

42 ـ عمل وملل

البحث عن عمل من أجل الربح، هذا ما يستاوى به تقريباً كل سكان البلاد المتمدنة: فالعمل بالنسبة لهم جميعاً ليس إلا وسيلة، ولا يشكل غاية في ذاته. كما أنهم لا يدققون في اختيار عملهم، ولا يقدرونه إلا بمقدار الربح الذي يدره عليهم. والحال، هناك أشخاص نادرون يفضلون الهلاك بدلاً من أن ينكبوا على عمل لا فرح فيه؛ إنهم من ذوي الطبائع التي تختار، والتي يصعب إرضاؤها ولا تكتفي بربح وفير، ما لم يشكل العمل نفسه أربح ربح. ينتمي الفنانون والمتأملون بمختلف أنواعهم إلى هذه الفئة النادرة من البشر، غير أنه هناك أيضاً هؤلاء المتعطلون الذين يمضون حياتهم في الصيد، والسفر وفي المكائد والمغامرات العاطفية. هؤلاء كلهم يريدون أيضاً العمل والشقاء، بمقدار ما يرتبطان باللذة، حتى لو لزم الأمر أن يكون أشقى عمل وأقساه. ولكن، خارج هذا الأمر فإن كسلهم لا محيد عنه، حتى لو استتبع ذلك الفقر والعار، وأساء إلى صحتهم وحياتهم. فهم لا يخشون الملل بمقدار ما يخشون العمل من دون لذة؛ حتى أنهم بحاجة كبيرة إلى الملل، إذا أرادوا أن ينجحوا في عملهم. فالملل بالنسبة للمفكر والذهن المبدع هو «هدوء الريح» الكريه للروح الذي يسبق الابحار السعيد والرياح الفرحة: عليه أن يتحمله، أن ينتظر مفاعيله؛ وهذا بالضبط ما لا تستطيع النفوس الضعيفة أن تحصل عليه بنفسها! فالتخلص من الملل بأي وسيلة يوازي بدناءته العمل من دون لذة. ربما كان هذا الأمر هو ما يميز الاسيويين عن الأوروبيين، إذ أنهم قادرون على هدوء أطول، وأعمق؛ حتى مخدراتهم فإنها تعمل ببطء وتتطلب الصبر، على نقيض الكحول، هذا السم الأوروبي بفجائيته الكريهة.

43 ـ ما تكشف عنه الشرائع

يخطئ جداً من يريد أن يدرس قانون الجزاء لشعب ما على أنه تعبير عن أطباعه: إذ لا تكشف القوانين طبيعة شعب، بل تكشف ما يراه غريباً

أخرقاً ومخالفاً للذوق، ما يراه بعيداً عنه. تتعلق القوانين باستثناءات أخلاقية العادات: وتصيب أقسى العقوبات العادات المطابقة للشعب المجاور. وهكذا لا يوجد عند الوهابيين إلا حالتين تستحقان حكم الاعدام: أن يعبد اله آخر غير الههم، والتدخين (وهو ما يسمى لديهم: أسلوب شرب مشين). و«ماذا بخصوص القتل والزنا؟» سأل انكليزي استغرب سماعه بمثل تلك الأمور: «آه، إن الله غفور رحيم!» أجابه شيخ القبيلة العجوز. وهذا شبيه بما يتم عند الرومان إذ كانت فكرة أن المرأة لا تخطىء بشكل مميت إلا عند ارتكابها الزنا، وعند شربها الخمر. ويدعي الـ Caton القديم انه لم يتم ارساء عادة التقبيل بين الأهل الا لمراقبة النساء: إذ كانت القبلة تعني: هل تُشم رائحة الخمر منها؟ وقد تم بالفعل قتل نساء عقاباً لأنهن ضبطن بالجرم المشهود؛ بالطبع لا يعود ذلك الأمر فقط إلى أنه بتأثير الخمر تفقد النساء القدرة على المقاومة؛ ففي مرحلة كان استعمال الخمر فيها لا يزال حديث العهد في أوروبا، كانت تتملك نساء الجنوب الأوروبي من وقت لآخر ظاهرة إفراط ونشوة ديونيذوسية، كان الرومان يخشونها أكثر من أي شيء آخر ويرون أنها أمر شنيع وغريب يهدد بقلب أساس الحساسية الرومانية: فكانت نشوة النساء تعني خيانة روما، تعني دمج الدم البربري في العروق الرومانية.

44 ـ الدوافع التي نصدِّقها

مهما كانت مهمة معرفة الدوافع التي تحركت الانسانية فعلياً على أساسها حتى الآن. يبقى الاعتقاد بهذا الدافع أو ذاك، أي بما تخيلته الانسانية حتى اليوم على أنه الرافعة الفعلية لأفعالها أهم بكثير لمن يبحث في المعرفة. وفي الحقيقة، يشعر الانسان بالغبطة الداخلية أو بالبؤس نتيجة لايمانه بأن هذا الدافع أو ذاك هو المحرك لأفعاله وليس نتيجة للدافع الفعلي، فليس لهذا الأخير إلا أهمية ثانوية.

45 ـ أبيقور

نعم، أنا فخور لأني أشعر بطبع أبيقور كما لم يشعر به أي إمرىء من قبل، وان أتمتع بكل ما قدر لي أن أقرأه وأن أسمعه عنه بسعادة الغروب

عند الأقدمين: أرى عينيه تتأملان بحراً فضياً مترامي الأطراف، تتكئ الشمس على صخور شواطئه، بينما تلهو الحيوانات كبيرها وصغيرها في نورها هادئة مطمئنة، بهدوء واطمئنان هذا النور وهذا النظر. سعادة كهذه يعرف أن يبتكرها فقط من عانى من دون توقف، سعادة عين سكن بنظرها بحر الوجود. ولا تتوصل إلى أن ترتوي من مرأى بشرته المدغدغة، هذا الجلد المحيطي الرقيق والمرتعش: لم يكن هناك من قبل على الاطلاق تواضع للذة شبيه بمثل هذا التواضع.

46 ـ دهشتنا

سعادة عميقة وجذرية يقدمها لنا العلم باكتشافه أشياء تثبت في وجه كل تجربة ولا تني تفسح المجال أمام اكتشافات جديدة: هل بالمستطاع أن يكون الأمر على غير هذا الوجه! نعم، إننا مقتنعون بلا يقينية، وبوهمية أحكامنا، كما أننا مقتنعون بالتبدل الابدي لكافة القوانين والمفاهيم الانسانية لدرجة نبقى فيها مذهولين لرؤية شدة ثبات نتائج العلم! في سالف الزمان كان هناك جهل بكل تقلبات تلك الأشياء الانسانية، فالتقليد الأخلاقي كان يحافظ على الاعتقاد بأن كل حياة الانسان الداخلية، مثبتة بكلاليب أبدية في الضرورة الفولاذية. ربما إذ ذاك كان يحس عند سماع الاساطير وحكايات الجنيات بنفس غبطة الدهشة هذه. كان على المدهش أن يجلب راحة كبرى لأولئك الناس المنهكون بدون شك من القاعدة والأبدية. الضياع لمرة واحدة! التحليق! التّيه! الجنون! حال ما كان يشكل جنة ونعيم الماضي؛ بينما تشبه سعادتنا اليوم سعادة الفريق الذي وصل إلى اليابسة، وداس بقدميه الأرض الصلبة العتيقة... متعجباً من كونها لا ترتج أبداً.

47 ـ في قمع الاهواء

لو حرّمنا بشكل مستمر التعبير عن أهوائنا، باعتباره أمراً نتركه لذوي الطبائع «السوقية» والفظة والبرجوازيين والفلاحين ـ أي ما معناه، إذا كنا نريد ببساطة قمع لغة الاهواء وحركاتها ليس الاهواء نفسها، فإننا، وبالضربة عينها، لا ننتهي إلى أقل مما كنا لا نريده: كبت الاهواء نفسها،

إذا لم يكن فت عضدها وتغيرها. على هذا المثال، عاش بلاط لويس XIV وكل حاشيته، وعلى هذا فإن مجتمع المرحلة التالية، وقد تربى على مراقبة تعابير أهوائه، لم يعد لديه أهواء على الاطلاق وحلت محلها طبيعة لطيفة، سطحية، وبشوشة؛ مرحلة مصابة بعدم القدرة على مخالفة الأدب: حتى القذح فإنها لا تتلقاه ولا ترده الا بعبارات مجاملة. ربما تقدم مرحلتنا النقيض الأشد تميزاً: إذ أني أرى في كل مكان في الحياة وعلى المسرح وليس بدرجة أقل في كل ما يكتب، أرى تلذذاً في تفجير أغلظ الأهواء والتعبير عنها. والمتعارف عليه في الوقت الحاضر، يفرض إشهار مظاهر الاهواء، دون الاهواء نفسها! إلا أنه قد نتوصل اليها بالرغم من ذلك، وسيكون لأحفادنا وحشية أصيلة وليس فقط شكل الوحشية وفظاظتها.

48 ـ معرفة البؤس

ربما لا يفرّق بين الناس والمراحل من شيء أكثر من درجة معرفتهم بالبؤس: بؤس الروح كما بؤس الجسد. ربما كنا نحن، رجال اليوم، وبالرغم من كل عاهاتنا؛ وهشاشتنا، جاهلين ومتوهمين لنقص في تجربتنا الذاتية: بالمقارنة مع مرحلة الخوف ـ أطول مراحل التاريخ ـ عندما كان على الفرد أن يدافع عن نفسه بوسائله الخاصة ضد العنف وأن يصبح بالتالي، من أجل هذه الغاية، رجلاً عنيفاً. في سالف الزمان كان المرء يتعلم كثيراً من الألم الجسماني ومن الحرمان، حتى أنه كان يرى في ممارسة القسوة على ذاته، وفي العذاب الإرادي، وسيلة ضرورية لحفظ ذاته؛ فكان يُعلِّم محيطه معرفة تحمل الألم، ويزيد عليه عن طيب خاطر، ويشاهد ما يتعرض له الآخرين من فظائع هذا النوع من دون أي شعور آخر سوى الشعور بأمانه الخاص.

أما بخصوص البؤس الروحي، فإني أراقب حالياً ما إذا كان المتكلم قد عرفه بالتجربة أم أنه قد قرأ عنه؛ وما إذا ما كان يرى أنه من الضروري أن يتظاهر بمعرفة ذلك البؤس لكي يوحي بثقافة دقيقة، أو ما إذا كان لا يؤمن على الاطلاق بحقيقة الآلام النفسية العظيمة، ولا يفكر عندما يسمع بهذه الآلام إلا بشيء يماثل ما يفكر به عندما يسمع عن الآلام الجسمانية العظيمة: يفكر بوجع الاسنان أو المعدة. والحال يبدو لي أن غالبية البشر

تشعر اليوم بمثل هذا الشعور، ينتج عن هذا النقص العام في التجارب بوجهيها الجسماني والنفساني، وأنه صار من النادر رؤية أحد يتعذب، ينتج أمر خطير جداً: يُشمئز من الألم في الوقت الحاضر أكثر بكثير من أي وقت مضى، ويُفترى عليه بشكل أسوأ بكثير مما مضى، لدرجة أنه بالكاد يمكن قبول الألم كموضوع للتفكير: فنجعله مسألة ضمير نحاسب عليه الوجود بأكمله. لا يعتبر ظهور فلسفات التشاؤم إطلاقاً كعارض لشقاء كبير مرعب، بل ان وضع قيمة الحياة هذه كلها موضع السؤال يلحظ في مراحل ترى فيها الرفاهية والسهولة أن لسعات البرغش التي لا مفر منها للجسد والروح معيبة وقاسية جداً، مراحل ينحو فيها فقر التجارب الواقعية بالألم الى اعتماد التصورات المؤلمة العامة على أنها الآلام من نوع أعلى. هناك حتماً علاج ضد فلسفات التشاؤم، ضد الحساسية المفرطة التي تبدو لي أنها «بؤس الزمن الحاضر الحقيقي»... غير أن هذه الوصفة سترن بشكل قاس في الآذان وستعد هي نفسها في عداد المؤشرات، التي يحكم بموجبها في الوقت الحاضر أن «الوجود شيء سيء»، وليكن، اليكم هذه الوصفة ضد «البؤس» إسمها: «البؤس».

49 ـ في الجود وما شابهه

إن الظاهرات المتناقضة كبرودة العاطفي المفاجئة، أو دعابة المكتئب أو أيضاً بالأخص الجود الذي يجعلنا نعدل بغتة عن الانتقام وإشباع الرغبة، تظهر عند الرجال الذين تفعل فيهم قوة تبذير شديدة، عند رجال قادرين على الشبع والاشمئزاز بسرعة، فإرضاؤهم سريع وعنيف لدرجة أنه يعقبه الملل والاشمئزاز مباشرة ويهربون بسرعة شديدة إلى الشعور النقيض؛ عن هذا التناقض تتمخض أزمة مشاعرهم ببرودة مفاجئة عند الواحد، بالضحك عند الآخر، وبالبكاء والتضحية عند ثالث. فالرجل الجواد، على الأقل، ذلك الذي يترك دائماً أكبر انطباع، يبدو لي أنه رجل قادر على أسوأ انتقام، والذي يرى الفرصة متاحة لاشباعه مباشرة، فيشرب الكأس مترعة دفعة واحدة في مخيلته ويرتوي متمتعاً به لدرجة أن إشمئزازاً مفاجئاً ورهيباً ـ يتبع آخر نقطة من هذا الهذيان المفاجئ، ـ فيرتفع عندها كما يقال «أعلى من ذاته» ويصفح عن عدوه حتى أنه يباركه ويكرمه. ففي هذا الاكراه

الذي يمارسه ضد نفسه، هذه الطريقة بالاستهزاء بالدافع إلى الانتقام والذي كان لا يزال شديداً في اللحظة السابقة، ليس هناك إلا خضوعاً لدافع جديد يسيطر عليه الآن بدوره، وهو يخضع له نفس الجزع والهذيان اللذين استبق فيهما لذة الانتقام في مخيلته، أي بما معناه يستنفذها. ففي الشهامة قدر من الأنانية يوازي الأنانية في الانتقام، لكنها أنانية ذات طبيعة مختلفة.

50 ـ حجة العزلة

يبقى تأنيب الضمير ضعيفاً، حتى عند أشد الموسوسين، بإزاء الشعور «يناقض هذا الأمر أو ذاك ما جرت عليه العادة في مجتمعك». تكفي نظرة باردة، أو إيحاء استياء من الذين نشأنا بينهم ومن أجلهم، لتخيف أقوى الأقوياء. ومما يخاف بالإجمال؟ العزلة! حجة تقضي حتى على أفضل الحجج لصالح شخص أو قضية! على هذا النحو تتكلم فينا غريزة القطيع.

51 ـ صدقية

أصفّق لكل ارتياب بامكاني أن أجيب عليه: «حسناً فلنجرب!» ولكني لا أريد إطلاقاً أن أسمع عن تلك الأشياء أو الأسئلة التي لا تقبل التجربة. تلك هي حدود «صدقيتي» أبعد من هذه الحدود تفقد الجرأة حقوقها.

52 ـ ما يعرفه الآخرون عنا

لا يشكل ما نعرفه عن أنفسنا، وما احتفظت به ذاكرتنا أمراً حازماً بمقدار ما نتصور من أجل سعادتنا. سيأتي يوم يقع فيه على عاتقنا ما يعرفه الآخرون عنا (أو ما يعتقدون أنهم يعرفونه عنا)، وسنقر عندها بأنه العنصر الأساسي لسعادتنا: إن تدبر أمر ضميرنا المتعب يتم بسهولة أكبر من تدبر أمر سمعتنا السيئة.

53 ـ حيث يبدأ الخير

ثمة ضعف في البصر من بعده لا يعود بالامكان تمييز فساد طبيعة الغريزة بعد أن رقت عن مصادرها، عندها يعتقد المرء بأنه قد صار في مملكة الخير، وعندها يثير شعوره بأنه قد دخل في هذه المملكة كل الغرائز

التي كان تأنيب ضميره قد توعدها وكبتها، كشعوره بالأمان والرفاهية والاستلطاف. وهكذا، كلما ضعف البصر كلما امتدت دائرة الخير! من هنا تأتي بشاشة العوام والاطفال! ومن هنا تأتي سوداوية وحزن كبار المفكرين، التي تعود إلى تأنيب الضمير.

54 ـ الوعي بالظاهر

ما أروع وجهة النظر التي تقدمها لي معرفتي حول الوجود بمجمله! كم أشعر أنها جديدة، ولكن كم هي رهيبة وسافرة في الوقت عينه! لقد اكتشفت فيما يخصني، أن البشرية الحيوانية الهرمة، لا بل الزمن الغابر كله وماضي كل كائن حساس لا تزال تنسج في داخلي، وتحب وتكره وتستنتج. . . ، لقد استيقظتُ فجأة في منتصف هذا الحلم، استيقظتُ لا لشيء إلا لكي أعي أني حلمت وأنه علي أن أتابع الحلم حتى لا أفنى: كما أنه على «المروبص» أن يتابع نومه حتى لا يسقط. والآن، ماذا يشكل الظاهر بالنسبة لي؟ إنه في الحقيقة ليس نقيض كائن ما، وماذا يمكنني أن أقول عن كائن ما إذا لم يكن خصائص ظاهره؟ وليس لعمري قناعاً غفلاً يمكن أن نضعه أو أن نسحبه عن شيء ما x مجهول! الظاهر بالنسبة لي هو الحياة والفعل بعينها، الحياة التي تسخر من نفسها لدرجة أنها تشعرني أنه ليس هناك إلا الظاهر. . لهيب ورقص حوريات ولا شيء أكثر من ذلك ـ وانه بين كل هؤلاء الحالمين، أنا أيضاً، أنا الذي «يعرف» أرقص رقصتي الخاصة، وانه ليس بوسع الذي «يعرف» إلا أن يرقص رقصة الأرض، وانه بهذا المعنى جزء من منظمي أعياد الوجود، والنتيجة أن العلاقة الفائقة الوصف بين المعارف ربما كانت وستكون أسمى وسيلة لتأمين شمولية أحلام اليقظة والفهم المتبادل لكل هؤلاء الحالمين، وتؤمّن بالتالي ديمومة الحلم.

55 ـ أسمى نبل للمشاعر

ما الذي يمنح «النبل»؟ إنه ليس بالطبع القيام بالتضحيات: فأعتى الفاسقين يقدم على ذلك أيضاً، كما أنه ليس بالطبع في الخضوع لهوى، فثمة أهواء دنيئة. كما أنه ليس في صنع شيء ما للآخرين من دون أنانية،

إذ ربما كانت عاقبة الفعل الأنانية أقوى ما تكون عند أنبل النبلاء. لا، إن ما يمنح النبل لكائن، هو أن الهوى الذي يعتمل فيه متميز، دون أن يدري هو شيئاً عن تميزه: انه استعمال معيار نادر وفريد، ضرب من الجنون في الشعور بحرارة أشياء تبقى باردة لكل الآخرين، إنه الحدس بقيم لم يبتكر لها بعد ميزان؛ إنه التضحية التي تقدَّم على مذبح إله مجهول؛ إنه البسالة دون طموح إلى التكريم! إنه التواضع الذي يفيض فيغني الرجال والأشياء. لقد كانت الندرة وعدم الوعي بها هي ما يمنح النبل حتى الآن لكائن. لكن لنمعن النظر جيداً، في أن هذا المعيار يفترض حكماً جائراً حول كل أمر معتاد، مباشر ولازم، بكلمة حول كل ما أسهم على أكثر من نحو في حفظ النوع وبطريقة مطلقة حول القاعدة نفسها التي اتبعتها الانسانية حتى اليوم، هذه القاعدة التي يفترى عليها على هذا النحو لصالح الاستثناء. أن يكون المحامي عن القاعدة.. قد يكون آخر شكل يتجلى فيه الحس النبيل على الأرض؛ وقد يكون أسمى حذاقته.

56 ـ الرغبة بالتألم

عندما أفكر بالرغبة في فعل شيء ما، الرغبة التي تعتمل في ملايين الشباب الأوروبيين وتحضهم من دون توقف والذين لا يحتمل الواحد منهم الملل ولا حتى يحتمل نفسه، أدرك أنه يجب أن يكون لديهم الرغبة في ألم ما يستخلصون منه سبباً مقنعاً للفعل، للقيام بأمور جسيمة، فالألم ضروري! من هنا نقيق السياسيين و«الأزمات الاجتماعية» المزعومة لكل أنواع الطبقات، وهي كاذبة بمقدار ما هي زائفة ومتوهمة ومبالغ فيها، وفي كل هذا التسرع الأعمى في تصديقها. إن ما يلح عليه هذا الجيل الشاب، هو على ما يبدو أن الألم وليس السعادة هو ما عليه أن يأتيه من الخارج وليس من الداخل. وتنشغل مخيلته مسبقاً في جعله وحشاً، حتى يكون لديه وحشاً عليه مقاتلته. ولو شعر هؤلاء المتعطشون إلى الألم بالقوة ليحسنوا إلى أنفسهم. القوة في إكراه ذواتهم، فإنهم سيعرفون أيضاً أن يخلقوا بداخلهم داخلياً آلاماً خاصة وشخصية. عندها تصير اختراعاتهم أشد دقة، وترن أحاسيسهم رنة موسيقية قيّمة: بينما هم في الوقت الحاضر يملأون العالم بصراخهم وبشقائهم، وغالباً وبطريقة غير مباشرة بالشعور بالألم، ولا

يملأونه غالباً إلا بالشعور بالضرورة! إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بوجودهم، ولهذا السبب فإنهم يستحضرون تعاسة الآخرين: إنهم بحاجة دائمة إلى الآخرين! وآخرين الآخرين دائماً ! ـ اعذروني، يا أصدقائي فلقد تجرأت على ذكر سعادتي.

كتاب ثان

57 ـ إلى الواقعيين

أنتم أيها الرجال القانعون، أنتم يا من تشعرون أنكم محصنون ضد الهوى والهذيان وترغبون عن طيب خاطر بأن تجعلوا من ذلك موضوع فخر وزينة فراغكم، تقولون أنكم واقعيين وتدَّعون أن العالم يبدو لكم على هذا النحو، وانه في الحقيقة كذلك: وان الواقع ينكشف لكم دون أي حجاب، وربما كنتم أنتم بأنفسكم أفضل جزء فيه. آه، صور سايس Saïs العزيزة: لكن ألستم حتى في أشد حالات عريكم، ألستم من ذوي طبائع العشق الشديد الغامض، مقارنة مع الاسماك، وشديدي الشبه بفنان عاشق؟ فضلاً عن ذلك، ما هو «الواقع» بالنسبة إلى فنان عاشق! إنكم لا تنفكوا تحملون بنفوسكم طريقة في تقييم الأشياء، طريقة تجد مصدرها في أهواء وأنماط حب القرون الماضية! تبقى قناعتكم نفسها مبللة بنشوة سرية لا يمكن استئصالها! فحبكم للواقع مثلاً ـ ليس إلا حباً عتيقاً، آه كم هو عتيق؛ يكمن في كل تأثر في كل انطباع حسي جزء من ذلك الحب القديم؛ ما الذي لم تحيكه أيضاً الأوهام والأحكام المسبقة، وعدم الصواب، واللاوعي والخوف وما لا أدريه من أشياء أخرى؟ أنظروا لهذا الجبل، ولتلك الغيمة! ما هو «الواقعي» فيهما؟ حاولوا أن تتجردوا من الأوهام ومن كل ما أضافه الرجال عليهما، أيها الرجال القانعون! لو كان باستطاعتكم ذلك، لو كان بامكانكم أن تنسوا أصلكم، ماضيكم، تشكلكم السابق، كل ما فيكم من إنساني وحيواني! بالنسبة لنا لا يوجد أي «واقع» ـ كما أنه بالنسبة لكم ليس هناك أي «واقع». أيها الرجال الوضعيون ـ كما أننا أبعد

من أن نكون غرباء الواحد عن الآخر، كما تزعمون، وربما كانت نيتنا الصادقة في التخلص من النشوة تستحق من الانتباه مقدار ما يستحقه اعتقادكم بأنكم عاجزين عن أي نشوة.

58 ـ لا يمكن الهدم إلا بالخلق

هاكم ما كلفني وما يزال يكلفني أقصى الجهد: أن أفهم أن أهمية معرفة أسماء الأشياء تفوق بما يفوق الوصف أهمية معرفة الاشياء بما هي عليه. فسمعة شيء وإسمه ومظهره وقيمته ووزنه ومعياره التي تعوَّدنا عليها ـ والتي ليست في الأصل سوى خطأ، عبث أُلبس للشيء كثوب غريب تماماً عن طبيعته وجلده ـ الاعتقاد بأن كل هذا، المتوارث من جيل إلى جيل، قد صار شيئاً فشيئاً جسد الشيء بعينه، ينتهي ظاهر البداية بأن يصير دائماً ماهية ويفعل فعل الماهية! أي جنون يدعي بأنه يكفي كشف هذا المصدر، هذا الغشاء الضبابي للهذيان حتى يزول العالم الذي يزعم أنه جوهري، الذي يزعم أنه «الواقع»! فقط الخلاقون يستطيعون أن يزيلوا! لكن لا ننسى على الاطلاق: يكفي خلق أسماء جديدة، تقديرات جديدة، إحتمالات جديدة لكي يتم على المدى الطويل خلق «أشياء» جديدة.

59 ـ نحن الفنانون

عندما نحب إمرأة يحصل لنا أن نكره في الطبيعة كل الأشياء المقززة التي تخضع لها كل إمرأة؛ ونبعدها بطيب خاطر عن تفكيرنا، إلا أنه عندما يحدث أن تلمس روحنا هذه الأشياء، فإنها ترتعش من عدم الصبر وتنظر إلى الطبيعة بعين الازدراء: ـ تخجلنا الطبيعة، لأنها تبدو وكأنها قد تطاولت على ممتلكاتنا بأدنس الطرق. فنغلق آذاننا حتى لا نسمع صوت الفيزيولوجيا، ونقرر ضمنياً: «لا أريد أن أسمع بواقع أن الإنسان شيء آخر غير الروح والشكل»، «إن الكائن الانساني تحت البشرة» لشنيع، وشيء لا يمكن لأي عاشق أن يتصوره، إنه تدنيس للحب ولله. والحال فإن نوعية هذه الكراهية التي يعاني منها العاشق منها لأوجه الطبيعة القذرة، كان كل متعبد لله ولقدرته الكلية قد خبرها فيما مضى: لقد كان يرى في كل ما يقوله الفلكيون والجيولوجيون والفيزيائيون والأطباء عن الطبيعة، كان يرى

فيها تطاولاً على أقدس مجالاته الشخصية، ويعتبرها بالتالي عدواناً، وفوق ذلك، وقاحة من قبل المعتدي! لقد كانت «قوانين الطبيعة» تخدش آذانه كما يخدشها التجديف: فرغبته العميقة تريد أن ترجع كل الآلية إلى أفعال أخلاقية إرادية، واستبدادية: ولكن وبما أن أحداً لم يكن يستطيع أن يقدم له هذه الخدمة، فإنه كان يخفي عن نفسه الطبيعة وآليتها بمقدار ما يستطيع. ويعيش كما لو كان في حلم. آه، كم كان رجال الماضي متفقون على أن يحلموا ولم يكونوا مع ذلك بحاجة إلى النوم!... ونحن رجال اليوم، إننا متفقون جيداً على هذا الأمر. على الرغم من نيتنا الطيبة باليقظة وبالعيش في وضح النهار! يكفي أن نحب أو نكره أو نشتهي، أو ببساطة أن نشعر، حتى تأتينا في الحال ذهنية وقوة الحلم، وها نحن بأعين مفتوحة غير متأثرين بأي خطر، نصعد أخطر الدروب التي يمكنها أن توصلنا إلى إبراج وسطوح المخيلة، من دون أي دوار! نحن الذين خلقنا لنصعد...، «مروبصين» في وضح النهار، نحن الفنانون! نحن مواربو الطبيعة! نحن المتهورون والباحثون عن الله! نحن المسافرون في صمت الموت، المسافرون بلا كلل على الأعالي التي لا نرى أنها كذلك، بل على العكس نرى أنها سهول لأسمى يقيننا.

60 ـ النساء وتأثيرهن البعيد

هل ما أزال أسمع؟ هل كلي آذان؟ ليس إلا أذناً ولا شيئاً آخر؟ ها أنا في خضم الأمواج، في تلاطم لهيبها الأبيض يصعد ليلعق قدمي... من كل الجهات يعوي البحر ويتوعد، يصرخ ويحتد في وجهي، بينما من يهز الأرض في أعمق أعماقها يغني نغماً أصمَّاً يشبه جؤار الثور: ضارباً بقدمه التي ترج إيقاع أغنياته الشبيهة بنبضات قلب شياطين هذه الصخور المفتتة. عندها، وكمن ينبثق من العدم، يتراءى عند أبواب هذه المتاهة الجهنمية، فقط على بعد بضع أبواع مني، مركب شراعي ضخم يعبر بانسياب شبح هادئ. آه أيها الجمال الخيالي! أي سحر لا تلقيه عليَّ؟ ماذا؟ أيحمل هذا الزورق معه راحة العالم الساكنة؟ أتجلس سعادتي حقاً هناك، في ذلك المكان الهادئ! أسعد أنا أملكه، أناي الآخر المخلد؟ الذي لم يمت بعد ولكنه لم يعد حياً؟ أيكون كائناً وسيطاً، من هذه الكائنات المتأملة التي

تنساب وتطفو في صمت؟ شبيهاً بذلك الزورق الذي يتهادى بأشرعته البيضاء على البحر المظلم كفراشة ضخمة؟ آه، نعم، أن نحلّق فوق الوجود! نعم هذا! هذا ما يلزم!. . . ولكن ماذا؟ أيغرقني ضجيج الأمواج في الهذيان؟ ينتج من كل ضجة كبيرة انها تجعلنا نضع السعادة في الصمت وفي البعيد عندما يلقى رجل نفسه في خضم أمواج «تدفقاته» ومشاريعه: فإنه يرى كائنات ساحرة وصامتة من دون أي شك تنزلق أمامه، يشتهي هناءها واعتزالها. وهذه الكائنات هي النساء. فيحب أن يتصور أن هناك، بالقرب من النساء يكمن أفضل أنا لديه: في تلك الأماكن الساكنة يخمد أشد الصخب عنفاً ويتحول إلى صمت الأموات وتصير الحياة حلماً للحياة. ومع ذلك، مع ذلك أيها الرجل المتحمس النبيل! حتى على أجمل المراكب الشراعية، هناك الكثير من الضجيج، ومن الصخب، من الصخب الحقير، للأسف! أشد سحر للنساء نشعر به من بعيد، أو لنتكلم بلغة الفلاسفة **actio in distans**: لكن للوصول إلى ذلك تلزم قبل كل شيء المسافة.

61 ـ إكراماً للصداقة

كان الأقدمون يرون أن الصداقة من أنبل المشاعر حتى أنها أرفع من الأنفة التي كانت أكثر ما تغنى به الحكماء وكل مكتفٍ بذاته، حتى أنهم قد جعلوا منها المنافس الوحيد، والمنافس السعيد لتلك الأنفة: هذا هو المغزى الذي تبينه جيداً قصة أمير مقدونيا، الذي بعد أن اعترف بمناقبية فيلسوف اثيني رأى هذا الأخير الذي كان يمتهن احتقار العالم يرده، فقال الأمير: «كيف؟ أليس لديه أي صديق؟» وما كان يريد قوله «أكرم أنفة هذا الحكيم المستقل؛ ولكني كنت كرمت إنسانيته أكثر، لو كان الصديق فيه قد انتصر على الأنفة. لقد فقد هذا الفيلسوف من حظوته لديّ، لأنه كان يجهل واحد من أسمى شعورين ـ وبالأخص أرفعهما!».

62 ـ الحب

يسامح الحب كل شيء حتى شهوة المحبوب.

63 ـ المرأة في الموسيقى

كيف تعمل الرياح الساخنة والممطرة لتحمل معها أيضاً حالة نفسانية ملائمة للموسيقى ولمزاج مبدع للألحان؟ أليست هي الريح عينها التي تملأ الكنائس وتوحي للنساء بأفكار عاشقة؟.

64 ـ المرتابون

أخشى أن تكون النساء العجائز أكثر إرتياباً في أخفى خفايا قلوبهن من كل الرجال: فهن تؤمِنَّ أن سطحية الوجود هي ماهيته الحقيقية، وبأن كل فضيلة كل عمق للروح ليست بنظرهم إلا مداهنة لهذه «الحقيقة»، مداهنة يشتهيها الـ pudendum جداً ـ فهي بالتالي مسألة حشمة، وليست شيئاً آخر.

65 ـ تفانٍ

هناك نساء نبيلات ينقصهن الذهن النير، لا يعرفن أن يجدن طريقة للتعبير عن أعمق تفانٍ لديهن إلا باهدائهن فضيلتهن وحشمتهن: أسمى ما لديهن. وغالباً ما تُقبل هذه الهبة، دون أن تلزم الموهوب بالعمق الذي تفترضه الواهبات ـ قصة جد سوداوية ! ـ

66 ـ قوة الضعفاء

تظهر النساء براعة جمة في المبالغة بضعفهن. إنهن حاذقات باختراعه لدرجة تظهرهن بهشاشة الحلى التي تشوهها حبة غبار؛ يجب على وجودهن أن يُشعر الرجل ببلاهته وأن يُثقلن ضميره، هذه هي طريقتهن في الدفاع ضد «قانون الأقوى».

67 ـ التظاهر بطبيعتنا الشخصية

إنها تحبه الآن، ومنذ ذلك الوقت لم تعد تتخلى عن نظرة الثقة الغبية للبقرة: للأسف! لقد فتنته بالتظاهر بطبيعة متقلبة باستمرار ولا يمكن إدراكها، لأنه كان مترعاً بمزاجه الذي لا يتغير. أليس من الأجدى لها أن تتظاهر بطبيعتها القديمة؟ أليس هذا ما ينصحها به ـ الحب؟ Vivat comœdia!.

68 ـ إرادة وقبول

جيء برجل شاب إلى أحد الحكماء وقيل له: «هاك امرىء قد أفسدته النساء!» فهزّ الحكيم رأسه وابتسم: «إن الرجال هم الذين يفسدون النساء؛ وكل ما ينقص النساء على الرجال أن يكفروا عنه وان يحسّنوه ـ لأن الرجل هو الذي يخلق صورة المرأة، والمرأة تتشكل فيما بعد تبعاً لتلك الصورة». فقال أحد الحاضرين: «إنك لرحيم جداً بالنساء، أنت لا تعرفهن على الاطلاق!». فأجاب الحكيم: إن طبيعة الرجل هي الارادة وطبيعة المرأة هي القبول ـ هذا هو قانون الجنسين. نعم قانون قاسٍ بالنسبة إلى النساء! كل الكائنات الانسانية بريئة في وجودها، والنساء بريئات من الدرجة الثانية. فمن بامكانه أن يكون عذباً ومحسناً معهن!» «عذباً! محسناً! ما معنى هذا! يجب تربية النساء تربية أفضل!» صرخ واحد من بين الجموع! فقال الحكيم: «يجب تربية الرجال بشكل أفضل». وأشار إلى الشاب بأن يتبعه. لكن الشاب لم يتبعه على الاطلاق.

69 ـ قابلية للانتقام

ألاّ يكون بامكان شخص ما الانتقام، وأن يمتنع بالتالي عن القيام به، هذا أمر لا يمكن أن يشكل بالنسبة اليه أمراً مشيناً، لكننا لا نحترم إطلاقاً من لا يملك ملكة ولا إرادة انتقام. ولا يهم أكان الأمر يتعلق برجل أو بامرأة. هل بامكان أي إمرأة أن تحتفظ بنا (أو كما يقال «تسحرنا») إذا لم نكن نتخيل أنها تجيد عند الحاجة، استعمال الخنجر (لا يهم أي نوع من الخناجر) ضدنا؟ أو حتى ضد نفسها: وهذا ما يشكل في بعض الحالات الانتقام الأكثر رفقاً (الانتقام الصيني).

70 ـ قاهرات الاسياد

يبدو لنا عند سماع صوت الـ alto العميق والقادر في المسرح، أن الستار سيرفع على إمكانيات لا نعتقد بوجودها عادة: نثق فجأة أنه يمكن أن يكون هناك، في مكان ما في العالم، نساء ساميات الأرواح شجاعات ملوكيات، جديرات وحاضرات للمواجهة، والجزم والتضحيات العظيمة، مستعدات لكل ذلك، كما أنهن مستعدات أيضاً للسيطرة على الرجال

وقادرات على الوصول إلى ذلك، لأنه يبدو أن أفضل ما في الرجال، فيما يتعدى الفرق بين الجنسين قد صار مثالاً متجسداً فيهن. وأيم الحق، ليس في نية المسرح أن يظهر في هذا النوع من الأصوات تلك الفكرة عن المرأة: إذ أنه يستعمله ليظهر العاشق المثالي، كروميو مثلاً، لكن وتبعاً لتجربتي في المسرح والموسيقى يخطئ بانتظام الموسيقيون والمسرحيون الذين ينتظرون تلك التأثيرات من هذا النوع من الصوت. إذ أننا لا نصدق أمثال هؤلاء العاشقين، لأن هذه الأصوات تبقى مطعمة باستمرار بنفحة أمومية خاصة بربات البيوت، والتي لا تشتد بالضبط إلا عندما تعبر نغمتها عن الحب.

71 ـ في عفة النساء

هناك شيء مدهش وشنيع في تربية بنات العائلات والمجتمع الراقي، وربما ليس هناك من أمر أكثر مفارقة منه. فالكل متفق على تربيتهن مع أكبر تجاهل ممكن لكل ما يتعلق بـ in eroticis لدرجة توحي لهن بالحياء العميق وتعلمهن عدم الصبر المخيف أو ما يشبه الحاجة إلى الهرب عند أقل تلميح إباحي. بالاجمال على هذه النقطة فقط يتمحور «شرف» النساء، الذي لا يغفره لهن أي مجال آخر.

ولكننا نحرص على أن نتركهن جاهلات بذلك حتى أعمق أعماق قلوبهن: عليهن أن يبقين عمي، صم، بكم دون أية أفكار حول هذا «الشر» الخاص بهن: فبمجرد أن يعرفن به يصبن الشر عينه. وفوق ذلك فأنت ترى تلك النسوة بعينهن ترمى مع الزواج إلى معرفة ذلك وإلى الواقع كما لو كن تحت تأثير صاعق؛ ومعلمهن هو الرجل الذي يجب أن يكون أكثر من يحببن ويحترمن! عليهن أن يَرَيْنَ الحب يتصارع مع العفة، وأن يشعرن في الوقت عينه بالانخطاف والتضحية بالذات والواجب والشفقة والهلع الناتج عن التجاور الذي لا يمكن تصوره بين الله والحيوان، وما لا أدريه أيضاً! فهل عقدت روحٌ بعقدة أشد استعصاء من ذلك؟ ولا يمكن لأعقل علماء النفس مهما كانت حشريته ومهما كان تعاطفه أن يحزر الطريقة التي ستحل بها هذه المرأة أو تلك ذلك اللغز وسر ذلك الحل؛ ولا أن يخمن الشكوك الرهيبة التي تعتمل في تلك الروح البائسة التي وضعت خارج أطوارها

لدرجة أنه يترسخ هنا منتهى الفلسفة ومنتهى شك النساء.

بعدها يعود عين الصمت العميق الأول؛ وغالباً صمت، طريقة في الانغلاق عن الذات، تغلقن عيونهن عن أنفسهن، وتجهد النساء الشابات بأن تظهرن سطحيات وطائشات والأكثر حذاقة تتظاهر بالوقاحة.

غالباً ما ترى النساء في أزواجهن نوعاً من علامة استفهام موضوعة في حياتهن الزوجية ويرين في أطفالهن إما تبريراً أو كفارة، وهن بحاجة إلى الأطفال وترغبن فيهم بطريقة تختلف عن حاجة الرجل اليهم. باختصار، لا تحظى النساء إطلاقاً بما يكفي من الرأفة.

72 ـ الأمهات

للحيوانات رأي في الأنثى مخالف لرأي البشر؛ فالأنثى تشكل بالنسبة لهم العنصر المنتج، وهم يجهلون الحب الأبوي، بل لديهم شيء ما يشبه الحب الذي نكنه لأطفال العشيقة والطريقة التي نعتادهم عليها. تجد الإناث في أطفالهن إرضاء لحاجة السيطرة لديهن، شيئاً يفهمنه جيداً، يمكنهن أن يثرثرن معه، هذا كله يشكل الحب الأمومي ـ الذي يمكن مقارنته مع حب الفنان لأثره. لقد جعل الحَبَل النساء أشد ليناً وصبراً وأشد خوفاً، جعلهن أفضل استعداداً للخضوع؛ وكذلك الحَبَل الفكري فإنه ينمي طبع المتأملين، القريب من الطبع الأمومي: إنهم أمهات مذكرين، يعتبر الذكر عند الحيوانات الجنس الأجمل.

73 ـ فظاعة مقدسة

أتى رجل، يحمل طفلاً وليداً، قديساً، وسأله: «ما الذي يجدر بي أن أفعله لهذا الطفل؟ إنه بائس، مشوه، وليس لديه القدرة ليموت!» فصرخ القديس بصوت رهيب: «أقتله، أقتله واحمله بين ذراعيك ثلاثة أيام بلياليها، حتى تحفظه في الذاكرة، على هذا النحو لن تنجب إطلاقاً طفلاً ما لم يحن ميعاد إنجابك». عندما سمع الرجل هذا الكلام، عاد خائباً؛ ولقد لام الكثيرون القديس لأنه نصح بشيء فظيع، نصح بقتل الطفل. فأجاب القديس: «لكن أليس من الأفظع أن يتركه يعيش؟».

74 ـ نساء خائبات

لا يحالف النجاح أبداً تلك النساء البائسات اللاتي تظهرن قلقاً وعدم ثقة وتكثرن من الكلام بحضور من يعشقن: لأن ما يفتن الرجال بالتأكيد هو رقة مشوبة بالخمول والتحفظ.

75 ـ الجنس الثالث

«إن رجلاً قصيراً لهو ظاهرة مفارقة: إلا أنه مع ذلك يبقى رجلاً ـ بالمقابل فإن امرأة قصيرة بالمقارنة مع المديدات القامة، تبدو لي من جنس آخر» هكذا كان يتكلم أستاذ رقص عجوز. وكان أرسطو العجوز قد قال أن المرأة القصيرة غير جميلة على الاطلاق.

76 ـ أكبر خطر

لو لم يكن هناك في كل عصر ومصر، غالبية من الرجال تكوين مخهم ـ عقلانيتهم ـ يشكل موضوع فخرهم والتزامهم وفضيلتهم، وبصفتهم أصدقاء «الحس المشترك الجيد» يجعلهم كل خلط وهذيان للفكر يشعرون بالذل والاهانة، لكانت البشرية قد بادت منذ زمن طويل! يحلق فوقها الجنون دائماً كأسوأ خطر، الجنون المستعد دائماً للتفجر ـ أي ما معناه تفجر المتعة العبثية في الاحساس والنظر والسمع ومتعة الفوضى الدماغية ومتعة اللامعنى. وليست الحقيقة ولا اليقين ما يشكل النقيض لعالم الجنون، بل انه شمول الاعتقاد العام، بكلمة اللاتعسفية في الحكم. وأكبر عمل للبشر، كان يشتمل حتى الآن على الحصول على تراضٍ متبادل حول أكبر عدد ممكن من الاشياء وأن يلزموا أنفسهم بقانون الاجماع ـ سواء أكانت تلك الأشياء صحيحة أم باطلة. النظام الذهني هذا هو ما حفظ البشرية ـ إلا أن الاندفاعات المناقضة لا تزال، في العمق، قادرة لدرجة لا يمكننا معها أن نتكلم بثقة عن مستقبل البشرية. لا تنفك صورة الاشياء تتحرك وتتنقل، وربما ستتغير من الآن فصاعداً بسرعة أشد بكثير مما كانت عليه؛ ولقد كانت العقول المتميزة، العقول المتميزة حقاً ـ رائدة الحقيقة، في البدء ـ تتمرد باستمرار على هذا الالتزام الجماعي الشامل! فترى هذا الاعتقاد، لأنه ينبغي أن يكون اعتقاداً شاملاً يثير التقزز عند أكثرهم حذاقة

ـ كما يثير في الوقت عينه رغبات جديدة غير مشبعة. وبالأصل يكفي الإيقاع البطيء اللازم لكل السيرورات المعنوية، خطو السلحفاة هذا، والذي لا رجوع عنه هنا، يكفي هذا ليتيح للفنانين والشعراء أن يعطوا صورة الجاحدين: عند هذه العقول المملولة ينفجر الجنون الحقيقي، لأن للجنون إيقاع فرح لحد كبير! نحتاج إذاً إلى مثقفين فضلاء ـ آه، أصر على أن أقولها من دون أية مواربة ـ نحتاج إلى سذاجة فاضلة نحتاج إلى قادة أوركسترا ثابتي الجنان ليقودوا إيقاع الذهن البطيء، لكي يبقى المؤمنون بالمعتقد الكبير العام مجتمعين ويتابعون رقصتهم: إن ما يفرض ذلك ويتطلبه لهو ضرورة من الدرجة الأولى. إننا نحن المتميزون والخطرون ـ إننا بحاجة أبدية لنحمي أنفسنا! ـ والحال، هناك بالتأكيد شيء يقال لصالح الاستثناء بشرط أن لا يريد أن يصير القاعدة.

77 ـ الضمير الحيواني المرتاح

لا يغرب عن بالي الإبتذال الذي يثير الاعجاب في أوروبا الجنوبية ـ سواء أكان الامر يتعلق بالأوبرا الايطالية (روسيني وبيليني مثلاً) أو في أدب المغامرات الاسباني (الذي أكثر ما يصل إلينا متنكراً بلباس جيل بلاس Gil Blas الفرنسي)، إلا أنه لا يكدرني أكثر مما يكدرني الابتذال الذي نلقاه خلال إحدى النزهات في بومباي أو عند قراءة أي كتاب من كتب الأقدمين: إلى ما يرجع ذلك؟ أيعود ذلك إلى أنه ليس هناك من خجل؟ لأن الابتذال في الموسيقى والرواية يظهر بكل الثقة واليقين التي يظهر فيها النبيل والأنيس والشغوف؟ «للحيوان حقوقه كما للانسان فهو يستطيع بالتالي أن يتحرك بحرية توازي حريتك، يا قريبي العزيز! وأنت بنفسك، وبالرغم من كل شيء، لست إلا ذلك الحيوان!» هاك ما يبدو لي أنه حكمة وتاريخ وخصوصية البشرية الجنوبية، للذوق القبيح حقه كما للذوق السليم، حتى أنه يتميز عنه بكونه، يعبر عن الحاجة الكبرى والاشباع الأكيد، ويشكل بمعنى الكلام، لغة كونية، قناعاً، يمكن أن يفهم مباشرة. بينما يشهد الذوق الحسن، بما له من اختيار، بالاستقصاء، بالإرتجال ويلتبس فهمه ـ فهو ليس شعبياً ولم يكن كذلك على الاطلاق. القناع فقط كان شعبياً ويبقى كذلك! أن يُصرف كل ذلك التنكر في الانغام وفي الايقاع، في الفقر وفي

دعابات أوزان هذه الأوبرات! ماذا يمكننا أن نفهم من ذلك إذا لم نفقه شيئاً عن لذة القناع: والضمير المرتاح لكل ما هو تنكري؟ هاك حمَّام رفاهية العقل القديم: وربما كان هذا الحمام في العالم القديم أشد ضرورة لذوي الطبع النادر والنبيل منه لذوي الطبع المبتذل. بالمقابل فإني أشعر بإهانة فائقة الوصف، لدى أقل ابتذال في أسلوب مؤلفات أوروبا الشمالية، كما في الموسيقى الألمانية مثلاً. حيث لا يزال الفنان محتشماً ويرى أنه بنظره بالذات قد أهين ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يحمر خجلاً، فنخجل معه أيضاً، نشعر أننا قد شتمنا لشعورنا بأن الفنان يشعر أنه مضطر بسببنا إلى الانحدار نسبياً.

78 ـ أسباب للاقرار بالفضل

لقد كان الفنانون، وبالأخص فنانو المسرح هم الذين أعطوا الناس عيوناً وآذاناً ليروا وليسمعوا ببعض اللذة من هو الواحد منا وما الذي يعيشه وماذا يريد كل واحد منا؛ فهم من علمنا أن نقدر البطل المختبئ في كل رجل من رجال كل يوم، وهم الذين علمونا فن النظر من بعيد إلى ذاتنا على اعتبار أننا أبطال، وبمعنى ما بشكل مبسط ومتحول: فن «الاخراج المسرحي» لأنفسنا أمام ذاتنا، واعطونا بذلك الوسيلة لنتجاوز بعض الخصال الوضيعة في طبيعتنا! من دون ذلك الفن فإننا لن نكون إطلاقاً سوى «مخططاً أولياً»، ونعيش تحت زاوية ذلك المنظور الذي يُكبِّر بشكل مفرط كل ما هو مباشر ومبتذل معطياً له بذلك منظر الواقع بالذات. وربما يستحق التقدير عينه ذلك الدين الذي يأمر بالفحص بعدسة مكبرة كل حالة خطأ عند كل رجل، ويجعل من كل آثم أفَّاكٍ كبير لا يموت: وبنسجه أبعاداً أبدية حول الإنسان، فإنه يعلم الرجال أن ينظروا من بعيد إلى ذاتهم كما لو كانوا شيئاً ماضٍ وكلي.

79 ـ سحر ما ينقص

أرى هنا شاعراً يمارس أشد تأثير لسحره، شأنه في ذلك شأن الكثير من الناس، بما ينقصه وليس بما ينجزه وينجح فيه؟ حتى أنه يمكن القول، أنه يدين بمجده وتفوقه إلى هذا النقص الأخير أكثر مما يعود إلى قوته

الدفاقة. لا تعبر مؤلفاته على الاطلاق عما كان يريد أن يعبر عنه، عما كان يُحب أن يُرى: يبدو كأن لديه طعم نكهة ـ أولية لرؤية دون أن تكون لديه تلك الرؤية بالفعل؛ إلا أن رغبته الجامحة قد بقيت في أعمق أعماق روحه، يغرف منها بلاغته العجيبة. بفضلها يرفع من يستمع اليه إلى أعلى من مؤلفاته ومن كل «المؤلفات»، يعطيهم أجنحة ليرتفعوا بواسطتها إلى علو لم يصل اليه الحاضرون من قبل: وقد تحولوا بأنفسهم إلى شعراء مبصرين فإنهم يخصصون لمؤلف سعادتهم إعجاباً كما لو كان قد قادهم إلى آخر حقائقه المقدسة، كما لو أنه قد رأى بعينه وكاشفهم برؤيته. يستفيد مجده من واقع أنه لم يبلغ هدفه بالفعل.

80 ـ فن وطبيعة

كان اليونانيون (الاثينيون على الأقل) يحبون أن يسمعوا الكلام الفصيح: حتى أنه لديهم ميل عنيف لذلك يميزهم عن كافة الأمم الأخرى. ولذا فإنهم كانوا يفرضون حتى على العشق نفسه أن يتكلم بفصاحة على المسرح، ويستسلمون بلذة إلى الايقاع الشعري المفتعل: إن العشق في الحياة شديد البخل، شديد الصمت والتشوش، أو انه عندما يتوصل إلى التعبير فبطريقة ملتبسة وغير عقلانية، تخجل من ذاتها. والحال، فإننا وبفضل اليونانيين قد اعتدنا نقيض ـ الطبيعة هذا في المأساة، كما اعتدنا، وبفضل الايطاليين أن نتحمل عن طيب خاطر نقيض ـ الطبيعة الآخر: العشق الشادي ـ مذ ذاك، صار لدينا حاجة لا يمكننا أن نشبعها في الواقع: أن نسمع الناس، في أخطر المواقف، يتكلمون جيداً وبصريح العبارة؛ نشعر الآن بنوع من الافتنان عندما نرى أن البطل التراجيدي لا يزال قادراً على اختيار كلماته، وأن يجد العلل، وأن يأخذ المواقف البليغة وان يُظهِرَ بالاجمال ذكاء بيّن في اللحظة التي تجاور فيها الحياة المهاوي، والتي تجعل، بشكل عام، الرجل العادي يفقد رشده،وتذهب بأي رغبة بالكلام النبيل. ربما كان هذا الانحراف عن الطبيعة أمتع غذاء لغرور الانسان: إنه في كل حال ما يجعلنا نحب الفن بصفته تعبير عن نقيض ـ الطبيعة، بصفته تواطئ نبيل وبطولي. وبحق يلام الشاعر المأساوي لأنه لا يحول كل مادته إلى حجج وكلمات ولأنه يحتفظ باستمرار ببقية من الصمت

كذخيرة: نستاء منه كما نستاء من الملحن الذي لا يعرف أن يجد نغماً ليعبر في الأوبرا عن لحظات العشق الحادة، إلا أن يستعيض عن النغم بتلجلج وعويل «الطبيعي» المؤثر. والحال، فإنه في هذه اللحظة بالضبط يجب مناقضة الطبيعة! هنا بالضبط على الفتنة المبتذلة أن تترك المكان لفتنة أسمى! يمضي اليونانيون بعيداً في هذه الطريق، يمضون بعيداً بشكل مخيف! وكما يبنون خشبة مسرحهم على أضيق ما يكون ويمنعون عن الممثل كل تمثيل إيمائي وكل سهولة في الحركة، ويحولونه إلى قناع، جامد في تعابيره، كما في وضعيته الاحتفالية كذلك فإنهم منعوا عن الهوى كل عمق خلفيته، وأملوا عليه بالتالي قانون الخطاب الجميل. وأكثر من ذلك، فلقد استخدموا كافة الوسائل ليقاوموا الفعل الأولي للصور التي تثير الخوف والشفقة: لأنهم لم يكونوا يسعون وراء الخوف ولا وراء الشفقة إطلاقاً ـ المجد، المجد الأسمى، من دون شك، لأرسطو! إلا أنه لم يضرب بشكل صحيح عندما تكلم عن الغاية النهائية للمأساة اليونانية! لنتفحص من وجهة النظر هذه كل المأساويين اليونانيين، فما الذي كان يثير حميتهم، ومهارتهم، وتنافسهم، انه ليس بالضبط نيتهم في زعزعة المشاهدين بالآلام! كان الأثيني يذهب إلى المسرح ليستمع إلى كلام جميل: كان الكلام الجميل الشغل الشاغل لسوفوكل! ولتغفر لي هذه البدعة! يختلف الأمر كلياً في الأوبرا الجدية: يصر أساتذتها الكبار على تحاشي فهم شخصياتهم. يمكن لكلام يدركه غفلة مستمع ساه أن يساعده أحياناً: إن الحالة يجب أن تفسر نفسها بنفسها بشكل كلي، قلما يهم الكلام: لذلك يعتقدون كلهم بأنهم قد تسلوا جيداً بالكلمات. ربما لم يكن ينقصهم إلا القليل من الشجاعة ليصلوا إلى أقصى حد للاحتقار الذي يتملكهم بما يخص الكلام: لو كان لروسيني قليل من الوقاحة، لكان جعل ممثليه لا يغنون سوى لا... لا... لا... من البداية حتى النهاية. وهذا ما لم يكن من دون حق. وفي الواقع لا يتم تصديق ممثلي الأوبرا «على كلامهم» بل على «طبقة صوتهم». لهذا الفرق، لهذا التناقض مع الطبيعة نحب أن نذهب لسماع الاوبرا! حتى recitativo secco نفسه لا يجب فهمه في العمق على أنه نص: لقد وضع هذا النوع من نصف ـ الموسيقى ليعطي بعض الراحة لأذن الايطالي، يسترخي فيها من سماع الألحان (التي تشكل

أسمى متعة وبالتالي أتعب ما في هذا الفن) ولشيء آخر أيضاً: توليد عدم صبر متنامي، قرف متنامي ورغبة جديدة بالموسيقى الكاملة وبالألحان. ما الذي تشكله موسيقى ريشارد ڤاغنر من وجهة النظر هذه؟ ربما كان الأمر عينه، وربما كان شيء آخر؟ غالباً ما كان يتراءى لي أنه يجب عن ظهر قلب معرفة كلمات وموسيقى مؤلفاته قبل تقديمها: ـ هذا ما يتراءى لي، لأننا من دون ذلك نخاطر بأن لا نسمع لا كلمات ولا موسيقى.

81 ـ الذوق الهيليني

«ما الجميل في ذلك». سأل أحد مساحي الأراضي عند نهاية عرض افيجني Iphigenie ـ «فهو لا يبرهن على شيء!» وبالطبع لم يكن اليونانيون بعيدين عن هذا الرأي؟ فعند سوفوكل، على الأقل، كل شيء مبرهناً.

82 ـ «العقل ليس يونانياً»

يدفع اليونانيون في كل أفكارهم المنطق والبساطة حتى أقصى حد: ولم يضجروا من ذلك إطلاقاً، على الأقل خلال أكمل وأفضل مرحلة لديهم. على نقيض الكثير من الفرنسيين الذين يتجاوزونه بخطوات صغيرة مناقضة، ولا يتحملون عقلية المنطق الا عندما يكشف وبخطوات صغيرة مناقضة عن لطافته واجتماعية نفسية لذاته: يبدو المنطق للفرنسيين لازماً كالخبز والماء، إلا أنه يشبه خبز وماء السجين ما ان يكون مضطراً لتناوله خالصاً وعلى انفراد. في المجتمع الراقي عليك ألاّ ترغب في أن تكون المالك الوحيد للحق كما يريد المنطق الصافي تماماً: من هنا هذا المقدار القليل من اللاعقلانية في كل الذهنية الفرنسية. لم يكن حسن المعاشرة عند اليونانيين متطوراً كما كان ولا يزال عند الفرنسيين! من هنا قلة العقل لدى أشد رجالهم روحانية، وبالتالي قلة الفكاهة عند مهرجيهم، . . وبالتالي، للأسف! ما من أحد يصدق ما أقوله مع اني احتفظ بقلبي بأفكار كثيرة من هذا النوع؛ Est res magna tacere يقول مارسيال Martial مع كل الثرثارين.

83 ـ ترجمات

يمكن الحكم على درجة الحس التاريخي لمرحلة ما تبعاً للطريقة التي تترجم فيها الأزمنة الغابرة والكتب القديمة والتي تسعى فيها إلى تمثلها. فالفرنسيون أيام كورناي Corneille، لا بل فرنسيو الثورة استحوذوا على التراث الروماني بطريقة لم نعد نجرؤ عليها اليوم ـ بفضل تطور حِسِّنا التاريخي. أما فيما يخص الرومان الأقدمون أنفسهم: فبأي عنف وبأي سذاجة في آن معاً وضعوا أيديهم على كل ما كان متميزاً وسامياً في التراث الهيلني! كيف عرف الرومان أن يحولوه إلى واقع روماني، كيف عرفوا عن قصد وبدون أي تردد أن يمحوا غبار جناح اللحظة، هذه الفراشة! وهكذا كان هوراس Horace يترجم من هنا وهناك بروبرس كاليماك وفيلتاس (شعراء من نفس معيار تيوقريط، إذا كان لنا أن نحكم): دون اهتمام بأن يكون المبدع المعني هنا قد عاش هذا الأمر أو ذاك وانه قد أشار اليه في شعره! فبصفتهم شعراء لم يكونوا مستعدين إطلاقاً لذهنية عالم الآثار التي تسبق الحس التاريخي؛ فبصفتهم شعراء كانوا يحتقرون الاسماء والأشياء الشخصية الصرف، وكل قناع وزي، خاص بمدينة، شاطئ أو بقرن؛ ويهرعون إلى استبداله بحاضر روماني، كانوا يظهرون وكأنهم يقولون لنا: «هل نحن على خطأ في تجديد القديم لكي نجد فيه أنفسنا؟ أن نبعث روحنا في جسد ميت؟ لأنه قد مات مرة واحدة وإلى الأبد؟ كم هو شنيع كل ما هو ميت!» لقد كانوا يجهلون متعة الحس التاريخي: فكل ماضٍ، كل أجنبي كان يجرحهم ما لم يكن يحثهم على أن يصير فتحاً رومانياً. وفي الواقع كانت الترجمة فتحاً لهم، ليس فقط لأنهم يلغون العنصر التاريخي: كانوا يضيفون إليه تلميحهم للحاضر، وبمحوهم، في البدء، إسم المؤلف ليضعوا إسمهم الخاص مكانه ـ ليس إطلاقاً بفكرة النهب، لا بل ببراءة ضمير كاملة imperium Romanum.

84 ـ في أصل الشعر

إن هواة الخيال عند الانسان، وهم أنفسهم الذين يدافعون عن عقيدة الاخلاق الغريزية، يحللون كالتالي: «لنقبل ان المنفعة قد كُرِمت على مر العصور كأسمى إله، فمن أين جاء الشعر؟ هذا الايقاع للكلام، الذي يزيد

في غموضه بدلاً من أن يوضحه ودون أن يسهل التواصل، ومع ذلك فقد ازدهر بشكل رائع مما يشكل إهانة لكل منفعة! إن لا عقلانية الشعر الجميلة والبرية تهفتكم، أنتم بالضبط أيها النفعيون! إن الميل للتحرر من المنفعة بالتحديد هو ما رفع الانسان ومن أوحى إليه بالأخلاق والفن». في الحالة هذه يجدر بي، ولو لمرة واحدة أن أسعد النفعيين: إذ نادراً ما يكون معهم حق لدرجة تثير الشفقة. ففي تلك الأزمنة الغابرة التي ولَّدت الشعر، كان المقصود منه منفعة كبيرة جداً. عندما أدخل الايقاع في خطاب، الايقاع هذا العنف الذي يجدد نظام كل ذرات الجملة، وينظم اختيار الكلمات ويلون الأفكار مجدداً ويجعلها أشد غموضاً وأشد غرابة، وأشد بعداً: لا شك بأنه كان يتم الخضوع لمنفعة خرافية! كان المقصود من الايقاع أن يرسخ رغبة الانسان بشكل أعمق في ذهن الآلهة ـ بعدما لوحظ أن الذاكرة الانسانية تحفظ الشعر بسهولة أكثر من النثر التلقائي؛ وكان يرجى أيضاً بواسطة تيك ـ تاك الايقاع أن نوصل السمع إلى البعيد البعيد، فكان يبدو ان الصلاة الايقاعية تصل بطريقة أفضل إلى آذان الآلهة. إلا أنه كان يسعى قبل ذلك إلى إلتماس مكاسب من هذه السيطرة الأولية التي كان الانسان يخضع لها عند سماع الموسيقى، فالايقاع إكراه يولد رغبة لا تقاوم في الخضوع، في التطابق، إذ لا تتبع القدمين فقط إيقاع الوزن، الروح أيضاً تتبعه، وربما أيضاً روح الآلهة! كان يُخلص إلى ذلك: فكانت تتم بالتالي محاولة إخضاعهم بواسطة الايقاع، وممارسة السلطة عليهم. كانت الموسيقى ترمى حول عنقهم كأنشوطة سحرية. كان هناك أيضاً فكرة أشد غرابة: ربما كانت أكثر ما ساهم في تكوين الشعر. يظهر لنا الشعر مع الفيثاغوريين كعقيدة فلسفية وصنعة معلم. ولكن وقبل وقت طويل من وجود الفلاسفة كان يعزى للموسيقى، وبالتحديد للايقاع الموسيقي، بملكة تفريغ الاهواء وتنقية الروح، والتخفيف من وطأة ferocia animi، عندما يفقد التوتر الطبيعي للروح توازنه الطبيعي، عندها يجدر الرقص تبعاً لايقاع المرتل، تلك هي وصفة علاج الروح؛ بواسطتها أخمد ترباندر Terpandre فتنة، وسكن امبدوقل Empédocle مجنوناً جائحاً، ودامون Damon طهر روح عاشق أضناه الحب؛ نفس علاج الروح هذا كان يطبق أيضاً على الآلهة التي تهتاج وتحقد فجأة، بمفاقمة هذيان الآلهة في البدء وتفجر

أهوائهم أي بجعلهم الإله الحانق مجنوناً، وبجعل الآلهة التي تتوق إلى الانتقام سكرى من عطشها: تعمد كافة الشعائر الاورجية إلى تفريغ الـ ferocia الالوهية بدفعة واحدة، لتشعر الآلهة بعد ذلك بالحرية والسكون، وتترك البشر في أمان، تعني Melos ميلو، تبعاً لجذر الكلمة وسيلة للتخفيف، ليس لأن الغناء لطيف في ذاته، بل لأن اللطف هو أثره اللاحق. وليس الغناء الديني فقط ما يفترض أن للايقاع قدرة سحرية؛ فغناء أقدم الأزمنة الغابرة الدنيوي يفترض أن للحركة الايقاعية كغرف الماء والتجذيف مثلاً، تأثيراً سحرياً: فالغناء يفتن الشياطين التي يفترض أن تكون نشيطة في هذه العمليات، يطوعها ويأسرها ويجعلها أدوات في خدمة الانسان. ففي كل مرة يتم الفعل فيها هناك حجة للغناء، فكل فعل يرتبط بالحاجة إلى مساندة الأرواح: تبدو الرقيات والتعويذات السحرية أشكالاً بدائية للشعر: عندما كان الشعر يستخدم لاجوبة الآلهة، كان اليونانيون يقولون أن البحر السداسي قد ابتكر للاله دلف Delphes. يفترض أنه كان للايقاع أيضاً ضرورته. يعني التنبؤ قديماً (تبعاً للفظ اليوناني كما يبدو لي): تحديد شيء ما؛ فربح أبولون إلى جانبه يعني إمكانية إخضاع المستقبل، لأن أبولون تبعاً للتقاليد القديمة هو أكثر من إله متنبئ. ما ان تتلى الصيغة بشرط أن يحترم الايقاع واللفظ، حتى يتم تكبيل المستقبل. والحال فإن الصيغة هي من تأليف أبولون، الذي يمكنه بصفته اله الايقاع أن يكبل آلهات القدر. وفي آخر المطاف هل هناك شيء أكثر منفعة من الايقاع لعرق البشرية القديم الذي يؤمن بالخرافات؟ فهو يتيح القيام بكل شيء: يعزز العمل سحرياً، يجبر الآلهة على الظهور، على أن تكون قريبة وأن تسمع: وهو يفرغ الروح من كل إفراط (قلق، هوس. شفقة، الحاجة إلى الانتقام) وليس فقط الروح بل أيضاً روح أشد الشياطين انحرافاً، بدون إيقاع كنا لا شيء، ومعه نصير شبه آلهة. لا يمكن بالكامل استئصال شعور بهذا العمق فحتى اليوم أيضاً، ورغم آلاف السنين من الصراع لمقاومة هذه الخرافة، يمكن لأعقل واحد فينا أن يصير مهووساً بالايقاع، لمجرد أنه قد شعر أن فكرة ما تصير أحق لو كان لها وزن شعري وترشح (hop-là) الهي! هل هناك أظرف من رؤية أشد الفلاسفة وقاراً وهم عادة صارمون فيما يخص اليقين يرجعون إلى الحكم الشعرية ليشددوا من قوة وصدق أفكارهم؟ ـ

ومع ذلك أليس من الخطر على الحقيقة أن تلقى رضى شاعر بدلاً من معارضته؟ لأنه وكما قال هوميروس «إن الشعراء لكاذبون كبار».

85 ـ الخير والجمال

لايني الفنانون عن التمجيد ـ وهم لا يفعلون غير ذلك ـ يمجدون كافة المواقف، كافة الأشياء التي يفترض أنها تمنح الانسان وسيلة للشعور بأنه طيب أو عظيم، سكران أو فرح أو قديس أو حكيم. تشكل هذه الأشياء المواقف المختارة، والتي تعتبر قيمتها أكيدة بالنسبة إلى سعادة الانسان ولا مجال للشك فيها، تشكل موضوع عمل الفنانين: لا ينفك الفنانون يترصدون اكتشافها ليجعلوا منها مادة للفن. أعني أنهم من دون أن يكونوا بأنفسهم من يثمن السعادة والانسان السعيد فإنهم يجدّون في أثر المثمنين الحصريين، بأشد الحشرية وأشد رغبة في استغلال تثميناتهم. وهكذا وكونهم يملكون بالاضافة إلى قلة صبرهم حنجرة المبشر الكبيرة وسرعة الرسول، تلقاهم دائماً في مقدمة ممجدي القيم الجديدة، وغالباً ما تراهم يبرزون كأول من يسميها خيراً ويقيمونها كخير. إلا أن ذلك، وكما قلت سابقاً، ليس الا خطأ: فإنهم لم يكونوا الا الأسرع ومن تكلم بصوت أعلى من المثمنين الحقيقيين. ـ لكن من هم هؤلاء المثمنون الحقيقيون؟ إنهم الأغنياء والمتعطلون.

86 ـ في المسرح

يوم آخر منحني مشاعر قوية وسامية. وإذا كان بإمكاني أن أحصل في مساء هذا اليوم على موسيقى وفن، فإني أعرف جيداً أي نوع من الموسيقى والفن لا أريد على الاطلاق، إنه نوع الموسيقى والفن الذي يدعي بأنه يسكر المستمع ويزوده بجهد وللحظة بمشاعر سامية وقوية؛ لتلك الأرواح العادية من البشر الذين في المساء، وبدلاً من أن يشبهوا الظافرين على عربات النصر يبدون كالبغال المخبولة من وقع سياط الحياة المتواترة. هل يعرف فقط هؤلاء البشر بوجود «حالات نفسية سامية» ما لم يكن هناك منبهات قادرة على جلب النشوة وضربات سياط المثل؟ وكما أن لديهم خمرهم، فهم يملكون أيضاً «متحمسيهم»، ولكن بماذا يهمني شرابهم

ونشوتهم! هل يحتاج المتحمس إلى خمر؟ إنه على العكس، ينظر باشمئزاز إلى الوسيلة والوسيط الذي يفترض فيهما أن يجلبا لهؤلاء البشر مفعولاً من دون أي علة كافية، مسخرة للمد الروحي العالي! ـ ماذا؟ أتعطى أجنحة للخلد، وأفكار متكبرة قبل أن يخلد إلى حجره؟ نرسله إلى المسرح؟ نضع نظارات سميكة على عينيه التعبتين والمكفوفتين؟ بشر لا تشكل الحياة إطلاقاً «فعلاً» بالنسبة اليهم بل مجرد شغل، يجلسون هنا أمام المسرح لينظروا إلى كائنات من عالم آخر، الحياة بالنسبة اليهم أكثر من مجرد شغل؟ يقال «هذا إخلاص، هذا مُلْهٍ، هذا ما تريده الثقافة!» وليكن علي أن أصدق أنه غالباً ما تنقصني الثقافة: لأنه غالباً ما يقززني هذا المشهد. إن من يرى أنه يملك لحسابه الخاص ما يكفي من الملهاة وما يكفي من المأساة، يفضل الامتناع عن الذهاب إلى المسرح، أو أنه في تلك الحالة، واستثنائياً تصير الصيرورة، بمجملها ـ الديكور، الجمهور، بما في ذلك المؤلف ـ تصير بنظره العرض المأساوي والكوميدي بحصر المعنى، بالمقابل تصير المسرحية نفسها بلا قيمة. ان من يكون من جبلة فاوست ومانفرو بماذا سيهمه فاوست ومانفرو المسرح! ولسوف يتساءل لماذا نعرض مثل هذه الشخصيات على المسرح. ان نعرض أشد الأفكار وأشد الأهواء قوة أمام بشر عاجزين عن تلك الأفكار والأهواء، قادرين فقط على النشوة! وان تستعمل تلك لنعطيهم هذه! ان نجعل فن المسرح والموسيقى مدخنة للحشيش ولمضغ التنبل bétel للاوروبيين! من سيحكي عن التاريخ الكامل للمخدرات! . . . انه تقريباً كل تاريخ «الثقافة»، وما يقال له الثقافة العالية!

87 ـ في غرور الفنانين

أعتقد أن غرور الفنانين المفرط يجعلهم يجهلون أفضل ما يبرعون به، ويسعون إلى مواضيع تبدو أشد زهواً، ويحتقرون النباتات المتواضعة، الجديدة والغريبة والجميلة التي يمكنها أن تنمو بكامل حلتها على أرضهم. فهم يحكمون بشكل سطحي على أفضل ما في حديقتهم الخاصة، على أفضل كرمتهم الخاصة؛ إذ لا يتساوى تخمينهم مع حبهم. هاك موسيقي تفوق براعته براعة الآخرين في العثور على النغمات الخاصة بالأرواح

المعذبة، المقموعة، الشهيدة، وحتى في إعطاء لغة للحيوانات البكماء. لا يضاهيه أحد في تلوينات الخريف المتقدم، في السعادة التي لا توصف لكل متعة عابرة ونهائية. يعرف النغمات السرية والقلقة الخاصة بمنتصف ليال الروح حيث تتفسخ العلة والمعلول، حيث يمكن لشيء ما أن يولد من العدم في كل لحظة: ينجح أكثر من أي شخص آخر في الغرف من أعماق الغبطة الانسانية، في كؤوس هذه الغبطة المفرغة حيث تنتهي القطرات الأشد حموضة والأشد مرارة بأن تختلط مع القطرات الأشد عذوبة؛ إنه يعرف سأم الروح التي تنسحب ولم تعد تعرف لا القفز ولا التحليق، ولا حتى المشي: يجفل نظره لمرأى الألم المستتر، للمعرفة التي لا يمكن مؤاساتها، للانشقاق غير المعترف به؛ نعم، فبصفته أروفيه Orphée الشقاء الحميم، هو أكبر من أي إمرىء آخر. بشكل عام، فإنه قد أغنى الفن بالعديد من الأشياء التي كانت تبدو حتى الآن فائقة الوصف وحتى غير جديرة بهذا الفن، بالعديد من الأشياء التي لم يكن يبدو أن بمقدور الكلام إلا أن يتجنبها ـ العديد من ذرات الروح الانسانية، العديد من العناصر المجهرية: انه في الواقع معلم المتناهي الصغر. ولكنه لا يرفض أن يكون كذلك! فإنه على العكس، يحب بطبعه الجدران الكبيرة والنقوش الجريئة؛ ويغرب عن باله أن لعقله رغبات أخرى وميول أخرى، وانه يفضل أن يتلطى بسلام في زوايا المنازل المقوضة: هنا فقط متوارياً، متوارياً عن نفسه يؤلف روائعه الحقيقية، القصيرة جداً دائماً، والتي لا تدوم غالباً سوى لوزن واحد؛ هنا فقط يظهر كبيراً وكاملاً وربما هنا فقط ـ ولكنه يجهل ذلك: فهو مفرط الغرور حتى يعرف به.

88 ـ في جدية الحقيقة

آخذ الحقيقة على محمل الجد! كم تختلف الطرق التي يفهم بها البشر هذه الكلمات. والحال فإن الآراء نفسها، والتجارب نفسها والتحليلات التي يعتبر مفكر بخجل أن خضوعه لها في هذه الفترة أو تلك من حياته كان ضرباً من الطيش، هذه الآراء نفسها والطرق نفسها يمكنها أن تمنح الفنان الذي يكتشفها ويعيش معها لوقت، تمنحه وعياً بأن ثقل الحقيقة العميق قد مسه، وبأنه جدير بالاعجاب كونه وهو الفنان قد برهن عن أشد

حاجة جدية إلى نقيض الظاهر. على هذا النحو يمكن لأحد ما لشعوره بالجدية نفسها، أن يفشي الطريقة السطحية والمحدودة التي كان عقله يلعب بها في ميدان المعرفة. ألا يكشفنا دائماً ما نأخذه بجدية! إنه يكشف أين نضع ثقلنا وفي أي مجال ينقصنا.

89 ـ الآن وفيما مضى

ما الفائدة من كل فن تحفنا الفنية، مهما عظم شأنها، إذا كنا قد فقدنا هذا الفن الأعلى، فن الاعياد! فيما مضى كانت تنصب كل التحف الفنية على جادة الاحتفالات البشرية الكبيرة باعتبارها دلالات وآثار تذكارية للحظات الهناء السامية تلك. حالياً لم يعد يراد استخدامها الا لتجذب بعيداً عن الآلام البشرية الكبيرة، الكائنات المسكينة والمنهكة والمريضة، لمنحهم نشوة صغيرة، جنون صغير.

90 ـ أنوار وظلال

تختلف الكتب وتحريرها تبعاً للمفكرين: فواحد ركز في كتابه كل الأنوار التي عرف أن يختلسها بسرعة من أشعة معرفة انبثق ضياؤها فيه، فتمثله: الآخر لا يعطي الا الظلال، إلا الصور المنعكسة بالرمادي والأسود، لما شُيد بالعشية في روحه.

91 ـ احتياط

نعرف أن الفييري Alfieri قد كذب كثيراً، عندما روى حياته لمعاصريه المنذهلين. لقد كان يكذب بفضيلة هذا الاستبداد الذي استخدمه على نفسه، هذا الاستبداد نفسه الذي يظهر مثلاً في النمط الذي ابتدع فيه لغة خاصة وفي استبداده بنفسه إلى أن صار شاعراً: ـ لقد انتهى إلى أن يكتشف صيغة قاسية لاسلوب سام أجبر حياته ومذكراته على الخضوع له. وهذا ما كلفه، من دون شك، الكثير من الآلام. لا أمنح ثقة أكبر لسيرة ذاتية لأفلاطون، ولا لروسو أو لـ Vita nuova لدانتي.

92 ـ نثر وشعر

علينا أن لا ننسى أن كبار أساتذة النثر كانوا بشكل شبه دائم شعراء أيضاً، إما علناً وإما سرّاً وفي «قرارة أنفسهم»؛ وفي الحقيقة يُكتب النثر الجيد بمواجهة الشعر؛ لأن النثر ليس إلا حرباً متواصلة ضد الشعر: يقوم سحره في التملص باستمرار من الشعر وفي معارضته له: ويتطلب كل مفهوم مجرد بأن يطلق بنبرة ساخرة ضد الشعر؛ فكل خشونته وكل برودته عليها أن تدفع بالآلهة اللطيفة إلى يأس لطيف: غالباً ما يتم للحظة، تقارب، تصالح، ثم ارتداد فجائي وقهقهة وضحكات؛ غالباً ما يسحب النثر ستاراً ليسطع نور فج في اللحظة نفسها التي تتمتع فيها الآلهة بظلالها، وألوانها المخففة؛ غالباً ما يستولي على أقوالها ليغنيها بنغم يجبرها على رفع يديها الرقيقتين إلى أذنيها، اللتين لا تقلان رقة عنهما، وعلى هذا النحو تقوم حرب حاملة آلاف التسليات والتي لا يملك عنها اللا ـ شعراء، الذين يقال لهم النثيرون أي فكرة: ـ كما أن هؤلاء الآخرين لا يكتبون ويتكلمون إلا بنثرٍ سيء. ولما كانت الحرب والدة كل الأشياء الجيدة، فإنها أيضاً والدة كل نثر جيد.

لقد كان هناك أربعة رجال رائعين وشعراء حقاً، توصلوا إلى سيادة النثر، سيادة لم يصنع لها هذا القرن: لأنه لا شعر فيه، كما قلت سابقاً. باستثناء غوته الذي يطالب به بحق القرن الذي شكله كإبن له، لا أرى غير جياكوموا ليوباردي Giacomo Leopardi، بروسبير مريمه Prospere Mérimée، رالف والدوا امرسيون Ralph Waldo Emerson، والتر سافاج لاندر Walter Savage Landor مؤلف Imaginary Conversations. جديرين بأن يسموا أساتذة النثر.

93 ـ لكن أنت، لماذا تكتب إذن؟

A ـ لست من الذين يفكرون والريشة في يدهم؛ وبدرجة أقل من أولئك الذين يستسلمون لأهوائهم عندما يجلسون على كرسي عيونهم شاخصة على الورق أمام المحبرة المفتوحة؛ وكل فعل كتابة يغيظني ويهينني: فالكتابة ضرورة بالنسبة لي. إشمئز من الكلام عنها حتى بالرمز.

B- ولكن لماذا تكتب إذن؟ A للاسف: يا عزيزي. بيني وبينك، لأنني لم أجد وسيلة أخرى أتخلص بها من أفكاري. B - ولماذا تريد أن تتخلص منها؟ A - لماذا أريد ذلك؟ وهل أنا أريد؟ إني مرغم على ذلك. B - حسناً، حسناً.

94 - نمو فيما بعد الموت

تلك الكلمات الحادة والجريئة حول الأخلاق، والتي كان فونتنل Fontenelle يسجلها في «حوارات الأموات» الخالدة كان عصره يعتبرها مفارقات، وجناس لتلاعب قابل لأن يكون مكفولاً، حتى أن أسمى حكام الذوق والعقل لم يروا فيها أكثر من ذلك، وربما فونتنل نفسه. والحال يحدث الآن ما لا يصدق، لقد صارت أفكاره حقائق! يبرهنها العلم: لقد انقلب اللعب الى جد. ونحن نقرأ هذه الحوارات بشعور مخالف لشعور ڤولتير Voltaire وهلفيثيوس Hélvétius. فنحن نرفع مؤلفها بشكل لا إرادي إلى مصاف أعلى بكثير من مصاف العقول التي كانا يتصورانها ... بحق؟ بدون حق؟

95 - شونفور Chamfort

أن يكون خبيراً بالبشر وبالجماهير، كشونفور Chamfort، قد نحى صوب العوام بالضبط... ولم يبق على إنفراد في وضعية دفاعية وتمنع فلسفي، هذا ما لا أستطيع أن أفسره إلا كالتالي: كان لديه غريزة أقوى من حكمته وغريزة لم تُشبع، كرهاً لكل أرستقراطية المولد: كره قديم، ربما ورثه عن والدته، ويمكن أن يفسر عندها، كره كرس عنده ورعاً بنوياً، حقداً يعود إلى أيام طفولته وينتظر ساعته للانتقام لوالدته. وها هي الحياة. ها هي عبقريته وها هو، ربما بالأخص، دم والده الذي يسري في عروقه يحمله على الانخراط في تلك الارستقراطية بالذات، وان يكون معها على قدم المساواة وذلك لسنين طوال، طوال! لكنه أخيراً لم يعد يحتمل هيئته، هيئة «رجل عجوز» في كنف الحكم القديم. فصار فريسة لمشاعر قوية عنيفة جعلته يتلبس لباس الرعاع كنوع من المسوح الشخصي! كانت خطيئته في أنه كان قد أهمل انتقامه. لو أن شونفور قد بقي فيلسوفاً بأكثر من درجة

واحدة، لكانت الثورة قد خسرت عقلها، حدتها المأساوية ومهما زها الأشد لوعة: لكانت قد اعتبرت كحادث أكثر حمقاً بكثير ولم تكن قد مارست هذه الجاذبية على العقول. إلا أن حقد وانتقام شونفور قد شكّلا روح جيل بكامله: لقد خرج أشهر الرجال من تلك المدرسة. لنفكر أن ميرابو Mirabeau كان ينظر إلى شونفور كمن ينظر إلى أنا أعلى وأنضج ينتظر منه ويتحمل تحريضه ومواعظه وحكمه، ميرابو الذي ينتمي إلى مصاف يتجاوز من بعيد عظمة أوائل رجال الدولة العظام في الأمس واليوم، أليس أمراً نادراً أنه بالرغم من صديق كهذا، وكفيل كهذا - أننا نملك بالفعل رسائل ميرابوا وشونفور - أن يبقى ألطف الأخلاقيين غريباً عن الفرنسيين تماماً بمقدار ستندال Stendhal، الذي ربما كان من بين كل فرنسيي هذا القرن من يملك أغنى عينين وأذنين بالأفكار. هل لأن ستندال كان يملك في العمق الكثير من العناصر الألمانية والانكليزية كي يستطيع أن يتحمله الباريسيون؟ بينما شونفور إنسان غني جداً في أعماقه، وفي خلفيات روحه، كئيب ومتألم ومضطرم، مفكر كان يرى في الضحك علاجاً ضرورياً للحياة ويعتبر النهار ضائعاً إذا لم يضحك فيه، كان يبدو إيطالياً، قريباً لدانتي وليو باردي أكثر منه فرنسياً. نعرف آخر كلمات شونفور لالسييس sieyès. «آه، يا صديقي! أخيراً سأرحل عن هذا العالم حيث على القلب أن ينكسر أو أن يصير من البرونز». إنها بالطبع ليست كلمات فرنسي محتضر.

96 - فصيحين

من بين هذين الخطيبين لا يتوصل أحدهما إلى التعبير عن دوافع قضيته إلا إذا استسلم لهواه: فهواه فقط يجعل ما يكفي من الدماء والحرارة تصل إلى دماغه لتجبر ذكاءه العالي على التجلي. يحاول الآخر بالطبع الطريقة عينها: فإذا كان يسعى من حين لآخر بمساعدة الهوى إلى عرض قضيته بالفم الملآن وبحمية خاطفة فإنه عادة لا ينجح في ذلك. فيجيء خطابه غامضاً وملتبساً، مبالغاً فيه مليء بالثغرات: يوقد الشك في قضيته لدرجة أنه يصير هو نفسه يشكك فيها، وهذا ما يفسر تقلبات نبرته المفاجئة. برودته ولهجته التي تبعدك فجأة عنه وتجعلك تشك فيما تسمع، وفي صدق هواه. هذا الهوى الذي يغمر فجأة عقله؛ ربما لأن هواه أقوى

من هوى الأول. إلا أنه يصل إلى مستوى مقدرته عندما يقاوم الفوران العنيف لحساسيته، بما معناه، عندما يحولها إلى سخرية: عندها فقط يخرج عقله بكامله من مخبأه؛ عقل منطقي ساخر، مداعب، بيد أنه رهيب.

97 ـ في هذر الكُتَّاب

ثمة هذر نتيجة للغضب يكثر عند لوثر وحتى عند شوبنهور. وهذر تغذيه مؤونة وفيرة من صيغ المفاهيم المجردة، كما عند كنط. وهذر يترجم لذة قول الشيء عينه بمئة أسلوب جديد: نجده عند مونتاني، وهذر المخاتلين: وهو ربما يستدعي إسمين لمن يقرأون كتابات عصرنا. وهذر لمجرد لذة الكلمات الخاصة وصيغ البلاغة، وهو ليس بنادر عند غوته. وهذر لمجرد لذة الضجيج وبلبلة المشاعر مثلاً: عند كارليل Carlyle.

98 ـ لمجد شكسبير

إن أجمل ما يمكنني أن أقوله في مجد شكسبير، شكسبير الرجل هو التالي: لقد آمن ببروتس Brutus، ولم يكدر ببذرة من الشك نمط فضيلة بطله. فله كرس أفضل مآسيه ـ التي لا يزال يشار اليها بعنوان خاطئ ـ له ولأرهب مضمون من الأخلاق العالية. استقلالية الروح، . . . هذا هو موضوعها الحقيقي! هنا تهون كل تضحية مهما عظمت! من أجلها علينا أن نعرف أن نضحي بأفضل صديق، ولو كان أروع رجل، زينة العالم، العبقري الذي لا مثيل له ما ان يشكل هذا الصديق خطراً على الحرية، إذا كنا نحب الحرية، أقصد حرية الأرواح العظيمة. هذا ما شعر به شكسبير. تشكل المكانة التي رفع اليها قيصر César أقصى ما يمكن أن يمجد به بروتس Brutus: إن هذه المكانة، وهذه المكانة فقط هي التي بامكانها أن تمنح إشكال بروتس النسب الرهيبة وتمنحه بالتالي، قوة الروح الضرورية لحل العقدة! أو هل كانت الحرية السياسية بحق هي ما يدفع الشاعر إلى مشاطرة بروتس مشاعر الذنب والهوى؟ أو لم تكن الحرية السياسية رمزاً لشيء ما لا يمكن التعبير عنه؟ هل سنلقى أنفسنا في حضرة حادث ما غامض، في مغامرة سرية خاضتها روح الشاعر ولا يريد أن يتكلم عنها إلا بالاشارات؟ ما هي كآبة هاملت بالمقارنة مع كآبة بروتس! ـ هل كان

شكسبير قد جرب الأولى بمقدار تجربته للثانية؟ هل عرف هو أيضاً ساعاته السوداء، ملاكه السيء شأنه شأن بروتس. ولكن ومهما كان من أمر ذلك التشابه وتلك الصلات السرية التي كان يمكن أن توجد بين البطل والشاعر، فإن شكسبير قد خر أمام شخصية بروتس وأمام فضيلته، شاعراً ببعده عنه وبالسخط. هذا ما تشهد عليه مأساته. لقد أظهر في المرتين شاعراً يصب صرخة يدفعها احتقار للذات. بروتس، بروتس نفسه يفقد صبره ما ان يرى الشاعر داخلاً خشبة المسرح، ولع، مؤثر لجوج، كما هي عادة الشعراء، كائنات تبدو منتفخة بامكانيات العظمة، العظمة الأخلاقية، بينما نادراً ما يبلغ في فلسفة الفعل والحياة مستوى النزاهة الأكثر عادية. «إذا كان يعرف زمانه، فأنا أعرف أهواءه... أبعدوا هذا البهلوان!» يصرخ بروتس. فلننقل هذا الكلام إلى روح الشاعر الذي تخيله.

99 ـ مريدي شوبنهور

نلحظ بانتظام عند معاشرة الأمم المتحضرة للبرابرة، أن الحضارة الأدنى تبدأ بتبني آفات وسخافات وشطط الحضارة الأخرى. ثم بعمل السحر هذا، ينتهي البربري، بفضل السخافات والآفات المكتسبة بأن يكتسب صيغة من القيم الحقيقية للحضارة العليا: يمكننا أيضاً أن نلاحظ هذه الظاهرة من دون التوجه إلى البرابرة، في محيطنا المباشر، مع أنها تنتصب أمام أعيننا بطريقة أشد نفاذاً وأشد رمزية وبالتالي أقل بداهة من الأولى. في الحقيقة، ما الذي اعتاد تلامذة شوبنهور في ألمانيا على اقتباسه في البدء من معلمهم. كمريدين عليهم بهذه الصفة أن يجدوا أنفسهم برابرة بالمقارنة مع ثقافته العالية، بقدر يكفي ليفتنوا ويسحروا به بطريقة بربرية. هل هو حسه القاسي بالواقع، إرادته الطيبة التي تحمله على السعي إلى الوضوح وإلى الصواب والتي تجعله يبدو انكليزياً أكثر منه ألمانياً؟ أم هي قوة وعيه التي جعلته يتحمل طيلة حياته التناقض بين الكين والارادة والتي أجبرته حتى في كتاباته، على أن يتناقض مع ذاته من دون توقف وفي كافة النقاط تقريباً؟ أم هو وضوحه في مسائل الكنيسة والاله المسيحي؟ ـ لأنه كان نقياً في ذلك نقاء لم يصل اليه أي فيلسوف ألماني حتى الآن، لدرجة أنه عاش ومات «فولترياً». أم هل هي مذاهبه الخالدة في عقلانية

الحدس، في أسبقية قانون السببية، في العقل كوسيلة، وفي لا ـ حرية الارادة؟ ـ .

لا ، لا شيء من هذا يفتن، ولا يتم الشعور به على أنه فاتن: بل العوائق والمهارب في تلك الأماكن التي ترك مفكر الوقائع نفسه تفتن بها ويفسدها الطموح الباطل بأن يكون من يحل لغز الكون؛ بل عقيدة الارادة الوحيدة التي لا يمكن البرهنة عليها («ليست كل العلل إلا عللاً ظرفية لتظاهر الارادة في هذا الزمان وفي هذا المكان» ـ «ارادة الحياة حاضرة في كل كائن وحتى في أدنى الكائنات، كاملة وغير قابلة للقسمة، كتمام كل ما كان أبداً، وما سيكون وما سيصير، معتبرين في مجملهم» ـ) بل إنكار الفرد «كل الأسود ليست في الاجمال إلا أسداً واحداً». «ليس تعدد الافراد إلا ظاهراً»، كما أن التطور ليس إلا ظاهراً: ينعت شوبنهور مذهب لامارك بـ «الخطأ العبقري والاخرق»، بل التمجيد المتحمس للعبقري «في الحدس الجمالي لا يعود الفرد فرداً، بل ذاتاً عارفة محضة. ذاتاً لا ـ زمنية، من دون إرادة ولا ألم». «لقد صارت الذات بذوبانها في موضوع حدسها ذلك الموضوع بالذات». بل مفهوم الشفقة الأخرق، وتصدع مبدأ الفردية الذي صار ممكناً به، بصفته منبع كل أخلاقية؛ من دون أن ننسى مثل تلك التأكيدات: «الموت في العمق، هو هدف الحياة» «لا يمكن أن ننكر قبلياً على الاطلاق امكانية التأثير السحري النابع من المتوفي». شطط وآفات من هذا النوع وأخرى تشبهها للفيلسوف هي ما يتم تبنيه في المقام الأول دائماً: إن الهذيان والآفات هي في الواقع أسهل ما يمكن تقليده ولا تتطلب تمريناً طويلاً. لكن لن نتكلم هنا إلا عن أشهر الشوبنهوريين ممن لا يزالون على قيد الحياة: ريشارد ڤاغنر. لقد حصل له ما حصل لأكثر من فنان: لقد أخطأ في تأويل الشخصيات التي ابتدعها، ولم يقدر الفلسفة الضمنية لفنه الأكثر خصوصية. لقد ترك ريشارد ڤاغنر نفسه، وحتى منتصف حياته، تتوه بهيغل؛ واقترف الخطأ نفسه فيما بعد، عندما اعتقد أنه قد أحل في شخصياته العقيدة الشوبنهورية، وبدأ يصوغ نفسه بمفاهيم «إرادة» و«عبقرية» و«شفقة»، ومع ذلك يبقى صحيحاً أن لا شيء يناقض عقلية شوبنهور إلا ما هو ڤاغنري حصراً في أبطال ڤاغنر ـ أقصد بذلك براءتهم

في أسمى حبهم لذاتهم، إيمانهم في أن الهوى العظيم هو الخير في ذاته، بكلمة طبع سيغفريد في سحنة أبطاله. «كل ذلك يشبه سبينوزا أكثر مما يشبهني أنا» قد يقول شوبنهور. كان ڤاغنر سيجد إذاً أسباباً وجيهة تدعوه لينتسب إلى فلاسفة آخرين بدلاً من شوبنهور وحده: لقد جعله السحر الذي خضع له فيما يخص هذا المفكر، أعمى ليس فقط في شأن كل الفلاسفة الآخرين، بل في شأن العلم نفسه؛ ولم يتوقف فنه عن الادعاء بأنه أكثر فأكثر يشكل الند والمكمل لفلسفة شوبنهور، ليتخلى بصراحة أكثر فأكثر عن الطموح الأعلى بأن يكون الند والمكمل للمعرفة والعلم البشريين، لم يفتن ڤاغنر ببهاء هذه الفلسفة الصوفية قط والتي كان بامكانها أن تفتن كاغليوسترو: كلا، فوضعيات وأهواء الفلاسفة تمارس أيضاً سحرها على الدوام: بناء عليه فإن حماس ڤاغنر ضد فساد اللغة الألمانية هو شوبنهوري، ومع ذلك فعندما نؤكد تقليده لهذا الفيلسوف فإنه لا يمكن الصمت عن أن أسلوب ڤاغنر نفسه يشكو من تلك الأورام والقروح التي تثير رؤيتها غضب شوبنهور بشدة؛ كما أنه لا يمكن أن ننسى ما يخص الڤاغنريين الذين يكتبون باللغة الألمانية، أن الهوس الڤاغنري قد بدأ يظهر بطريقة يوازي خطرها الخطر الذي شكله الهوس الهيغيلي. شوبنهوري أيضاً كره ڤاغنر لليهود، الذي لم يعرف أن يقر لهم بأعظم ما قاموا به: أليس اليهود من أوجد المسيحية؟ شوبنهورية، مرة أخرى، محاولة ڤاغنر اعتبار المسيحية كحبة طائشة من البوذية، وتحضير أوروبا لمرحلة بوذية، بواسطة تقارب مؤقت مع الصيغ والمشاعر المسيحية - الكاثوليكية. شوبنهوري أيضاً، وعظ ڤاغنر في الشفقة، في التعامل مع الحيوانات؛ حيث كان ڤولتير، كما نعلم، سباقاً على شوبنهور، بمقدار ما كان شأنه في ذلك شأن أخلافه، يخفي في شفقته على الحيوانات كرهاً لبعض الأشياء ولبعض الأشخاص. إن كره العلم في كل حال، الناتج عن مواعظ ڤاغنر لا توحي به على الاطلاق ذهنية الرحمة والطيبة ولا حتى، وهذا أمر بديهي، الذهن في معناه المطلق. وفي النهاية قلما تهم فلسفة فنان ما أن تكون مجرد ملحق، ولا تصيب فنه بأي أذى. لا نجيد كثيراً الامتناع عن ملامة فنان لتنكر ظرفي، قد يكون سيئاً جداً وكثير الادعاء، علينا أن لا ننسى أن أعزائنا الفنانين، يلعبون دائماً ملهاة ما. وانه لا يمكنهم ألا يقوموا بذلك،

فبدونه لا يمكنهم على مر الأيام أن يتحملوا الوجود. لنبقى أوفياء لڤاغنر في كل ما له من حقيقي وأصيل. وذلك بوفائنا لما لدينا من حقيقي وأصيل، لنسمح له بمزاجه وبتشنجاته الفكرية، ولنقيّم بانصاف الأغذية والحاجات الفريدة التي يحق لفنه المطالبة بها لكي يحيا ويكبر. فإنه لأمر قليل الأهمية بأن يكون قد أخطأ غالباً بصفته مفكراً، فلا العدالة ولا الصبر شغله الشاغل. يكفي أنه كان لحياته حق، وأنه لا يزال لها هذا الحق بنظره: هذه الحياة التي تصرخ في كل واحد منا: «كن رجلاً، ولا تتبعني أبداً ـ لا تتبع غير ذاتك، ذاتها». ونحن أيضاً علينا أن نملك حياة لها حق أمام أنفسنا! نحن أيضاً علينا أن نكون أحراراً وبدون خوف ننمو ونزدهر في براءة أنا ـ نا! كما أنني عندما أفكر في هذا الرجل، اليوم كما بالأمس، ترن كلماته هذه في أذني: «الهوى أفضل من الرواقية والتصنع، وصدق الطوية حتى في الشر أفضل من ضياع الذات في أخلاقية العادات، بامكان الرجل الحر أن يكون طيباً بمقدار ما يكون خبيثاً، لكن الرجل الذليل هو إهانة للطبيعة، ولا يملك أي تعزية في أي مكان سماوي كان أم أرضي، أخيراً إن من يريد أن يكون حراً عليه أن يصيره بذاته، فالحرية لم تهبط لأي شخص من السماء كهبة أعجوبية» (ريشارد ڤاغنر بابيرت II 493).

100 ـ تعلم التكريم

على الناس أن يتعلموا التكريم بمقدار ما عليهم أن يتعلموا الاحتقار. فكل من ينخرط في سبل جديدة قائداً اليها حشد من البشر، يكتشف بذهول خرق وبؤس هذا الحشد في إقراره بالجميل، أسوأ من ذلك ما أندر أن يتـ التوصل إلى التعبير عنه فقط. يبدو أنه ما ان يسعى الاقرار بالجميل إلى أ، يتكلم كلاماً مسموعاً حتى يأتي شيء ما يمسكه من خناقه؛ فلا يعود بامكانه إلا أن يتنحنح، ويضيع كلامه في السعال. يكاد يكون من المضحك رؤية الطريقة التي يتعرف فيها مفكر على انعكاسات تفكيره، وعلى التأثير الذي تحدثه صدمته وقوته المحولة. يبدو أحياناً أن الذين خضعوا لتأثيره يشعرون في أعماقهم بالاهانة وبالخوف من أن يكونوا قد ضيعوا استقلاليتهم فلا يعرفوا كيف يعبروا عنه إلا بسفاهات من كل نوع. علينا أن ننتظر أجيالاً عديدة حتى يتم التوصل إلى ميثاق للإقرار بالجميل، قبل أن تأتي اللحظة

المتأخرة التي يكون فيها قد نفذ إلى الاقرار بالجميل نوع من الذكاء والعبقرية. في تلك اللحظة أيضاً سنجد عادة أحداً ما مقدراً له أن يكون الجامع الأكبر للإقرار بالجميل، ليس فقط لما قام به بنفسه بل على الأغلب لما راكمه أسلافه شيئاً فشيئاً، ككنز لكل ما هو سام وممتاز.

101 ـ ڤولتير

في كل مكان وجدت فيه حياة بلاط، فرضت هذه الحياة قانون اللغة النبيلة، وبهذه الحيثية فرضت أيضاً الأسلوب على كل الذين يكتبون. إلا أن لغة البلاط هي لغة المتملق الذي لا يملك أي إختصاص، والذي يمتنع حتى في أحاديثه حول الأسئلة العلمية عن كل العبارات التقنية لأنها تعبق بالمهنة بافراط؛ لهذا فإنه في كل البلاد التي سيطرت فيها ثقافة البلاط يعتبر استخدام التعابير التقنية انتهاكاً للاسلوب. والآن ولما لم تعد كافة البلاطات سوى صور هزلية لما كانت عليه فيما مضى، يدهشنا أن نجد ڤولتير بنفسه قد أفرط في احتراسه وكان حازماً في هذا الشأن (مثلاً في الحكم الذي يوجهه نحو كتاب البيان شأن فونتنل Fontenelle ومونتسكيو Montesquieu). ذلك أننا قد تحررنا كلنا اليوم من ذوق البلاط، بينما يمثل ڤولتير تعبيره الأشد كمالاً!

102 ـ كلمة لعلماء اللغة

إن التأكيد الدائم بأن هناك كتب قيمة وملكية لدرجة أن أجيالاً من العلماء تكون قد قامت بمهمتها على أكمل وجه، ما ان تكون قد حفظت بجهودها هذه الكتب بنصوصها ومعانيها. هذه هي علة وجود علم اللغة. فهو يفترض دائماً وجود هؤلاء الرجال النادرين (مع أنه لا يتم تمييزهم في الحال) الذين يعرفون حقاً استعمال هذه الكتب القيمة ـ لا شك أنهم أولئك الذين يصنعون والذين يعرفون بأنفسهم صناعة مثل هذه الكتب. أقصد أن علم اللغة يفترض اعتقاداً نبيلاً ـ وللمعرفة أنه لصالح بضعة رجال نادرين «سيأتون» دائماً وليسوا هنا على الاطلاق، ثمة كمية كبيرة من الشقاء وحتى من العمل الوسخ يجب أن تبذل في البدء ـ هذا كله يشكل شغلاً in usum Delphinorum (في خدمة الدلافين).

103 ـ في الموسيقى الألمانية

إن الموسيقى الألمانية اليوم، أكثر من أي موسيقى أخرى، هي الموسيقى الأوروبية بحصر المعنى لأنها الوحيدة التي بيَّنت الانقلاب الذي لحق بأوروبا من جراء الثورة. وحدهم المؤلفون الألمان يعرفون أن يعبروا عن هرج الحشود الشعبية بهذا الضجيج اللامتناهي والمصطنع والذي لا يحتاج إلى أن يكون قوياً بافراط ليفعل فعله. بينما لا تعرف الأوبرا الايطالية مثلاً، سوى كورس الخدم أو كورس الجنود، وتجهل كورس «الشعب». لنضيف أن كل موسيقى ألمانية تفضح غيرة برجوازية عميقة من كل ما هو نبيل وبالأخص في الذهنية واللياقة بصفتهما تعبير عن مجتمع واثق بنفسه وبعادات البلاط القديمة، وبالفروسية. إنها ليست موسيقى «المغني أمام الباب» والتي تقع موقعاً حسناً عند «القاعة» أيضاً وبالأخص عند الملك؛ إنها لا «تلهب» نظر الفرسان ولا تجعل «الحسناوات يغضضن طرفهن». في الموسيقى الالمانية لا تظهر الطلاوة نفسها من دون أن تستتبع الندم: فقط عند التقاء الظرف مع الوداعة، الشقيقة الفظة للطلاوة يبدأ الألماني بالشعور بأنه أخلاقي أكثر فأكثر حتى يصل إلى قمة تساميه المتحمس، العليم، السوداوي، تسامي بيتهوفن. وإذا أردنا أن نصور رجل هذه الموسيقى، والحال، فلنفكر بالضبط ببيتهوفن، كما يبدو إلى جانب غوته خلال لقائهما مثلاً في تبليتز Teplitz. إنه نصف ـ البربرية قرب الحضارة، الشعب قرب النبالة، الرجل ذو الميول الفطرية الطيبة قرب رج عنده أكثر من «الطيبة»، غريب الأطوار إلى جانب الفنان، الرجل الذي يحتاج إلى تعزية قرءب الرجل المُعزَّى، بصفة المبالغ الشكيك قرب الرجل العادل، صياد اليرقانات وجلاد نفسه، المجنون النشوان التعيس، بصفاء رجل الاخلاص من دون حد، المتعجرف والبليد، باختصار وبالاجمال «الرجل غير المروض» هكذا كان غوته نفسه يشعر به ويعرّفه، غوته الألماني الاستثنائي، الذي لم توجد بعد موسيقى من أجله، موسيقى ذات وقار يوازيه! لنتساءل أخيراً إذا لم يكن احتقار الألمان وسقم الحس اللحني الذي يتنامى أكثر فأكثر عندهم ليس إلا فظاظة ديموقراطية، ردة فعل للثورة، وفي الواقع يؤكد اللحن على لذة صريحة لحكم القاعدة وعلى نفور لكل ما هو غير مكتمل وغير متشكل وعبثي، ندرك فيه صدى نظام حقائق

أوروبية قديمة واغراءً قادراً على إعادتنا إلى ذلك النظام.

104 ـ في نبرة اللغة الألمانية

نعرف منشأ الألمانية التي تشكل منذ بضعة قرون اللغة الألمانية المكتوبة. إن الألمان باحترامهم لكل ما كان يأتي من البلاط، قد سارعوا إلى انتحال أسلوب المستشاريات كنموذج لكل ما كان عليهم أن يكتبوه، وبالأخص في مراسلاتهم واجراءاتهم الرسمية ووصياتهم، وأشياء أخرى من النوع عينه. إن الكتابة بأسلوب المستشارية يعني الكتابة وفق ذهنية البلاط والحكومة ـ وكان في ذلك تمييزاً عن ألمانية العوام المتبادلة في المدينة حيث يتم العيش عادة. شيئاً فشيئاً دافعين هذا المنطق إلى أقصاه، صار يتم تبادل الكلام كما يكتب ـ وعلى هذا الحو صار يُجدّ في إظهار التمييز في تشكيل واختيار الكلمات وصياغة الجمل لينتهي الأمر إلى النبرة أيضاً: فكانت نبرة الكلام تصطنع على نبرة البلاط. وصار هذا التصنع طبيعة ثانية. ربما لم يحصل أي أمر مماثل في أي مكان آخر: سيطرة الأسلوب على اللغة المحكية ونزوع شعب بكامله نحو الزخرف والتصنع كقاعدة للغة العامة، متحررة من فروقات اللهجات المحلية. أعتقد أن لهجة اللغة الألمانية في مرحلة العصور الوسطى وحتى فيما بعد ذلك، كانت في العمق قروية وفظة: ولقد هذبت هذه اللهجة قليلا خلال القرون الأخيرة؛ وبالأخص بفعل الاضطرار إلى تقليد عدد كبير من الاصوات الفرنسية والايطالية والاسبانية، وبالتحديد من قبل النبالة الألمانية (والنمساوية) التي لم يكن بامكانها على الاطلاق أن تكتفي باللغة الأم. إلا أنه على الرغم من هذا النوع من التمرين، احتفظت الألمانية بصوت مبتذل لا تستطيع أذنا مونتاني أو حتى راسين Racine أن تتحمله؛ وحتى اليوم لا تزال اللغة الألمانية في أفواه المسافرين الألمان وسط العامة الايطاليين ترن دائماً بطريقة فجة وبحوحة، تذكر برجل الغابات، والغرف المدخنة والاصقاع ذات العادات الفظة. والحال فإني ألحظ أنه ينتشر في الوقت الحاضر وسط المعجبين القدامى بالمستشاريات ميل مماثل للتمييز في النبرة وان الألمان قد بدأوا يخضعون «السحر» نبرة غريبة تماماً ويمكنها على مر الأيام أن تصير خطراً حقيقياً على اللغة الألمانية ـ لأنه عبثاً نبحث في أوروبا عن

أصوات أشد كرهاً من ذلك. ثمة شيء مزدر، بارد ولا مبال ومتوانٍ في الصوت: هذا ما يبدو «انه يميز» الألمان اليوم ـ وأتبين الحماسة لهذا النوع من التمييز في أصوات موظفي ومعلمي ونساء وتجار جيل الشباب؛ حتى الفتيات الصغيرات صرن في الأصل يقلدن هذا «الضابط الألماني» لأن هذا الضابط، البروسي بالأخص، هو مبتكر هذه النبرة، هذا الضابط نفسه هو الذي يُظهر، بصفته عسكرياً ورجل مهنة، هذا الحس المتواضع الجدير بالاعجاب والذي على كل الألمان أن يأخذوه مثلاً (بما في ذلك الاساتذة والموسيقيين الألمان!) إلا أنه ما ان يبدأ بالكلام أو بالتحرك حتى يصير مباشرة أقل الأشخاص تواضعاً في أوروبا القديمة وأكثرهم تجرداً من الذوق، كل ذلك في غفلة تامة عنه من دون أي شك! في غفلة أيضاً عن الألمان الشجعان الذين ينظرون اليه بعيون شاخصة على أنه رجل أفضل مجتمع ورجل الطبقة الأكثر تمييزاً، ويتلمسون «أن يمنحهم نبرته» وهذا ما يقوم به أيضاً ـ ابتداء من الرقيب والملازم اللذين يقلدانه بفظاظة أكبر. يكفي أن نعير آذاننا للأوامر التي تلف الآن المدن الألمانية بصراخ حقيقي، والتمارين التي تقام أمام أبواب كل المدن: أي عنجهية أي هيجان للسلطة، أي سخرية باردة في هذا الصياح! هل الألمان هم شعب موسيقي بحق؟ ـ الأكيد أنهم في الوقت الحاضر يعسكرون صوت لغتهم: ومن المحتمل أن ينتهوا كونهم منجذبون إلى عسكرة كلامهم، إلى الكتابة بالطريقة العسكرية عينها أيضاً. لأن اعتياد بعض الأصوات ينفذ عميقاً في الطبع: فنحصل عن قريب على كلمات وصيغ وأخيراً على أفكار خاصة بهذا النوع من الأصوات! ربما يُكتب منذ اليوم بأسلوب «الضباط»، ربما قراءتي قليلة جداً فيما يكتب اليوم في ألمانيا. لكن هناك نقطة لا أجيد أفضل منها: إن الظاهرات الألمانية التي يتلقى الخارج صداها، ليست من وحي الموسيقى الألمانية، بل من هذه النبرة الجديدة للعنجهية المخالفة للذوق الحسن. في كل خطاب لرجل الدولة الألمانية الأول ثمة لهجة، حتى عندما تسمع من خلال مكبر صوته الامبريالي، تجرح آذان الغريب، الذي ينبذها باندفاع: إلا أن الألمان يتحملونها ـ إنهم يتحملون أنفسهم.

105 ـ الألمان بصفتهم فنانين

عندما يحدث أن يقع الألماني بحق فريسة للهوى، (وليس فقط كما هي العادة، نتيجة لارادة طيبة في الهوى) فإنه يتصرف كما يجب أن يتصرف، من دون أن يعير أي انتباه لسلوكه. والحقيقة تجبرني على القول أن هذا السلوك بشع للغاية وأخرق، شبيه بأغنية من دون أي لحن أو وزن؛ لدرجة أنه إما أن يتضايق المشاهدون أو أن ينفعلوا ولا شيء غير ذلك: ـ إلا إذا ارتفع حتى التسامي والانجذاب، وهذا ما يقدر عليه عدد من الأهواء. عندها فقط حتى الألماني يصير جميلاً! إن المقدرة على استكشاف الارتفاع الذي يقبل فيه الجمال أن يغدق سحره حتى على الألمان، يحمل فنانيهم إلى ذلك الارتفاع، إلى أسمى ارتفاع حتى الهذيان في الهوى: إذن ثمة نزوع حقيقي، وعميق لتجاوز البشاعة والخرق، لتأمل عالم أفضل، على الأقل، عالم أرشق وأشد جنوبية وأشمس. ولا تشهد تشنجاتهم على الأغلب عن شيء آخر غير حاجتهم إلى الرقص: هؤلاء الدببة التعساء المسكونين بروح الحوريات وآلهة الغابات السرية، وحتى أحياناً بآلهة أشد سمواً.

106 ـ الموسيقى التي تشفع

قال أحد المجددين لتلميذه: «أتحرَّق لأجد معلماً في فن الأصوات يعرف أن يأخذ أفكاري ويعبر عنها بلغته الخاصة في المستقبل. هكذا أنفذ بشكل أفضل إلى آذان الرجال وقلوبهم. تسمح الأصوات بجذبهم إلى كل خطأ كما إلى كل حقيقة: إذ، من سيفكر بدحض صوت؟» فقال التلميذ: «تريد أن يتم اعتبارك غير قابل للدحض؟» فأجاب المجدد: «أحب أن أرى البذرة تصير شجرة، ولكي تصير عقيدة ما شجرة يجب تصديقها في البدء. ان تعتبر غير قابلة للدحض. فالعاصفة والشك والدود والخبث تجرب الشجرة لكي تكشف نوع بذرتها وقوتها؛ فإذا انكسرت فإنها لا تكون قوية بما فيه الكفاية! أما فيما يخص البذرة، فإنها لا يمكنها إلا أن تفنى. لا أن تدحض!». وعندما قال ذلك صرخ التلميذ بحدة: «لكني، أنا أؤمن بقضيتك واعتبرها قوية لدرجة أني أجرؤ على قول كل ما يحتمل في قلبي ضدها» ضحك المجدد في نفسه، وهدده بأصبعه وقال: «لا يمكن أن تحصل على

تلميذ أفضل. ولكنهم أخطر التلاميذ، وثمة عقائد كثيرة لا تحتملهم أبداً!».

107 ـ أقصى اعتراف لنا بجميل العلم

لو لم نكن قد ارتضينا بالفنون واخترعنا هذا النمط من عبادة الغلط فإنه لم يكن في مقدورنا أن نتحمل الملكة التي يجلبها لنا العلم الآن في الفهم الكلي لذهنية الغلط والكذب ولفهم الهذيان والغلط كشروط للوجود الفكري والمحسوس. قد يكون الاشمئزاز والانتحار من نتائج النزاهة. والحال فإنه يقابل نزاهتنا قوة توازنها تساعد على تجنب هذه العواقب: الفن بصفته رضى بالظاهر. إننا لا نمنع نظرنا دائماً من أن يدوِّرْ أو ينهي ما نتخيله: فلا نعود مذ ذاك نحمل عدم الكمال الأبدي أبعد من نهر الصيرورة، بل نعتقد أننا نحمل آلهة ونبدو فخورين وطفوليين في إسدائنا هذه الخدمة لها. يمكننا تحمل الوجود بصفته ظاهرة جمالية، وبفضل الفن أعطيت لنا العين واليد وخاصة الضمير المرتاح لكي نستطيع أن نتحول إلى ظاهرة مماثلة. علينا من وقت لآخر أن نرتاح من أنفسنا لصالح الفن الذي يسمح لنا بأن ننظر إلى ذاتنا من أعلى وأن نضحك من أنفسنا أو أن نبكي عليها: علينا أن نكتشف البطل والمهرج المختبئان في هوانا المعرفي، علينا أن نتمتع من وقت لآخر، بجنوننا لنتابع التمتع بحكمتنا! ـ وبالضبط لأننا في العمق رجال ذهن ووقور، لدينا بالأحرى وقار الوزن بدلاً من وقار الرجال، لا شيء يجدي بنا غير قبعة المجنون نحتاجها كعلاج ضد أنفسنا ـ نحتاج لكل الفن النزق المنسدل والراقص والساخر والطفولي والصافي، حتى لا نضيع تلك الحرية التي تضعنا أعلى من كل الأشياء والتي يفرضها مثالنا علينا. سيكون انتكاساً جديداً لنا لو سقطنا كلياً في الأخلاق، بفعل نزاهتنا الحادة، ولو أشبعنا مطالبنا المفرطة، فسننتهي بأن نصبح وحوش وفزاعات الفضيلة. علينا أن نكون قادرين أيضاً على أن نمكث أعلى من الأخلاق: وليس فقط أن نمكث بالصلابة القلقة لذلك الذي يخشى أن ينزلق في كل لحظة ويقع، بل ان نحلق ونلعب فوقها، كيف يمكننا أن نحرم أنفسنا من الفن والجنون؟ وطالما يتملككم خجل من ذاتكم لن تكونوا من أهلنا!

كتاب ثالث

108 ـ صراعات جديدة

مات بوذا، إلا أنهم استمروا ولقرون طويلة يعرضون ظله في كهف؛ ظل عظيم ومخيف. مات الله، ولكن من طبيعة البشر أنه وربما لآلاف السنين سيبقى هناك كهوف تعرض ظله. ونحن بدورنا! علينا أن نقضي على ظله أيضاً!

109 ـ تحذير

لنحذر من أن نفكر أن العالم كائن حي، فبأي إتجاه سيمتد؟ ما الذي بإمكانه أن يغذيه؟ كيف يمكنه أن ينمو ويتكاثر؟ إضافة إلى أننا بالكاد نعرف العضوي: وما نتلمسه على أنه منحرف ونادر وعرضي على القشرة الأرضية، أنمضي إلى أن نجعل منه الأساسي والكوني والأبدي، شأننا في ذلك شأن الذين يسمون كل شيء جهاز عضوي؟ هذا ما يثير اشمئزازي. لنحذر حتى من التفكير أن الكون آلة، فهو لم يبن بالطبع من أجل غاية، إننا نفرط في تكريمه باستعمالنا كلمة «آلة» لنحذر كلياً من أن نفترض شيئاً قبلياً في كل ما يمكن أن نتخيله شيئاً توازي هيئته كمال الحركة الدائرية للكواكب القريبة منا، فبمجرد النظر إلى أم السماء يجعلنا نشك ويوحي لنا بأن هناك الكثير من الحركات الأشد فظاظة وتناقضاً نجوم تهبط أبدياً في خط مستقيم وأشياء أخرى مماثلة. إن النظام الكوني الذي نعيش فيه هو استثناء: إن هذا النظام والديمومة النسبية التي يحددها جعلا بدورهما استثناء الإستثناءات ممكناً: التشكل العضوي. وبالمقابل فإن طابع العالم

الاجمالي هو ومنذ الأزل الخواء، وذلك ليس لغياب الضرورة بل لغياب النظام والتمفصل والشك والجمال والحكمة، وأيّاً كانت مقولاتنا الجمالية البشرية. من وجهة نظر عقلنا تشكل الضربات التعيسة القاعدة إلى أقصى حد ولا تخضع الاستثناءات لأي هدف سري، والمعمل الميكانيكي يردد أبداً عالمه الذي لا يستحق إطلاقاً إسم «لحن»... وفي النهاية، فإن عبارة «ضربة تعيسة» نفسها ليست إلا تشبيهاً بشرياً يستلزم الملامة. والحالة هذه كيف يمكننا أن نلوم أو نمدح الكل! لنحذر من أن نعنفه لقلة رحمته أو عقله أو نقيضها: إنه ليس كاملاً ولا جميلاً ولا نبيلاً ولا يريد أن يكون شيئاً من هذا القبيل، إنه لا يطمح إطلاقاً إلى تقليد الانسان! لا تصيبه اطلاقاً أي من أحكامنا الجمالية أو الأخلاقية! كما أنه لا يملك غريزة الحفاظ على الذات ولا يملك اندفاعات إطلاقاً: إنه لا يعرف أي قانون. لنحذر أن نقول أن هناك قوانين في الطبيعة. ليس هناك إلا الضرورات: لا أحد يأمر هناك ولا أحد يطيع ولا أحد يتعدى. ما ان تعرفوا أنه لا يوجد هدف البتة حتى تعرفون أن الصدفة لا توجد إطلاقاً. ذلك أنه فقط بنظر عالم من الغايات يصير لكلمة الصدفة معنى. لنحذر أن نقول أن الموت نقيض للحياة. فالحي ليس إلا نوعاً من الميت، ونوع نادر جداً. لنحذر من التفكير بأن العالم يخلق دائماً الجديد، فليس هناك إطلاقاً من جوهر باقٍ باستمرار، فالمادة خطأ بمقدار خطأ القول بآلهة الايليين. متى سننتهي إذن من حذرنا ومن جهودنا؟ متى ستتوقف ظلال كل هؤلاء الآلهة عن إعمائنا؟ متى سنكون قد توقفنا عن تأليه الطبيعة؟ متى سيسمح لنا بأن نتآلف، نحن الرجال مع الطبيعة الصافية، المكتشفة حديثاً المتحررة حديثاً.

110 ـ أصل المعرفة

خلال فترات جسيمة من الزمن لم ينجب الفكر إلا أخطاء ظهر أن البعض منها نافع لحفظ النوع: فكل من كان يتبناها أو يرثها كان قادراً على الانخراط في معركة مع حظ أوفر بالنجاح له ولخلفه. من هذه الاخطاء التي لم يتوقف تناقلها وراثياً على أنها عقائد راسخة، لدرجة شكلت معها العمق المشترك للنوع البشري، هناك مثلاً: أشياء ثابتة، أشياء مماثلة، وان أشياء ومواداً وأجساماً موجودة فعلياً، وإن الشيء هو ما يبدو عليه، وان

مشيئتنا حرة، وان ما هو طيب لي هو طيب في ذاته. ولم يُكتشف إلا في وقت متأخر أن الحقيقة هي الشكل الأقل ضرورة للمعرفة. كان يبدو أنه لا يمكن العيش مع هذه الحقيقة؛ وان جهازنا العضوي قد تشكل لمناقضتها: فكل وظائفه العليا وادراكاته الحسية وكل أحاسيسه تعمل طبقاً للأخطاء القديمة المتأصلة. أكثر من ذلك لقد صارت هذه القضايا القديمة حتى داخل المعرفة، المعايير التي يقوَّم بواسطتها «الصحيح» و«غير الصحيح» حتى في نواحي المنطق الصرف القصيَّة. إذن لا تكمن قوة المعرفة في درجة حقيقتها، بل في درجة قدمها، في تمثلها الاشد أو الأقل تقدماً، في طابعها كشرط للحياة. عندما كان يبدو أن الحياة والمعرفة يتعارضان، لم يكن هناك إطلاقاً من صراع جدي؛ فالشك والانكار كانا يعتبران جنوناً. لقد تخيل مفكرون استثنائيون، شأن الايليين، الذين وطدوا مع ذلك وأرسوا تناقضات الاخطاء الطبيعية، انه من الممكن العيش أيضاً مع هذه التناقضات: فاخترعوا الحكيم على أنه رجل الثبات، عديم الشخصية، رجل الحدس الكلي الواحد والشامل في الوقت عينه المتمتع بملكة خاصة لهذ المعرفة المنعكسة: لقد صدقوا أن معرفتهم هي في الوقت عينه مبدأ الحياة؛ إلا أنهم لكي يستطيعوا أن يؤكدوا ذلك، كان عليهم أن يتوهموا وضعهم الخاص: لقد كان عليهم أن يبتكروا انعدام الشخصية، والديمومة والمدَّة غير المتغيرة، وأن يسيئوا معرفة طبيعة ذات العارف وأن ينكروا عنف الغرائز في الفعل المعرفي، وأن يتصوروا العقل بشكل عام على أنه نشاط حر كلياً، كأنه ينبثق بذاته، ويرفضون أن يروا أنهم لم يتوصلوا إلى هذه المبادئ إلا بمناقضتهم لما هو موجود، أو أيضاً لحاجاتهم إلى الراحة والتملك أو لحاجتهم إلى السيطرة. ان نمواً أكثر رهافة من النزاهة والشك جعل أخيراً مثل هؤلاء الرجال مستحيلون: لقد ظهر أن حياتهم وأحكامهم تتعلق باندفاعات قديمة وبأخطاء أساسية تتعلق بالأصل بكل وجود حسي. تنمو هذه النزاهة وهذا الشك في كل مكان يبدو فيه ممكناً تطبيق مبدأين متعارضين مع الحياة، لأن الاثنين كانا يتفقان مع الاخطاء الأساسية أي ما معناه، إنه من الممكن مناقشة المبدأين في درجة منفعتهما للوجود؛ وأيضاً في كل مكان تظهر فيه اقتراحات جديدة من دون أن تكون ذات منفعة للحياة، إلا أنها لا تكون ضارة، بصفتها تعبير عن غريزة لللعب الفكري

البريء والمرح شأنها شأن كل لعب. شيئاً فشيئاً يمتلئ المخ البشري بهذا النوع من الأحكام والقناعات وينتج عن تخمر هذا التراكم الصراع والرغبة بالمقدرة، ليس فقط حس المنفعة واللذة، بل كل أنواع الغرائز لعبت دوراً وتحزبت في الصراع من أجل الحقيقة؛ لقد صار الصراع الفكري انشغالاً، سحراً، مهنة، واجباً وشرفاً. وأخيراً يأخذ فعل المعرفة والتوق إلى الصحيح موقعهما كحاجة بين الحاجات الأخرى، مذ ذلك الحين لا يعود الايمان والاقتناع القدرتان الوحيدتان، بل يصير الفحص أيضاً والنفي والتناقض تشكل مقدرة؛ وكل الغرائز «السيئة» تابعة للمعرفة وموضوعة في خدمتها؛ وتكتسب نفوذ الشرعي والمكرم والنافع، وفي الأخير نظر وبراءة الخير. وتصير المعرفة مذ ذاك جزءاً لا يتجزأ من الحياة نفسها وبصفتها حياة، مقدرة لا تتوقف عن النمو: إلى اليوم الذي تنتهي المعارف والأخطاء القديمة الأساسية بأن تتصادمان معاً، الواحدة ضد الأخرى بصفتهما حياة، بصفتهما مقدرة في الرجل المفكر نفسه: حيث يشكل، الكائن الذي تندفع فيه أول معركة بين النزوع الغريزي نحو الحقيقة والاخطاء المحافظة على الحياة، بعد أن تكشف النزوع إلى الحقيقة على أنه بدوره مقدرة محافظة على الحياة. وبالنظر إلى خطورة هذا الصراع يبقى كل شيء آخر سواء بسواء: هذا الصراع يطرح السؤال الأخير حول شرط الحياة وتشكل أول محاولة للرد على هذا السؤال بالتجريب: إلى أي حد تحتمل الحقيقة أن تُستوعب؟ هذا هو السؤال. وهذه هي التجربة التي يجب أن تقام.

111 ـ أصل المنطق

من أين ولد المنطق في العقل البشري؟ لا بد أنه ولد من اللامنطق، الذي كان مجاله بالأصل يفوق كل حد. إلا أن عدداً لا يحصى من الكائنات، والتي كانت تستدل بطريقة مغايرة للطريقة التي نستدل بها اليوم، قد بادت: ويبدو هذا الأمر صحيحاً أكثر مما نعتقد، فمن لم يكن بامكانه، مثلاً، أن يميز بسرعة «النظير» فيما يخص الغذاء أو الحيوانات الخطيرة عليه، من كان يصنف ببطء شديد، ويتحفظ جداً في القيام بذلك، كان لديه أقل حظ ممكن في البقاء على قيد الحياة من ذلك الذي يستنتج مباشرة

الشبيه بين كل أنواع الوقائع المتماثلة. إلا أن الميل المسيطر في اعتبار الشبيه على أنه مطابق، هذا الميل اللامنطقي، في ذاته لأنه، ليس هناك شيئان متماثلان ـ هذا الميل هو الذي قدم قاعدة كل منطق. وعلى النحو عينه، لكي يتولد مفهوم الجوهر، الواجب للمنطق مع أنه لا شيء عيني يتطابق بحصر المعنى معه، كان يجب ولفترة طويلة أن لا يرى أي تغير في الأشياء وأن لا يُشعر به، كان للكائنات التي لا ترى جيداً أسبقية على تلك التي تدرك حسياً «تقلبات» كل شيء. كل تحفظ شديد في الاستنتاج، كل ميل إلى الشك كان يشكل في ذاته خطراً رهيباً على الحياة. لم يكن بامكان أي كائن أن يبقى سالماً، لو كان الميل المناقض للتأكيد بدلاً من تعليق الاحكام، الميل للتسكع والتخيل بدلاً من الانكار، للمقاضاة، بدلاً من الميل إلى الانصاف، لو لم يكن هذا الميل قد استحث بطريقة قوية للغاية. توافق سيرورة الأفكار والاستنتاجات المنطقية في عقلنا الحالي سيرورة صراع اندفاعات هي في ذاتها جائرة ولا منطقية: تدور الآلية القديمة فينا في الوقت الحاضر بطريقة سريعة ومتخفية لدرجة لا نستطيع أبداً أن ندرك معها إلا نتيجة هذا الصراع.

112 ـ العلة والمعلول

نستعمل كلمة «تفسير»؛ ولكن «وصف» هو ما يجدر بنا قوله، لنسمي ما يميزنا عن درجات المعرفة والعلم القديمين. نعرف الوصف بشكل أفضل من السابقين، ونفسر بالندرة نفسها التي كانوا يفسرون فيها، وحيث لم يكن الرجل الباحث الساذج في الحضارات القديمة يرى إلا شيئين «العلة» و«المعلول» كما يقال، لقد اكتشفنا نحن متواليات متعددة، لقد أتممنا صورة الصيرورة، لكننا لم نذهب إلى أبعد من تلك الصورة ولا خلفها. في كل حالة تكون سلسلة «العلل» أكمل بالنسبة لنا، ونستنتج: يجب أن يكون هذا الشيء أو ذاك متقدماً لكي يتبعه ذلك الشيء الآخر، إلا أن ذلك لم يجعلنا نفهم شيئاً أكثر تقدماً. تبدو لنا النوعية في كافة السيرورات الكيميائية كـ «معجزة»، في بدايتها كما في نهايتها، كما تبدو كذلك كل حركة. ما من أحد «فسر» «الصدمة». إذ كيف يمكننا أن نفسر؟ إننا نقيس بواسطة الكميات أشياء غير موجودة، خطوط، مساحات،

أجسام، ذرات، الزمان والمسافات التي تقبل القسمة، كيف يمكن أن توجد حتى امكانية للتفسير عندما نجعل من كل شيء في بادئ الأمر صورة، صورتنا؟ يكفي اعتبار العلم كتأنيس مخلص نسبياً للأشياء؛ إننا بوصفنا للأشياء وتتابعها نتعلم أن نصف أنفسنا بدقة أكثر فأكثر. ربما كانت «العلة» و«المعلول» ثنائية غير موجودة على الاطلاق. إننا نشهد في الحقيقة تواصلاً نعزل بعض أجزاء منه؛ كما أننا لا ندرك إلا نقاط منعزلة من الحركة التي لا نراها في مجملها، بل اننا نفترضها فقط. تضيعنا الغفلة التي تنوب فيها بعض المفاعيل الواحد عند الآخر؛ إلا أن الأمر لا يشكل بالنسبة لنا إلا غفلة. هناك حشد لا متناه من السيرورات تفلت منا في ثانية الغفلة هذه. إن فكراً قادراً على رؤية العلة والمعلول على أنهما تواصل، وليس كما نراهما نحن بصفتهما تقطيعاً تعسفياً، أي أنه قادر على رؤية نهر الاحداث، سينبذ مفهوم العلة والمعلول، وينكر كل إرتباط شرطي.

113 ـ علم السموم

يلزم تلاحم العديد من القوى حتى تتولد فكرة علمية: وكل هذه القوى وُجِبَ اختراع وتمرين وتغذية كل واحدة منها على انفراد! إلا أنها في انعزالها غالباً ما كان لها مفعول مغاير للمفعول الذي تنتجه اليوم في التفكير العلمي حيث تحد وتهذب بعضها البعض: ... لقد فعلت فعلها كأنها سموم: مثل غريزة الشك، وغريزة النفي وغريزة التكثيف، وغريزة التذويب. لقد ضحي بذبائح بشرية قبل أن تتعلم هذه الغرائز فهم تجاورها والشعور بأنها وظائف لقدرة منظمة في نفس الرجل! وكم لا نزال بعيدين عن رؤية انضمام القوى الفنية وحكمة الحياة العملية إلى التفكير العلمي لرؤية تشكل سيستام عضوي أعلى، يظهر فيه العالِم والطبيب والفنان والمشرع كما نعرفهم اليوم، على أنهم رثاث تعيس.

114 ـ غزارة العنصر الأخلاقي

إن الصورة التي نراها للمرة الأولى نرسمها مباشرة بمساعدة كل تجاربنا القديمة، وفي كل مرة تبعاً لدرجة نزاهتنا وإنصافنا. حتى في نطاق الادراك الحسي ليس هناك إلا تجارب أخلاقية معاشة.

115 ـ الأخطاء الأربعة

لقد تربى الإنسان من أخطائه. في المقام الأول لم ير نفسه إلا ناقصاً، ثانياً، عزا إلى نفسه خصائل متخيلة. ثالثاً، لقد شعر أنه في مقام خطأ في تراتبية الكائنات بين الحيوان والطبيعة؛ رابعاً، لم يتوقف عن ابتكار مقاييس أخلاقية جديدة يسلم لفترة من الزمن على أنها أبدية ومطلقة. بحيث أن هذا الدافع الانساني، وتلك الحالة الانسانية كانت تظهر دورياً في المقام الأول مشرفة بهذا التقويم. فإذا تجاهلنا تأثير هذه الأخطاء الأربعة، فإننا نلغي مفاهيم الانسانية و«الكرامة الانسانية».

116 ـ غريزة القطيع

حيثما تلقى أخلاقاً، تلقى تقويماً وتراتبية للاندفاعات الانسانية وأفعالها. تعبر دائماً هذه التقويمات والتراتبية عن الحاجة إلى الجماعة وإلى الحشد: وما ينفعه بالدرجة الأولى ـ كما في .الدرجة الثانية والثالثة ـ يشكل المعيار الأسمى لقيمة كل الأفراد. بواسطة الأخلاق تعلم الفرد أن يكون وظيفة للقطيع، وأن لا يعزو لنفسه أي قيمة إلا على أساس هذه الوظيفة. وبما أن شروط بقاء تجمع تختلف عن شروط بقاء تجمع آخر، نتج عن ذلك تعدد الاخلاق واختلافها الشديد عن بعضها البعض. وإذا ما انتبهنا إلى كل التغيرات الأساسية التي ستتعرض لها القطعان والتجمعات والدول والمجتمعات يمكن التنبؤ بوصول أخلاق مغايرة تماماً. فالأخلاق ليست إلا غريزة التجمع عند الفرد.

117 ـ ندم جماعي

خلال أقدم أزمنة الانسانية وأطولها، كان هناك نوع من الندم يختلف تماماً عن الذي نعرفه اليوم. لا نشعر اليوم بالمسؤولية إلا تجاه ما نريده وما قمنا به، ولا نفخر إلا بما لدينا بذاتنا: ينطلق كل قضاتنا من هذا الشعور باللذة والاكتفاء الذي يجده الفرد في ذاته كما لو كان دائماً أصل الحق. إلا أنه خلال أطول مرحلة من تاريخ البشرية لم يكن هناك من شيء مخيف أكثر من شعور الفرد بأنه منعزل. أن تكون وحيداً، أن تشعر بالعزلة، ألاّ تطيع ولا تطاع، التعبير عن الفرد، هاك ما لم يكن لذة فيما

مضى، بل عقاباً؛ كان يحكم «بالفرد». كانت حرية التفكير تعتبر إنحرافاً في المزاج بامتياز. بينما نحن نعتبر القانون والاندماج على أنهما إكراه وحرمان، فإن الأنانية كانت تعتبر حينذاك أمر شاق، وشقاء حقيقي. أن تكون ذاتك، أن تقيم ذاتك تبعاً لأوزانك ومعاييرك، هذا ما كان فيما مضى يصدم الذوق. فالشعور بهذا الميل يعني الجنون: لأن البقاء وحيداً كان يستتبع كل الشقاء وكل المخاوف. كان «الاختيار الحر» يلازم «الضمير السيء»! كلما تم التصرف بحرية أقل، كلما عبر الفعل عن غريزة التجمع وليس على الاطلاق عن الحرية الشخصية، كلما تم تقييم الذات على أنها أخلاقية. كل ما يسيء إلى القطيع، سواء أراده الفرد أم لم يرده، كان فيما مضى يسببب الندم. ليس للفرد نفسه فقط، بل لجاره، لا بل للقطيع بأكمله! في هذه النقطة بدلنا أحكامنا على أشد ما يكون التبديل.

118 ـ استلطاف

هل هناك من فضيلة لخلية تغير وظائفها بوظائف خلية أقوى؟ لا يمكنها أن تفعل غير ذلك. وهل هناك خبث في الخلية الأقوى عندما تتمثل الأضعف؟ هي أيضاً لا يمكنها أن تفعل غير ذلك. وهكذا فالأمر حتمي بالنسبة لها، لأنها تطمح إلى تعويض وفير وتريد أن تتجدد. على هذا، هناك مجال في الاستلطاف للتمييز: بين غريزة التمثل وغريزة الخضوع (في أن يكون مادة التمثل) تبعاً لما إذا كان القوي أو الضعيف هو من يشعر بالاستلطاف. تتحد اللذة والشهوة عند الأقوى الذي يريد أن يجعل من شيء ما وظيفته: عند الأضعف تتحد اللذة والشهوة بأن يكون وظيفة. تدخل الشفقة أساساً في الحالة الأولى من هاتين الحالتين؛ إنها إنفعال لذيذ لغريزة التمثل التي يوقظها مرأى الأضعف: إضافة إلى أنه علينا أن لا ننسى أن مفهومي «القوي» و«الضعيف» هما أمران نسبيان كلياً.

119 ـ لا غيرية!

ألاحظ عند الكثير من الأشخاص فيضاً من القوة واللذة يدفعهم إلى أن يصيروا وظيفة: لديهم تنسم دقيق لكل المراكز التي يمكنهم هم بالضبط أن يكونوا وظيفتها، فيهرعون إلى تقلدها. ضمن هذه الفئة ترتسم النساء

اللواتي يتحولن إلى وظيفة لرجل تكون هذه الوظيفة ضعيفة النمو عنده. بهذه الحيثية تتحولن إما إلى صريرته، أو سياسته أو حسن معشره. إن أفضل طريقة تحفظ بها هذه الكائنات ذاتها هي في الاندماج بجسم غريب: فإذا لم تنجح في ذلك، فإنها تحتد، وتتهيج وتنتهي بأن تلتهم ذاتها.

120 ـ صحة الروح

من الأجدر لعبارة الطب الأخلاقي الشهيرة (عبارة أرسطون دوشيو Ariston de Chios): «الفضيلة صحة الروح»، لكي تصبح على الأقل صالحة للاستعمال أن تُحول إلى «فضيلتك هي صحة روحك». لأن الصحة في ذاتها لا وجود لها. ولقد فشلت بشكل ذريع كل محاولات تعريفها على هذا الأساس. المهم هنا هو معرفة هدفك، أفقك، قواك، إندفاعاتك، أخطائك وبالأخص نماذج وهوامات روحك، لكي تحدد ما الذي يشكل حتى بالنسبة إلى بدنك حالة صحية. فهناك بالتالي عدد لا يحصى من صحة البدن، وكلما سمحنا للفرد المتفرد بأن يرفع رأسه، كلما نسينا عقيدة «المساواة بين البشر»، كلما وجب على أطبائنا الاستغناء عن مفهوم الصحة العادية، وفي الوقت عينه عن الحمية العادية وعن السيرورة العادية للمرض. عندها فقط يمكن التفكير بصحة ومرض الروح ـ تشخيص الفضيلة الخاصة بكل واحد، مع صحته الخاصة. يبقى أخيراً السؤال الكبير، معرفة إذا كنا نستطيع أن نخلص كلياً من المرض، حتى لننمي فضيلتنا، وإذا كان بالأخص، عطشنا للمعرفة ولمعرفة أنفسنا لا يحتاج إلى روح مريضة بمقدا ما يحتاج إلى روح سليمة: باختصار إذا ما كانت إرادة الصحة لا غي ليست إلا رأياً مسبقاً، جبن وربما بقايا من البربرية الأشد دقة ومن العقلية المتخلفة.

121 ـ الحياة ليست حجة

لقد بنينا عالماً بامكاننا أن نعيش فيه، مفترضين وجود أجسام وخطوط ومساحات وعلل ومعلولات وحركة وسكون وشكل ومضمون: من دون هذه المعتقدات ما من أحد يمكنه في الوقت الحاضر أن يتحمل العيش! إلا أن ذلك لا يشكل برهاناً على هذه المعتقدات. فالحياة، ليست

حجة: لأنه يمكن للخطأ أن يرتسم كشرط من شروط الحياة.

122 ـ الشك الأخلاقي في المسيحية

لقد ساهمت المسيحية نفسها بشكل واسع في «التنوير»: لقد علمت الشك الأخلاقي بكثير من النشاط والفعالية، بالاتهام، ونشر السخط، ولكن أيضاً بكثير من الصبر وبدقة لا كلل فيها: لقد أزالت عند كل فرد الايمان بـ «فضائله» الخاصة؛ وأخفت عن الأرض إلى الأبد كل هؤلاء «الفضلاء» العظام الذين كانت العصور القديمة تزدهر بهم؛ هؤلاء الرجال الشعبيون المفعمون بكمالهم، والذين يتنزهون باعتزاز مصارع الثيران. أما فيما يخصنا نحن تلامذة مدرسة الشك المسيحية، فإننا عندما نقرأ كتب القدماء الأخلاقية، كتب سنيك Sénéque وابكيتت Epictète مثلاً، فإننا لا ننفك نشعر باستعلاء مؤقت ونمتلئ تفهماً ونسيطر على آلاف الأشياء السرية، نعتقد أننا نسمع طفلاً يتكلم أمام شيخ؛ شابة جميلة متحمسة أمام لاروشفوكو La Rochefoucauld : اننا نعرف بشكل أفضل ما هي الفضيلة، إلا أننا في الأخير، مارسنا الشك عينه على حالات الروح على كل الظاهرات الدينية: خطيئة، غفران، ندم، تقديس، وتركنا الدودة تنخر جيداً لدرجة أننا صرنا نشعر اليوم بنفس شعور الرفعة الدقيق، بنفس البصيرة عند قراءتنا لكل كتاب مسيحي: كما أننا نعرف أيضاً المشاعر الدينية بشكل أفضل، لقد حان وقت معرفتها معرفة جيدة، ووصفها بشكل جيد، لأن رجال الايمان القديم الأتقياء، سيختفون هم أيضاً. لننقذ على الأقل صورتهم ونمط معرفتهم.

123 ـ المعرفة أكثر من مجرد وسيلة

حتى من دون هذا الهوى الجديد، أقصد هوى المعرفة، كان العلم سيتقدم: ألم ينمو العلم حتى الآن ويكبر من دون هذا الهوى؟ إن الايمان، وحسن النية في العلم، الرأي المسبق المؤيد الذي يتمتع به العلم، والمسيطر حالياً على دولنا (وكان فيما مضى مسيطراً حتى الكنيسة) يعتمد في الأساس على واقع انه نادراً ما ظهر في العلم هذا الميل الذي لا يقاوم، وأن العلم لا يعتبر أبداً هوى بل بالأحرى شرطاً و«ethos»، ماذا

أقول؟ غالباً ما يكفي الحب ـ اللذة للمعرفة (فضول)، يكفي الحب ـ الضرورة العلم، مع الفكرة المضمرة بالحظوة والأمان المادي، حتى أنه يكفي ألاً يعرف الكثيرون القيام بشيء آخر لتمضية الوقت، إلا أن يقرأوا ويجمعوا ويصنفوا ويلاحظوا ويرووا: إن «ميلهم العلمي» ليس شيئاً آخر إلا مللهم. إن البابا ليون العاشر (في الموجز إلى بروالد Béroalde) قد تغنى في مدح العلم، ونعته كأجمل شرف وأكبر مجد في حياتنا، وأنبل عمل في السراء والضراء، وقال أخيراً: «من دونه، لم يكن لأي مشروع إنساني أن يحظى بدعم متين، مع أنه يبقى أصلاً بذاته متغيراً ومشكوك فيه؟». إلا أن هذا البابا المتشكك بما فيه الكفاية يعرف أن يكتم، شأنه في ذلك شأن كل مقرظي العلم اللاهوتيين، حكمه النهائي. ومهما خيل لنا أنه يضع في كلماته العلم أعلى من الفنون ـ وهذا أمر غريب من صديق مثله لآلهة الشعر ـ وفي آخر الأمر فإنه ليس إلا مجرد مجاملة إذا لم يتكلم عما يضعه أعلى بكثير من كل علم: عن «الحقيقة المنزلة» عن «الخلاص النهائي للروح»، بالمقارنة مع هذا ماذا يشكل له الشرف والفخر والتسلية وأمان الحياة؟ «ليس العلم إلا شيئاً ثانوياً ليس شيئاً نهائياً ولا مطلقاً، ليس شيئاً جديراً بالهوى». سيبقى هذا الحكم قابعاً في أعماق روح ليون: وهذا هو الحكم النهائي للمسيحية على العلم. في القديم كان شرف العلم وشرعيته ينقصان بفعل الأفضلية التي يمنحها أشد المتحمسين له للفضيلة. وكانت المعرفة تُمنح أسمى مديح ما أن تطرى على أنها أفضل وسيلة للفضيلة. والحال، فإنه لأمر جديد في التاريخ، أن المعرفة تريد أن تكون أكثر من مجرد وسيلة.

124 ـ في أفق اللامتناهي

لقد تركنا اليابسة، وصعدنا إلى السفينة! لقد حطمنا الجسور، بل ا د من ذلك، لقد قطعنا الصلة مع اليابسة! والآن أيها المركب الصغير، خذ حذرك! فالمحيط يحيطك: صحيح أنه لا يعوي دائماً، وينبسط أحياناً كالحرير والذهب، كحلم من الطيبة، إلا أنه تأتي ساعات تتحقق فيها أنه لا متناه، وأن لا شيء يخيف أكثر من اللامتناه. آه أيها العصفور الصغير، يا من شعرت بحريتك وتصطدم الآن بقضبان هذا القفص! ما أتعسك لو

أصابك الحنين إلى الوطن، كما لو كان هناك حرية أكبر. بينما لم يعد هناك من «يابسة».

125 ـ الأخرق

ألم تسمعوا بذلك الرجل الأخرق، الذي كان مشعلاً فانوسه في وضح النهار، يركض في ساحة السوق ويصرخ بدون انقطاع! «إني أبحث عن الله! إني أبحث عن الله!» وبما أنه كان هناك حشد من أولئك الذين لا يؤمنون بالله، فقد أثار قهقهة كبيرة؛ فقال أحدهم: هل أضعناه؟ هل تاه كطفل، قال آخر، أم أنه مختبئ في مكان ما؟ هل يخاف منا؟ هل ركب البحر؟ هل هاجر؟ هكذا كانوا يهرجون ويضحكون كلهم في وقت واحد. فوثب الأخرق بينهم، وجحدهم بنظره، وصرخ: «أين الله؟ سأقول لكم! لقد قتلناه ـ أنتم وأنا! نحن، نحن كلنا، قتلته! ولكن كيف فعلنا ذلك؟ كيف أمكننا أن نفرغ البحر؟ من الذي أعطانا الاسفنجة لكي نمحو الأفق بكامله؟ ما الذي فعلناه لنفك هذه الأرض عن شمسها؟ إلى أين تدور الآن؟ إلى أين نمضي نحن أنفسنا؟ بعيداً عن كل هذه الشموس؟ ألسنا نهبط باستمرار؟ إلى الأمام، إلى الخلف، على الجنب، في كل الاتجاهات؟ هل لا يزال هناك أعلى وأسفل؟ ألسنا تائهين كما لو كنَّا عبر عدم لا متناه؟ ألا نشعر بهبوب الفراغ على وجهنا؟ أليس البرد أشد؟ أليس هناك ليل مستمر وليل دامس أكثر فأكثر؟ ألا يجب أن نوقد الفوانيس منذ الصباح؟ ألسنا نسمع أخيراً صخب الحفارين الذين دفنوه؟ ألم نشعر بشيء بعد من التحلل الإلهي؟ لأن الآلهة أيضاً تتحلل؟ لقد مات الله؟ يبقى الله ميتاً! ونحن الذين قتلناه! كيف سنتعزى، نحن قتلة القتلة؟ إن أقدس وأقدر ما كان يملكه العالم قد أراق دمه تحت وطأة سكاكيننا؟ فمن سيغسل هذا الدم عن أيادينا؟ أي مياه ستطهرنا؟ أية احتفالات تكفيرية، أية ألعاب مقدسة علينا أن نبتكرها؟ أليست عظمة هذا الفعل أكبر بكثير منا؟ ألا يجدر بنا أن نصير نحن أنفسنا آلهة لكي نبدو جديرين بهذا الفعل؟ لم يحصل لنا إطلاقاً فعل بهذه الجلالة؟ وكل من سيولد بعدنا سينتمي، بفضل هذا الفعل نفسه، إلى تاريخ أعلى من كل تاريخ وجد حتى الآن؟» هنا صمت الرجل الأخرق عن الكلام، وأمعن النظر من جديد في مستمعيه: هم أيضاً كانوا صامتين،

ينظرون إليه دون أن يفقهوا شيئاً. أخيراً رمى فانوسه بالأرض بقوة هشمته وأطفأته. وقال فيما بعد: «لقد وصلت قبل الأوان بكثير، لم يحن زماني بعد، لا يزال هذا الحدث الرهيب مسافراً على الطريق. لم يصل بعد إلى آذان الرجال، يلزم وقت للصاعقة وللرعد، ويلزم وقت لضوء النجوم، يلزم وقت بعد انجاز الأفعال لكي ترى وتسمع ولا يزال هذا الفعل بعيداً، أبعد من أبعد الكواكب، مع أنهم هم الذين أنجزوه! يحكى أيضاً أن هذا الرجل الأخرق نفسه قد دخل في ذلك اليوم نفسه إلى كنائس مختلفة وصب Requiem aeternam خاصته، مطروداً ومستجوباً، لم يكِنّ عن الاجابة دائماً بنفس الشيء: «ماذا تكون هذه الكنائس إذا لم تكن أضرحة ونصباً مأتمية لله؟».

126 ـ تفسير صوفي

تعتبر التفسيرات الصوفية عميقة: في الحقيقة إنها ليست حتى سطحية.

127 ـ المفعول اللاحق لأقدم تدين

يتصور كل رجل طائش أن الارادة وحدها هي الفاعلة؛ وأن المشيئة شيء معطى صرف، لا تستنتج، وتفهم في ذاتها، يتصور هذا الرجل أنه عندما يقوم بفعل ما، كأن يلطم مثلاً، فإنه هو الذي لطم وأنه قد لطم لأنه أراد القيام بذلك. فهو لا يلحظ أي طابع إشكالي في الظاهرة، فشعور الارادة لا يكفيه فقط لتقبل واقع العلة والمعلول، بل أيضاً ليتصور أنه قد فهم العلاقة بينهما. فهو لا يعرف شيئاً عن آلية الفعل ولا عن مئات الفروقات الدقيقة التي يجب إتمامها قبل الوصول إلى اللطمة، ولا عن عجز الارادة في ذاتها عن تنفيذ حتى أقل جزء من هذا العمل. فالارادة بالنسبة له هي قوة تعمل بطريقة سحرية: إن الاعتقاد بالارادة على أنها علة لمعلولات، يعني الاعتقاد بقوى تفعل سحرياً، وفي الأصل، في كل مكان كان الانسان يرى حادثة تحدث، كان يتقد بوجود إرادة فاعلة، شأنها شأن إرادة الكائنات التي تفعل شخصياً في ما وراء الكواليس، لقد كان مفهوم الميكانيكية غريباً كلياً عنه. ولكن وبما أنه خلال أعظم المراحل طولاً، لم

يعتقد الانسان إلا بوجود أشخاص (وليس بوجود مواد، قوى، أشياء، الخ. . .) صار الاعتقاد بواقع العلة والمعلول اعتقاداً أساسياً لا يزال يطبقه الآن في كل مكان على أي حادث، بطريقة غريزية، كنوع من الوراثة التي ضاع أصلها في غياهب الزمان، تظهر القضيتين «ليس من معلول من دون علة»، «كل معلول يصير علة جديدة»، كتعميم بمبادئ أشد تحديداً بكثير: «حيث يكون عمل تكون إرادة» «لا يمكن التأثير إلا على كائنات فريدة». «ليس هناك من عذاب صرف ومن دون تبعات فعل، بل ان كل عذاب هو إنفعال للارادة» (إرادة التأثير، الانتقام، الدفاع، النميمة). إلا أنه في بدء الزمان البشري، لم يكن هذا النوع من الفرضيات متطابقاً، لم تكن الفرضيات الأولى تصميماً للثانية، بل ان الثانية كانت تأويلاً للفرضيات الأولى. لقد بايع شوبنهور بقبوله أن كل ما هو كائن ليس إلا إرادة أسطورة قديمة؛ يبدو أنه لم يحاول إطلاقاً أن يحلل الارادة، لأنه، مثله مثل كل واحد، كان يعتقد ببساطة وبفورية كل مشيئة ـ بينما ليست المشيئة إلا تركيباً مركباً بدقة لدرجة تكاد لا يدركه نظر المراقب. بمقابل فرضيات شوبنهور، أضع الفرضيات التالية: أولاً لكي تتشكل إرادة، يجب أن يكون هناك تصور للذة وعدم اللذة. ثانياً: إن الشعور باثارة عنيفة على أنها لذة أو كدر يرجع إلى التأويل الفكري، الذي يعمل فينا، في أغلب الأحيان من دون شك، بطريقة لا واعية؛ فيمكن للاثارة عينها أن تؤول على أنها لذة أو كدر. ثالثاً: ليس هناك من لذة وكدر وإرادة إلا عند الكائنات المفكرة وتجهله الغالبية العظمى من الكائنات العضوية.

128 ـ قيمة الصلاة

لقد ابتكرت الصلاة لأولئك البشر العاجزين تماماً عن التفكير لوحدهم، والذين يجهلون سمو الروح أو لا يشعرون بنموها، ما الذي يجب أن يفعله هؤلاء البشر في الأماكن المقدسة وفي كل ظروف الحياة الخطيرة، التي تستوجب الراحة ونوعاً من الوقار؟ حتى يوفروا عليهم الضيق على الأقل، أوصت حكمة كل مؤسسي الأديان، كبيرهم وصغيرهم، بصيغة الصلاة، كعمل طويل وآلي للشفاه، مرتبط بجهد الذاكرة وبوضعية محددة لليدين والقدمين. . . والعين! فليجترون عندها، شأنهم شأن التيبتيين، مرات

لا تحصى: Om mane padme hum أو كما في Benarès يعدون على أصابعهم إسم الاله Ram, Ram, Ram (إلى ما هنالك بهيئة طلية أم لا) أو أن يجلوا ڤينشو أو الله، ذاكرين الأول بالالاف، والثاني بأسماء الجلالة التسعة والتسعين، أو أن يستخدموا طواحين للصلاة أو المسابح الوردية ـ بيت القصيد، أن يضبطهم هذا العمل لبعض الوقت ويمنحهم سحنة يمكن أن تطاق، لقد ابتكر نوع صلاتهم لصالح رجال أتقياء لديهم تجربة حميمة في التفكير والتسامي، وحتى هؤلاء يعرفون لحظات إعياء لا ينفكون يشعرون خلالها بالتأثير الحسن لآلية تقية تتشكل من سلسلة من الكلام والأصوات الجليلة. لكن إذا كان صحيحاً أن هؤلاء الرجال النادرون ـ في كل دين يشكل رجل الدين استثناء ـ يعرفون أن يكتفوا بأنفسهم، يبقى أن فقراء الذهن لا يعرفون بذلك، وأنه بمنعهم من همهمة صلاتهم، يعني حرمانهم من دينهم كما تبرهن عليه البروتستانتية كل يوم أكثر فأكثر؛ ذلك أن الدين لا يطلب من هؤلاء إلا أن يلزموا الهدوء بالأعين والأيدي والسيقان وكل نوع من الأعضاء: وهذا ما يجملهم، على الأقل، لبعض الوقت ويجعلهم أشبه بالإنسان.

129 ـ شروط الله

قال لوثر وبحق: «إن الله بنفسه لم يكن ليدوم لولا الرجال الحكماء» لكن «كان الله سيدوم أقل لولا الخرقاء». هاك ما لم يقله لوثر إطلاقاً!

130 ـ تصميم خطير

إن التصميم المسيحي على اعتبار العالم بشع ورديء قد جعل العالم بشعاً ورديئاً.

131 ـ المسيحية والانتحار

لقد استخدمت المسيحية الرغبة الغريبة في الانتحار التي كانت رائجة في زمن نشأتها لتجعل منها الرافعة بالذات لمقدرتها: وبينما حرَّمت بطريقة رهيبة كل أشكال الانتحار، فإنها لم تترك الا نوعين شرعيين منه، البستهما أسمى شرف وغلفتهما بأسمى الآمال: الاستشهاد، وإماتة المتقشف البطيئة لذاته.

132 ـ ضد المسيحية

منذ الآن لم تعد حججنا هي التي تحكم ضد المسيحية. إنه ذوقنا هو الذي يحكم ضدها.

133 ـ مبدأ

ثمة فرضية حتمية على الانسانية أن ترجع اليها باستمرار، تبدو على طول الزمان أقدر من أعتى أي إيمان بأي شيء غير صحيح (شأن الايمان المسيحي)، على طول الزمان أي ما معناه بعد مئة ألف سنة.

134 ـ المتشائمون بصفتهم ضحايا

في كل مرة يغلب فيها سأم عميق من الحياة عند شعب ما، يكون ذلك نتيجة لحمية خاطئة جداً، أتبعها هذا الشعب لمدة طويلة تبدت نتائجها بهذه الطريقة. وهكذا فإن شيوع البوذية (ولا أقول نشأتها) يعود بجزء كبير منه إلى استهلاك الهنود المفرط والمقتصر تقريباً على الأرز والخمود الناتج عنه. ربما يعود استياء الأوروبيين في الأزمنة الحديثة إلى أن أسلافنا قد أدمنوا في القرون الوسطى المشروب بتأثير الميول الألمانية: إن العصور الوسطى هي أوروبا المسممة بالكحول. الاشمئزاز الألماني هو أساساً ارتخاء شتوي، دون أن ننسى تأثير هواء الأقبية وروائح المواقد، الخاصة بالمساكن الألمانية.

135 ـ أصل الخطيئة

إن الخطيئة كما تنظر إليها المسيحية الآن وفي كل مكان وزمان تحكم أو حكمت فيه لبعض الوقت، هي شعور يهودي، إختراع يهودي، من وجهة نظر هذا المخطط المضمر سعت الأخلاق المسيحية في الواقع إلى «تهويد» العالم. إلى أي حد نجحت بذلك في أوروبا، هذا ما نتحقق منه على أدق ما يكون في درجة الغرابة التي يحتفظ بها دائماً اليونانيون الأقدمون ـ عالم خال من الشعور بالخطيئة ـ بالنسبة إلى حساسيتنا، على الرغم من الارادة الطيبة التي لم تنفك أجيال بأكملها، شأن الكثير من الأفراد الممتازين عن بذلها في سبيل التقارب والتماثل. «لا يغفر الله لك إلا إذا تبت»، هاك ما

يعتبره اليوناني موضوعاً للهزء والعار؛ فهو سيقول: «هذا هو شعور العبيد!». في الواقع تفترض كلمات من هذا النوع كائناً قادراً، كلي القدرة، يستمتع، بالرغم من كل ذلك، بالانتقام. إن مقدرته كبيرة لدرجة أنه لا يمكنه أن يصاب بأي أذى، إذا لم يكن في شرفه. فكل خطيئة هي إهانة للاحترام، جريمة ضد الملك... ولا شيء غير ذلك، التوبة، الفضيحة، والاستذلال، ـ هذه هي أول شروط يمنه وآخرها: فهو يريد إذن إعادة اعتبار لشرفه الإلهي! اما أن تؤذي الخطيئة الآخرين إذا ما كانت تغرس الشر عميقاً ومتزايداً، شأنه شأن وباء ينتشر بين البشر، ويمسكهم ويقتلهم واحداً بعد الآخر، هاك ما لا يبالي به، في سمائه العليا، هذا الشرقي الجشع الحريص على الشرف؛ الخطيئة هي جريمة ضده وليست ضد البشرية! وإذا منح يمنه لأحدهم فإنه يمنحه في الوقت عينه لامبالاته للتبعات الطبيعية للخطيئة. في هذا المفهوم الله والانسانية منعزلين تماماً عن بعضهما البعض، متعارضين لدرجة أنه لا يستطيع، لا يستطيع إطلاقاً أن يخاطر بشرفه ضد الانسانية ـ إذ لا يجب الحكم على أي فعل إلا من وجهة نظر نتائجه المافوق طبيعية، وليس نتائجه الطبيعية: هذا ما يريده الشعور اليهودي الذي يشكل كل ما هو طبيعي بالنسبة له الفاحش في ذاته. وعلى العكس فإن اليونانيين كانوا أقرب إلى التفكير بأنه يمكن للمدنسات أيضاً أن تملك شرفها. حتى السرقة، نظير بروميثوس، حتى ذبح الحيوانات كتعبير عن الغيرة الجنونية نظير أجاكس: لحاجتهم إلى منح المدنسات كرامة، إخترعوا المأساة ـ فن وذوق بقيا غريبين عن اليهودي في أعمق طبيعته، بالرغم من كل مواهبه الشعرية وكل ميله إلى التسامي.

136 ـ الشعب المختار

اليهود الذين يتملكهم الشعور بأنهم الشعب المختار من بين الشعوب، لأنهم يمثلون العبقرية الأخلاقية بينها (بفضل قدرتهم على احتقار الانسان في ذاته احتقار أعمق من أي شعب آخر). يشعر اليهود، عند مواجهة إلههم بمتعة تماثل المتعة التي تشعر بها الارستقراطية الفرنسية عند مواجهة لويس XIV. كانت هذه الارستقراطية قد صارت محتقرة لأنها تركت نفسها تُجرد من مقدرتها ومن سيادتها الخاصة بها؛ وحتى لا تشعر

بذلك، حتى يمكنها أن تنساه، كانت بحاجة إلى جلال وسلطة، وقدرة تامة لا توازى تستطيع وحدها فقط أن تقترب منها. فبارتفاعها تبعاً لهذا الامتياز، إلى مستوى البلاط حيث ترى من هناك كل شيء حقيراً وأدنى منها، كانت تتجاوز كل تهيج لضميرها. وهكذا يتم عمداً تشييد برج المقدرة الملوكية أعلى فأعلى، ويدفع به حتى السحاب مستخدمين بذلك آخر حجارة المقدرة الخاصة.

137 ـ في الرمز

لم يكن من الممكن تصور يسوع المسيح الا وسط منظر يهودي؛ أقصد منظراً مهدداً باستمرار بسحابة مكفهرة وسامية من عواصف غضب يهوة Jehova. هنا فقط كان يمكن اعتبار بريق نادر وفجائي لشعاع الشمس معجزة «الحب»، شعاع يُمن لا يستحق إطلاقاً. هنا فقط كان بإمكان المسيح أن يحلم بقوس قزحه وبسلّمه السماوي الذي سينزل الله عليه نحو البشر؛ في كل مكان آخر كان صفاء الطقس والشمس يشكلان بافراط القاعدة اليومية.

138 ـ خطأ المسيح

لقد كان مؤسس المسيحية يفترض أن لا شيء يؤلم البشر أكثر من خطاياهم، فكان هذا خطأه. خطأ ذلك الذي يشعر أنه من دون خطيئة، من لا يملك تجربة في هذا الموضوع. هكذا كانت نفسه تمتلى. بهذه الشفقة الرائعة والخيالية نحو إثم، كان شعبه بالذات، مخترع الخطيئة، نادراً ما يتألم منه على أنه إثم عظيم. إلا أن المسيحيين قد اتفقوا فيما بعد على صواب معلمهم، وقدسوا خطأه جاعلين منه «حقيقة».

139 ـ لون الأهواء

إن طبائع كطبيعة الحواري بولس ينظرون بعين السوء إلى الاهواء، لا يرون منها إلا الجهة القذرة، ما يشوه ويكسر القلوب؛ يدفعهم تطلعهم المثالي إذن إلى تدميرها: فلا يشعرون بالبراءة منها إلا في حضرة الالهي وعلى النقيض من بولس واليهود كان تطلع اليونانيين المثالي يتجه بالضبط

نحو الأهواء فيحرصون عليها ويشيدون بها ويزينونها ويؤلهوها. وبديهي أنهم لم يكونوا يشعرون فقط أنهم أشد سعادة في الهوى، بل انهم أشد صفاء وأشد ألوهية من العادة. والمسيحيون؟ هل سعوا إلى أن يتهودوا في هذا الموضوع؟ ألم يتهودوا بعد؟

140 ـ مفرط اليهودية

لو شاء الله أن يكون موضوع حب لكان عليه أن يبدأ بأن يتخلى عن دور قاضي العدالة. إن قاضياً، حتى لو كان قاضياً متسامحاً لا يشكل موضوع حب. لم يتمتع مؤسس المسيحية بحذاقة كافية في هذه النقطة، لقد كان يهودياً.

141 ـ شرقي بافراط

ماذا؟ إن إلهاً يحب البشر بشرط أن يؤمنوا به، ويرشق بنظرات رهيبة ومتوعدة كل من لا يؤمن بهذا الحب! ماذا؟ حباً تعاقدياً هو شعور إله كلي القدرة! حباً لم يستطع حتى أن يتجاوز موضوع الشرف والعطش إلى الانتقام! كم هو شرقي كل هذا! «إذا كنت أحبك، هل هذا أمر يعنيك؟» هذا لوحده يكفي لنقد المسيحية بأكملها.

142 ـ تبخير

قال بوذا: « لا تطري من أحسن إليك!» رددوا هذه الحكمة في الكنيسة المسيحية: يصبح الهواء في الحال نقياً من كل ما هو مسيحي.

143 ـ أكبر فائدة لتعدد الآلهة

أن يستطيع الفرد أن يصوغ مثاله الخاص، ويستخلص منه قوانينه، وأفراحه، وحقوقه، هذا ما كان يعتبر حتى الآن من دون شك أفظع ضلال بشري، انه الوثنية بالذات: وبالحقيقة فإن بعض الرجال النادرين الذين تجرأوا على ذلك، كانوا بحاجة دائماً إلى تبرير ذلك لأنفسهم بالذات، في هذه العبارات عموماً: «ليس أنا! ليس أنا! بل اله يعمل من خلالي!» الفن والقوة الرائعة في خلق الآلهة ـ تعدد الآلهة ـ هاك ما كان هذا الدافع يتسلى

بأن يستهلك نفسه، حيث ينقى، يتشرف، يتقن، ذلك أنه لم يكن في الأصل إلا دافعاً سوقياً وغير مرئي، مختلطاً مع الأنانية والعصيان والحسد. كان العداء لهذا الدافع نحو مثال خاص يشكل في سالف الزمان قانون كل الأخلاقيات. لم يكن هناك بالتالي إلا نموذج واحد: الانسان. وكان كل شعب يعتقد أنه يمتلك العينة النهائية. لكن أعلى من الذات، وفي الخارج، فيما وراء الأقاصي، كان يسمح بتخيل عدد كبير من النماذج: ما من إله كان نقيض اله آخر أو يجدف به: هنا ابتدأ، لأول مرة، بتكريم حقوق الأفراد. إن ابتداع الآلهة والأبطال وكل نوع من أنواع الكائنات الانسانية العليا، ما هو على هامش أو ما هو أدنى من البشري والأقزام والجنيات والصنتور والساتير والابالسة والشياطين، كان يشكل التمهيد الذي لا يثمن لتبرير الانانية وسيادة الفرد: إن الحرية التي كان يعترف بها لهذا الإله ضد الالهة الأخرى، انتهى الأمر بمنحها إلى الذات ضد القوانين والتقاليد وضد الجيران. وبالمقابل، ربما كان التوحيد يشكل هذه النتيجة الصارمة لعقيدة الرجل العادي الفريد هذا الايمان باله عادي لا تشكل الآلهة الأخرى بالقرب منه إلا آلهة مزيفة ـ ربما كان يشكل أكبر خطر على الانسانية بأكملها حتى الآن: من هنا كان التهديد بهذا التثبيت السابق لأوانه الذي توصلت اليه، بمقدار ما يمكننا أن نحكم، كافة الحيوانات منذ زمن بعيد. بما هي عليه تؤمن بحيوان عادي فريد بمثال لنوعها تمثلت في دمها ولحمها نهائياً أخلاقية عاداته. نلقى بالأصل في تعدد الآلهة أول صورة لحرية التفكير، ولتعدد أفكار الانسان: إن قوة خلق عيون جديدة وشخصية: لدرجة أن الانسان وحده، من بين كافة الحيوانات، أفلت من رسوخ الآفاق والمنظورات.

144 ـ حروب الأديان

لقد شكلت حرب الأديان حتى الآن أكبر تقدم للعوام: ذلك أنها برهنت أن العوام قد بدأوا يتعاملون مع المفاهيم باحترام، لا تنشأ حروب الأديان إلا إنطلاقاً من اللحظة التي ينتج فيها عن النزاع الأشد دقة بين الطوائف تهذيب للحس المشترك: لدرجة أن الرعاع قد صاروا دقيقين ويعطون أهمية قصوى لأدنى الأشياء، حتى أنهم صاروا يعتبرون أن

الخلاص الأبدي للروح يتعلق بأدنى الفروقات في المفاهيم.

145 ـ خطر النباتيين

يدفع الاستهلاك المفرط للأرز إلى استعمال الأفيون والمخدرات، تماماً كما يدفع استهلاك البطاطا المفرط إلى الكحول؛ إلا أن تأثيره اللاحق الأشد دقة، هو الميل إلى طرق تخديرية في التفكير والشعور، شأن فلاسفة «الهندوس» الذين يجلّون حمية نباتية بحتة، يريدون أن يجعلوا منها شريعة للعامة: فهم يسعون بالتالي إلى أيقاظ وزيادة الحاجة التي بمقدورهم هم وليس الآخرون أن يشبعونها.

146 ـ آمال ألمانية

لا ننسى أنه عادة ما تكون أسماء الشعوب انبازاً (Sobriquets injurieux) . فالتاتار مثلاً، تبعاً لاسمهم، هم «الكلاب» هكذا عمدهم الصينيون. أما الألمان «Die Deutschen»: يعني هذا الاسم بالأصل «الوثنيين»: هذا هو الاسم الذي أطلقه الغوطيون المرتدون على الحشود الغفيرة لأخوانهم من العرق غير المعمد مستندين إلى ترجمتهم السبعينية الخاصة للنسخة اليونانية حيث يطلق على الوثنيين اللفظة الدالة: «الشعوب»، ولنستطلع (ulfilas). ويمكن أيضاً تصور أن الالمان قد استعملوا فيما بعد إسمهم الافترائي كاسم تشريف، وقد صاروا أول شعب مضاد ـ للمسيحية في أوروبا: كان شوبنهور يمجد فيهم امتلاكهم أعلى درجات الاستعداد في هذا المنحى. على هذا المنوال تفضي مآثر لوثر إلى تمامها، الذي يعلمهم أن يكونوا مضادين ـ للرومان وأن يقولوا: «ها أنذا. وليس باستطاعتي غير ذلك!».

147 ـ سؤال وجواب

ما هو أول ما تقتبسه العشائر الهمجية من الأوروبيين؟ الكحول والمسيحية، المخدرات الأوروبية. وما الذي يبيدها بأسرع ما يمكن؟ المخدرات الأوروبية.

148 ـ أين تنشأ الاصلاحات

في زمن الفساد الأكبر، كانت الكنيسة الألمانية الأقل فساداً : وعليه فإن الاصلاح قد نشأ من هناك، وهذا يشكل دليلاً على أنه كان هناك نفور لا يطاق عند أقل بدايات للفساد. وفي الحقيقة لم يكن هناك نسبياً، من شعب أكثر مسيحية من الألمان في عهد لوثر. لقد كانت ثقافتهم المسيحية على أهبة تفتح رائع متعدد التنويعات، كان يلزم ليلة واحدة؛ إلا أن تلك الليلة حملت معها العاصفة التي أودت بكل شيء.

149 ـ فشل الاصلاحات

يعود الشرف إلى حضارة اليونانيين العليا، حتى في مرحلة بدائية نسبياً، في فشل محاولات تأسيس أديان جديدة مرة بعد مرة: انه لمن المشرف لهذه الحضارة أن يكون قد وجد فيها، باكراً جداً، حشداً من الأفراد من نوع متميز جداً، ممن لا تستطيع ضيقتهم ان تحسمها صيغة واحدة من الايمان والأمل. لقد حاول فيثاغورس وأفلاطون وربما أيضاً امبودقليس، وقبلهم بكثير متحمسو اورفيوس، تأسيس أديان جديدة؛ لقد كان أول اثنين ممن أسميناهم يملكان روحين ومواهب أصيلة لمؤسسي الأديان لدرجة لا يمكننا إلا أن نندهش من فشلهما: فهما لم يتوصلا إلى أبعد من خلق مذاهب. في كل مرة تفشل فيها إصلاحات شعب وتتوصل المذاهب فقط إلى تأكيد ذاتها، لا يمكن الاستنتاج إلا أن هذا الشعب مؤلف من عناصر شديدة التنوع وأنه قد بدأ ينحل عن الغرائز الفظة وعن أخلاقية القطيع، حالة انتقالية ذات دلالة بليغة، تحتقر عادة على أنها انحطاط وفساد للتقاليد، بينما هي تعلن نضوج البيضة وقرب تفسخ القشرة. أن يكونُ اصلاح لوثر قد نجح في البلاد الشمالية لهو دليل على أن شمال أوروبا كان متخلفاً عن وسطها وانه لا يزال يعاني من حاجات خاصة بما فيه الكفاية وقليلة الفروقات: لما كان هناك إطلاقاً من تنصير في أوروبا، لو لم تكن الحضارة الجنوبية القديمة قد توحشت شيئاً فشيئاً بفعل التمثل المبالغ به للدم الألماني وأضاعت بهذا الشكل تفوقها الثقافي. كلما رأينا فرداً أو فكر هذا الفرد يفعل بطريقة عامة ومطلقة، كلما لزم الحشد الذي يؤثر عليه أن يكون على نمط واحد ووضيع، بينما على العكس تكشف

حركات المعارضة عن حاجات مناقضة تسعى هي أيضاً إلى أن تشبع ذاتها وإلى أن تؤكدها. وبالمقابل يمكن أن نستنتج دائماً السمو الحقيقي للثقافة، ما ان تفشل طبائع قادرة وجشعة إلى السلطة إلا من ممارسة تأثير طائفي ضيق ومحدود: وهذا ما يصح أيضاً على مختلف مجالات الفن والمعرفة. حيث يحكم فرد واحد، لا يكون هناك إلا الحشود، وحيث هناك حشود تحكم الحاجة إلى الاستسلام إلى العبودية، حيث توجد العبودية لا يكون هناك إلا عدد قليل من الأفراد الذين تكون الغرائز الجماعية والوعي ضدهم.

150 ـ نقد القديسين

هل يلزم لتملك فضيلة ان تريد اقتناءها في شكلها الأكثر فظاظة، كما يريد قديسو المسيحية وكانوا بحاجة إلى امتلاكها؟ على هذا النحو لم يكونوا يتحملون الحياة إلا مع التفكير بأن فضيلتهم ستقود كل واحد إلى العدم. والحال فإني أعتبر بهيمية كل فضيلة تؤثر بهذا الشكل.

151 ـ في أصل الدين

لا تشكل الحاجة الميتافيزيقية، كما يقول شوبنهور أصل الأديان، بل انها ليست الا فرعاً متأخراً منها. التي تعودنا بتأثير هيمنتها على تصور «عالم آخر» (عالم خلقي، سفلي، سامي) لدرجة أن اختفاء الهذيان الديني يجعلنا نعاني من حرمان وفراغ مخيفين ـ ومذ ذاك يعطي الشعور بالقلق ولادة «عالم آخر» جديد، غير أنه ببساطة ميتافيزيقي وليس ديني. أما في الزمن الأول، فإن ما قاد في الأصل إلى قبول «عالم آخر»، لم يكن حاجة ولا دافعاً، بل خطأ في تأويل بعض الظاهرات الطبيعية، إذن، عائق فكري.

152 ـ أكبر تغيير

كم تغيرت إضاءة الأشياء وألوانها كلها! فنحن لم يعد بمقدورنا أن نفهم كلياً كيف كان القدامى يشعرون بالحقائق الأكثر مباشرة والأكثر تواتراً، مثلاً النهار وحالة اليقظة: بما أنهم كانوا يؤمنون بالأحلام، فإن

حياة اليقظة كانت مضاءة بأنوار أخرى. والأمر عينه بالنسبة إلى الحياة بأكملها، مع إنعكاس الموت ودلالته؛ «موت» نا هو موت آخر كلياً. لقد كانت كل تجربة تنشر وميضاً مغايراً تماماً لأن إلهاً كان يشع فيها؛ وكل قرار وكل منظور لمستقبل بعيد: لأنه كان يستند إلى الوحي وإلى تحذيرات سرية وكان يعتقد بالنبوءات. وكان الشعور بالحقيقة يتم بطريقة مختلفة لأنه كان بامكان المعتوه فيما مضى أن يُعتبر جهازها، وهذا ما يثير فينا القشعريرة أو الضحك: وكان كل ظلم يؤثر على الروح بشكل مختلف: لأنه كان يخشى من الانتقام الالهي وليس فقط من العقوبات أو الفضيحة المدنية. ماذا كانت طبيعة الفرح في الزمن الذي كان يعتقد به بالشيطان وبالوسواس! والهوى عندما كنا نرى عيون الشياطين بالمرصاد من حولنا! وماذا كانت طبيعة الفلسفة عندما كان الشك يُعانى منه على أنه أشد ما يخشى من الاثم، وذلك بصفته تجذيف بالنسبة إلى الحب الالهي. بصفته ريبة بالنسبة لكل ما هو طيب، وسام، وصاف، وجدير بالرحمة! لقد أعطينا نحن سحنة جديدة للوقائع، ولا نتوقف عن اعادة طليها، ولكن ما الذي شكلته معرفة الصنعة عندنا حتى اليوم بالمقارنة مع جلالة أسلوب هذا المعلم القديم! أقصد البشرية القديمة.

Homo poeta ـ 153

أنا بنفسي من ألف بطريقة ذاتية محض مأساة المآسي هذه، بالمقدار الذي أُنجزت فيه؛ أنا من عقد العقدة الأخلاقية في الوجود وشددتها لدرجة لا يستطيع إلا الله وحده فكها ـ هاك ما أراده هوراس Horace ـ وها قد نحرت، أنا بنفسي الآلهة كلها في الفصل الرابع ـ أخلاقياً! والحالة هذه، ما الذي سيصير عليه الفصل الخامس؟ حيث يمسك بخاتمة المأساة، هل يجدر بي أن أفكر بخاتمة كوميدية؟؟

154 ـ حياة متنوعة الاخطار

إنكم لا تدركون ما الذي يحصل لكم؟ تركضون كما لو كنتم سكارى من الوجود ، ولو تدهورتم من وقت لآخر إلى أسفل سلم، ولكن وبفضل سكركم، فإنكم لا تلوون عنقكم: فعضلاتكم مفرطة الكلل، ورأسكم مظلم

بافراط، كي تشعرون بقساوة حجر هذه الدرجات! بالنسبة لنا نحن الآخرون، الحياة هي أخطر من ذلك بكثير: أننا من زجاج، فحذار لنا! عند أقل صدمة! سقطة، وينتهي كل شيء!

155 ـ ما ينقصنا

نحن نحب الطبيعة العظيمة، لقد اكتشفناها: ويعود ذلك إلى أنه ليس في رؤوسنا رجال عظام، على عكس اليونانيين: فشعورهم بالطبيعة مغاير كلياً لنا.

156 ـ الأشد تأثيراً

أن يقاوم رجل كل زمنه، وأن يوقفه عند عتبته وأن يجعله يقدم حساباً، ذاك ما يجب أن يؤثر بالضرورة! قلما يهم أراد ذلك أو لم يرده، أن يكون قادراً، تلك هي المسألة.

157 ـ كذب

احترس! ـ إنه يفكر: الآن سيخرج أكذوبة. هذا مستوى من الحضارة بلغته شعوب بأكملها. لنفكر فقط عما كان الرومان يعبرون عنه بفعل: mentiri.

158 ـ خصال شاقة

أن نجد عمق كل شيء، تلك خصلة شاقة: فهي تعمل على تثبيت النظر باستمرار، وننتهي بأن نجد دائماً أكثر مما نرغب.

159 ـ لكل فضيلة زمانها

من يظهر صلابة الآن، غالباً ما تسبب له استقامته الندم، لأن الصلابة من زمن آخر مغاير لزمن الاستقامة.

160 ـ في صلتنا بالفضائل

يحدث أن تنقصنا العزة، وأن نبدي تملقاً نحو فضيلة.

161 ـ إلى هواة الزمن

يسعى تاركاً الرهبنة والسجين الذي أطلق سراحه باستمرار إلى أن ينسق وجهاً: ما يريدانه، هو وجه من دون أي ماضٍ. لكن هل سبق لكم أن التقيتم رجالاً، يعرفون أن المستقبل يضيء جبهتهم، ويكونوا مجاملين لكم، أنتم عشاق الزمن الحاضر، لينسقوا وجهاً من دون مستقبل؟.

162 ـ أنانية

الأنانية هي قانون منظور الروح، فهي تظهر القريب كبيراً وثقيلاً: بينما تفقد كافة الأشياء من كبرها ومن وزنها تبعاً لابتعادها.

163 ـ بعد نصر كبير

إن أفضل مفعول لنصر كبير، هو أنه يحرر المنتصر من الخوف من الانكسار. فهو يقول لنفسه: لماذا لا أهزم مرة واحدة، أنا أيضاً فانٍ، الآن غني بما فيه الكفاية لذلك؟.

164 ـ أولئك الباحثون عن الراحة

أتعرف على العقول التي تبحث عن الراحة من تعدد الأشياء المدلهمة التي يحيطون بها أنفسهم: فمن يريد النوم، يعتم غرفته أو ينزلق في كهف. تنبيه لأولئك الذين يجهلون أشد ما يسعون إليه، ويحبون جداً في أن يعرفوه.

165 ـ سعادة التخلي

إن من يتخلى عن شيء ما كلياً ولمدة طويلة، يعتقد عندما يلتقيه عرضاً بأنه يكاد يكتشفه؛ أي سعادة لا يعرفها كل رجل يكتشف ـ لنكن أشد مكراً من الأفاعي التي تبقى متعرضة لوقت طويل جداً للشمس عينها.

166 ـ دائماً فيما بيننا

كل ما ينتمي إلي، في الطبيعة كما في التاريخ يكلمني، يثني علي، يدفعني إلى الأمام يواسيني: والباقي، لا أسمعه أو إني أنساه في الحال.

إننا لا نبقى دائماً إلا فيما بيننا.

167 ـ كره بشر وحب

لا يقال أبداً أننا شبعنا من الناس إلا عندما لا يعود باستطاعتنا أن نهضمهم، وعندما تكون معدتنا لا تزال شبعى، وليس كره البشر إلا نتيجة لحب مفرط الجشع للبشرية. لـ «آكل لحم البشر» لكن من دفعك أنت، يا أميري هاملت، إلى أن تبتلع الناس كما تبتلع المحار.

168 ـ مريض

«إنه في حالة سيئة! ـ مما يشكو؟ ـ من رغبة جامحة في الاشادة به، لا تجد ما يرويها ـ هذا لا يصدق، فالكل يحتفل به، يطريه، ولا يكتفي بحمله فقط على الأكف، بل ان اسمه على كل الشفاه! ـ إن سمعه ثقيل عندما يتعلق الأمر بالمديح. هل هو صديق من يمدحه، يبدو له أنه يريد أن يمدح نفسه؛ هل هو عدو، فهو يعتقد أن هذا الأخير لا يقوم بذلك إلا سعياً لمديح يحصل عليه لنفسه بالذات؛ وإذا كان أخيراً واحداً من الآخرين من يمدحه ـ إنهم لقلة قليلة، لمقدار عظم شهرته! ـ انه مجروح لأن أحداً لا يريده كصديق أو كعدو؛ وهو غالباً ما يقول: «بماذا يهمني من يدعي أنه لا يزال قادراً على أن يحكم علي بانصاف!»».

169 ـ أعداء صريحين

الشجاعة أمام العدو لهي أمر في ذاته؛ هذا ما لا يمنع بأن تكو هلعاً وأن تكون مفسداً عاجزاً عن القرار، هكذا كان نابليون يحكم على «أشجع رجل» عرفه، مورات Murat . . . من هنا يستنتج أن أعداء صريحين هم ضرورة لبعض الرجال، إذا أراد هؤلاء الارتفاع إلى مستوى فضيلتهم الخاصة، رجولتهم وفرحهم.

170 ـ مع الحشد

لقد تبع حتى الآن الحشد الذي كان مقرظه: إلا أنه يوماً ما سيصير عدوه! فهو يتبعه متصوراً ان كسله يجد فيه حسابه: فهو لم يدرك بعد أن

الحشد ليس كسولاً بالحد الذي يتصوره! وانه يدفع دائماً إلى الامام! وانه لا يسمح لأحد بالتوقف!. . . بينما هو يحب التمادي في التوقف.

171 ـ مجد

عندما يخلو إقرار جمهور كبير بانسان من كل حشمة، حينئذٍ يولد المجد.

172 ـ مفسد للذوق

A ـ «أنت مفسد للذوق هذا ما يردد في كل مكان».

B ـ «بالطبع فأنا أفسد ذوق كل إنسان لحزبه وما من حزب يغفر لي ذلك».

173 ـ العميق والظهور عميقاً

إن من يعرف نفسه عميقاً، يجهد ليكون واضحاً: ومن يريد أن يظهر عميقاً أمام عيون الحشد، يجهد ليكون غامضاً. لأن الحشد يعتبر عميقاً كل ما لا يستطيع أن يرى أسبابه: فهو يخشى الغرق!

174 ـ على انفراد

البرلمانية، أي السماح الرسمي بالاختيار بين خمسة آراء سياسية أساسية، يغري العدد الكبير من أولئك الذين يحبون أن يظهروا مستقلين ومنفردين ويدافعون عن آرائهم. إلا أنه قلما يهم في النهاية أن يفرض على القطيع رأي واحد أو خمسة آراء مسموحة ـ فمن يبتعد عن الخمسة آراء الأساسية، سيجد دائماً القطيع بكامله ضده.

175 ـ فصاحة

من امتلك حتى الآن أشد البلاغة إقناعاً؟ قرع الطبل: وطالما يستطيع الملوك أن يأمروه فإنهم سيبقون أفضل الخطباء والمحرضين للشعوب.

176 ـ رأفة

مساكين الأمراء الحاكمون! لقد تحولت الآن كل حقوقهم فجأة إلى إدعاءات، لن تتأخر بدورها عن أن تظهر على أنها اغتصاب! فليقولوا فقط «نحن» أو «شعبي» حتى تضحك أوروبا بتشنج. فقلما يأبه لهم صاحب تشريفات اليوم؛ ربما يأمر(*) **«Les souverains rangent aux parvenus»**

177 ـ من أجل «النسق التربوي»

ينقص الرجل الأعلى في ألمانيا وسيلة تربوية كبرى: قهقهة رجال الأعالي؛ الرجل الأعلى الرجل الأعلى في ألمانيا لا يضحك.

178 ـ من أجل التحرر الأخلاقي

يجب تحرير الألمان من معاشرة، مفيستوا الخاص بهم، ومن معاشرة فاوستهم أيضاً. إنهما حكماهما الأخلاقيان المسبقان ضد قيمة المعرفة.

179 ـ أفكار

إن الأفكار هي ظل مشاعرنا: هي دائماً أشد غموضاً، وأشد فراغاً وأشد بساطة منها.

180 ـ زمن العقول الحرة الطيب

تأخذ العقول الحرة حريتها في العلم أيضاً ويسمح لها بذلك وقتياً طالما الكنيسة لا تزال قائمة، إنه زمنهم الطيب من هذه الوجهة.

181 ـ إتبع وانطلق دائماً إلى الأمام

A ـ من هذين الاثنين، لا يفعل أحدهما سوى اللحاق؛ والآخر يمضي دائماً إلى الأمام، إلى حيث يقوده القدر، ومع ذلك فالأول أرفع من الثاني، تبعاً لفضيلته ولعقله!».

(*) وردت في النص الألماني باللغة الفرنسية، ومعناها: «ليتنحى العواهل الى حديثي النعمة».
م. فرنسي.

B ـ «ومع ذلك؟ هاك ما قيل للآخرين، وليس لي، ليس لنا Fit secundum regulam».

182 ـ في الوحدة

عندما تعيش وحيداً، لا تتكلم بصوت مفرط الارتفاع، كما أنك لا تكتب أيضاً «بارتفاع مفرط»، لأنك تخشى الرنين الفارغ ـ تخشى نقد جنية الصدى. فالوحدة تبدل الأصوات كلها.

183 ـ موسيقى المستقبل الأفضل

إن الموسيقي الأول تبعاً لي هو من يعرف حزن أعمق سعادة، ويجهل كل ما عداه: موسيقي نظير لهذا الموسيقي لم يوجد إطلاقاً حتى الآن.

184 ـ عدالة

ان نسرق أحرى من أن نحيط أنفسنا بالفزاعات ـ هاك ذوقي، إنها في كل الأحوال مسألة ذوق ـ وليس أكثر.

185 ـ فقير

اليوم هو فقير، لكن ليس لأنه قد أُخذ منه كل شيء، بل لأنه قد رمى كل شيء، فماذا يهمه؟ إنه معتاد على أن يجد. إن الفقراء هم من لا يفهمون جيداً فقره الارادي.

186 ـ الضمير المتعب

إن كل ما يقوم به في الوقت الحاضر مناسب وحكيم ـ ومع ذلك فإن ضميره متعب. ذلك أن مهمته خارقة للعادة.

187 ـ ما يجرح في التقديم

يهينني هذا الفنان بالأسلوب الذي يقدم فيه أفكاره، أفكاره الفائقة الجودة: فهو يقدمها بالحاح، ويسعى إلى إقناعنا بأساليب فظة كأنه يتكلم إلى أدنى الرعاع. في كل مرة نكرس بعض وقتنا لفنه، نشعر دائماً أننا في «صحبة سيئة».

188 ـ عمل

ما أقرب العمل والعامل حتى من أشد العاطلين عن العمل! فالتهذيب الذي تريد أن تترجمه هذه الكلمة الملكية: «كلنا عمال»، لم تكن أيضاً لتعتبر إلا فحشاً ووقاحة في زمن لويس XIV».

189 ـ المفكر

إنه مفكر: أي ما معناه أنه يأخذ الأشياء بأبسط مما هي عليه.

190 ـ ضد المادحين

A ـ لا يمدحنا الا من يشبهنا!.

B ـ بالطبع، إن من يمدحك يقول لك ! إنك تشبهني.

191 ـ ضد بعض المرافعات

إن أغدر أسلوب للاساءة إلى قضية هي في الدفاع عنها قصداً بعلل سيئة.

192 ـ الفضلاء

ما الذي يميز عن باقي البشر هؤلاء الناس الفضلاء الذين يشع اللطف من وجوههم؟ إنهم يشعرون بالارتياح في حضور شخص جديد، ويشغفون به، بسرعة: ويريدون خيره لهذا السبب، فالحكم الأول الذي يطلقونه عليه هو «انه يعجبني» تتلوه مباشرة الرغبة بالاستملاك (وقلما يقلقون لقيمة الآخر). التملك السريع، ثم فرح الامتلاك والفعل لصالح الموضوع الممتلك.

193 ـ خبث كانط

كان كانط يريد أن يبرهن، وبطريقة واضحة «لكل الناس»، أن «كل الناس» محقين: ـ هذا ما كان يشكل الحيلة السرية لهذه الروح. لقد كتب ضد العلماء لصالح الاحكام الشعبية المسبقة، لكنه قام بذلك للعلماء وليس للشعب.

194 ـ «بقلب مفتوح»

هاك رجل يعمل على الأرجح لأسباب سرية: لأنه يملك دائماً ملء فمه أسباباً يمكنه الاعتراف بها، حتى أنه مستعد ليضعها تحت أنفك.

195 ـ ما يضحك

أنظروا، أنظروا، إنه يهرب بعيداً عن البشر: إلا أن هؤلاء يلحقونه، لأنه يركض أمامهم. لشدة ما هم بهائم قطيع!

196 ـ حدود سمعنا

لا نسمع إطلاقاً إلا الأسئلة التي نقدر على الاجابة عليها.

197 ـ انتبهوا

ليس هناك من شيء نحب أن نتبادله مع الآخرين أكثر من فض الاسرار، دون أن ننسى ما يوجد تحتها.

198 ـ كَرَبْ الرجل الفخور

يشعر الفخور بالمرارة حتى بالنسبة لمن يقوده إلى الأمام: فهو ينظر بعين السوء إلى الخيول التي تقود مركبته.

199 ـ سخاء

لا يكون سخاء الاغنياء غالباً سوى نوع من الخجل.

200 ـ ضحك

الضحك يعني: التمتع باساءة ولكن بضمير مرتاح.

201 ـ تصفيق

لا يمكن التصفيق من دون ضجة؛ حتى عندما نصفق لأنفسنا.

202 ـ مبذر

إنه لم يمتلك بعد فقر الغني الذي قام بجردة لمجموع كنزه، فهو يبدد تفكيره بكل لا عقلانية الطبيعة المبذرة.

Hic niger est ـ 203

عادة، لا يملك أي فكرة، ولكن استثنائياً تأتيه أفكار سيئة.

204 ـ الشحاذ والأدب

«ليس من الفظاظة بشيء القرع بالحجر على باب ليس فيه حبل جرس» هكذا يفكر الشحاذون والمحتاجون من أي نوع كانوا، إلا أنه ما من أحد يوافقهم الرأي في ذلك.

205 ـ حاجة

يعتقد عادة أن الحاجة تخلق الشيء، إلا أن الشيء، غالباً، هو ما يخلق الحاجة.

206 ـ في أثناء المطر

إنها تمطر، وأفكر في المساكين الذين يتحلقون في هذه اللحظة بكل وزر همومهم التي لم يتمرنوا على إخفائها، هؤلاء الناس المساكين حيث كل واحد منهم مستعد للاساءة إلى جاره وإلى أن يجلب لنفسه في هذا الطقس الرديء إحساساً بالرفاهية يرثى له. هذا هو وليس شيئاً آخر، بؤس المساكين.

207 ـ الحسود

ذاك حسود. لا تتمنوا له أن ينجب أطفالاً، فهو سيحسدهم على ما لم يعد عليه هو نفسه.

208 ـ رجل عظيم

كون أحدهم رجلاً عظيماً لا يسمح لنا بالاستنتاج أنه رجل، فربما لم

يكن سوى ولداً يافعاً، أو حرباء من كل الأعمار، أو امرأة حولها ساحر إلى رجل.

209 ـ طريقة ما لتساؤلنا عن أسبابنا

ثمة طريقة نتساءل فيها عن أسبابنا، لا تجعلنا ننسى أفضل أسبابنا فقط، بل انها توقظ فينا أيضاً نفوراً عنيداً من أي سبب كان: طريقة سفيهة في التساؤل، أسلوب طبائع الطغاة.

210 ـ اعتدال في الهمة

لا يجدر أن نبغي تجاوز همة الأب ـ إنه لأمر مُعِل.

211 ـ أعداء سريين

أن يكون بمقدورك تعهد عدو سري ـ إنه لبذخ تضيق به عادة أخلاقية أشد الأذهان ترفعاً.

212 ـ لا تركن إلى المظاهر

لذهنه أساليب رديئة، إنه فظ ويتأتئ دائماً لقلة صبره: بشكل نكاد لا نشك فيه بروحه التي تسكنه، ولا نعرف شيئاً عن النفس الطويل الذي يملكه ولا عن صدره الرحب.

213 ـ طريق الهناء

سأل حكيم مجنوناً، ما هو طريق الهناء، فأجابه هذا الأخير بسرعة من يطلب منه عن طريق أقرب مدينة: «أعجب بنفسك وعش في الشارع» فقال الحكيم «توقف، إنك تطلب الكثير، يكفي أن تعجب بنفسك!» فرد المجنون: «لكن كيف تعجب باستمرار إذا لم تحتقر باستمرار؟».

214 ـ الايمان الذي ينجي

لا تجلب الفضيلة السعادة ونوعاً من الغبطة إلا لاولئك الذين يؤمنون بفضيلتهم؛.... وليس لتلك الأرواح الأشد رقة والتي تشتمل الفضيلة

عندها على حذر عميق اتجاه الذات واتجاه كل الفضائل. إذن نلاحظ هنا أيضاً أن «الايمان ينجي» وليس الفضيلة!

215 ـ مثال ومادة

تهدف إلى مثال نبيل: ولكن هل أنت من حجر نبيل بما فيه الكفاية لكي تستطيع صورة الهية شبيهة به أن تتشكل فيك؟ من جهة أخرى ـ هل عملك كله شيئاً آخر غير نحت بربري؟ انتهاك لحرمة مثالك؟

216 ـ خطر في الصوت

مع صوت جهوري في الحنجرة، نكاد نكون عاجزين عن التفكير بأشياء دقيقة.

217 ـ علة ومعلول

النظر في العلل يختلف بعد ظهور المعلول عمّا قبله.

218 ـ نفوري

لا أحب الأشخاص الذين، لكي يؤثروا فقط، عليهم أن ينفجروا كالقنابل، ونخاطر بقربهم بأن نفقد السمع، إن لم يكن أسوأ.

219 ـ هدف العقاب

«هدف العقاب اصلاح من يُعاقب» هذه آخر حجة للمدافعين عن العقاب.

220 ـ تضحية

إن الحيوانات المضحى بها لديها فكرة مغايرة للمشاهدين عن التضحية والذبيحة، ومع ذلك فإنه ليس في الوارد إطلاقاً أن يعطى لها الكلام.

221 ـ مراعاة

إن الآباء والأبناء يراعون بعضهم البعض أكثر بكثير مما تفعله الأمهات والبنات.

222 ـ شاعر وكذاب

يرى الشاعر في الكذاب أخاً بالحليب. أحبطه بسرقه حليبه، بحيث بقي هذا الأخ بائساً ولم يتوصل حتى إلى راحة الضمير.

223 ـ وكالة الحواس

قال معرف عجوز، صار أصماً: «لدينا أيضاً عيون لتسمع، وبين المكفوفين ملك من يملك أطول أذنيين».

224 ـ نقد الحيوانات

أخشى ألاّ تعتبر الحيوانات أن الانسان كائن من جنسها قد أضاع رشده الحيواني بأخطر طريقة ـ أخشى، ألاّ تعتبره كالحيوان العبثي، الحيوان الضاحك، الحيوان الباكي، الحيوان المنذور للشقاء.

225 ـ الرجال الطبيعيين

«لقد كان للشر دائماً أكبر الأثر، والطبيعة سيئة، لنكن طبيعيين!» هكذا يحتج في السر الباحثين الكبار عن أثر إنساني، الذين غالباً ما يعدوا بين كبار الرجال.

226 ـ الحذرون والأسلوب

نحن نقول أقوى الأشياء ببساطة، بشرط أن نكون محاطين بأشخاص يؤمنون بقوتنا: لهذا المحيط فضيلة إنه يربي على «بساطة الأسلوب». يتكلم الحذرون بفخامة، يجعل الحذرون مستمعيهم فخمين.

227 ـ استنتاج خاطئ، ضربة غير موفقة

إنه لا يجيد السيطرة على نفسه، ومن هنا استنتجت فلانة أنه سيكون

من السهل السيطرة عليه، فرمت عليه بحبائلها؛ بعد فترة قصيرة ستصير البائسة عبدته.

228 ـ ضد الوسطاء

إن من يريد أن يكون وسيطاً بين مفكّرين حازمين يظهر وضاعته الشخصية؛ فهو لا يملك النظر الذي يميز ما لا ينتج إلا مرة واحدة: إن من لا يرى إلا التماثل وكل شيء متساوٍ يتميز بضعف النظر.

229 ـ تحد واخلاص

بتحد، لا يزال يتمسك بقضية صار ضعفها واضحاً أمامه؛ ... ويسمي ذلك «إخلاصاً».

230 ـ عدم دراية

لا شيء فيه يُقنع ـ ويعود ذلك إلى أنه لم يكتم أقل عمل جيد قام به.

231 ـ العميقون

يعتقد البطيئون في المعرفة أن البطء ضروري لها.

232 ـ حلم

إما ألاّ نحلم أو، إذا حلمنا فبطريقة مهمة، يجب أن نتعلم أن نكون يقظين بنفس الطريقة؛ إما ألاّ نكون يقظين بالمرة أو أن نكونه بطريقة مهمة.

223 ـ أخطر وجهة نظر

إن كل ما أقوم به الآن أو لا أقوم به مهم بنفس القدر لكل ما سيحصل بمقدار أهمية أكبر حدث في الماضي: في هذا المنظور الرائع للأثر كل الافعال هي سواء بسواء كبيرة وصغيرة.

234 ـ مواساة موسيقي

«لا تسمع آذان الرجال موسيقى وجودك؛ فأنت بالنسبة اليهم تقود

حياة بكماء، لا تستطيع طبلة آذانهم أن تميز فيها أي من رهافة لحنك. صحيح أنك لا تصل إلى الطريق العام وأنت تقود موسيقى عسكرية، إلا أنه لا يحق لهم مع ذلك القول أن حياتك ينقصها الموسيقى، فليسمع من له آذان!».

235 ـ عقل وطبع

يتوصل عدد من الرجال، بطبعهم إلى أوج نقطة عندهم، إلا أن عقلهم بالذات يبقى ما دون ذلك ـ والعكس عند البعض الآخر.

236 ـ لتحريك الحشد

عندما تريد تحريك الحشد ألا ينبغي أن تكون ممثل أناك الخاصة؟ وقبل كل شيء أن تترجم ذاتك في هيئة دقيقة وفظة، وأن تمثل كل شخصيتك وقضيتك في هذا الشكل الفظ والمبسط؟

237 ـ الرجل المهذب

«إنه جم التهذيب!» ـ في الحقيقة، إنه يراعي دائماً أن يملك قطعة سكر ليقدمها للحارس العنيف، وهو هلع لدرجة أنه يعتبر كل واحد حارساً عنيفاً، أنت، وأنا نفسي ـ هذا هو «تهذيبه».

238 ـ من دون حسد

انه يخلو من أي حسد، إلا أنه ليس له أي فضل في ذلك: فهو يريد أن يحصل على بلاد لم يمتلكها أحد من قبل ولا حتى رآها أحد.

239 ـ دون فرح

يكفي شخص وحيد دون فرح ليخلق في المنزل كله مزاجاً سيئاً ويغلفه بغيمة سوداء؛ وإنها لمعجزة لو نقص هذا الرجل! يلزم الكثير لتكون السعادة مرضاً معدياً بهذا الشكل!... من أين يتأتى هذا؟

240 ـ في البحر

لن أبني منزلاً قط (وتقتضي سعادتي بأن لا أمتلك أي منزل) ولكن إذا لزم الأمر، أريد أن أبني منزلاً، شأني في ذلك شأن بعض الرومان، في البحر؛ من الممكن أن يكون لدي بعض التجانس السري مع هذا الوحش الجميل!

241 ـ فن فنان

هاك فنان طموح؛ إنه ليس شيئاً آخر غير الطموح؛ وليس فنه سوى زجاج مكبر يهديه لكل من ينظر إليه.

242 ـ Suum Cuique

مهما بلغ مقدار نهمي للمعرفة، فإني لا أقدر أن أستخرج الأشياء إلا إذا كنت أملكها أصلاً، فخير غيري يبقى كاملاً له، فكيف يمكن لرجل ما أن يكون سارقاً أو قاطع طريق؟

243 ـ أصل مفهومي «الطيب» و«الخبيث»

وحده فقط من يستطيع أن يشعر أن «هذا ليس طيباً»، يمكنه أن يحدث إصلاحاً.

244 ـ أفكار وكلمات

لا يمكن للكلمات أن تُظهِر كلياً حتى أفكارنا الخاصة.

245 ـ الثناء في الاختيار

يختار الفنان مادته: هذه هي طريقته في الثناء.

246 ـ رياضيات

نريد، مهما كان الثمن أن ندخل حذاقة وصرامة الرياضيات في كل العلوم؛ ليس لأننا نتصور، إننا بذلك نتوصل إلى معرفة أفضل للأشياء؛ بل فقط لكي نقيم علاقة إنسانية معها. ليست الرياضيات إلا وسيلة فائقة وعامة في المعرفة الانسانية.

247 ـ عادة

تجعل كل عادة من يدنا أشد حذاقة ومن حذاقتنا أشد خرقاً.

248 ـ كتاب

ما قيمة كتاب لا يعرف حتى أن يحملنا إلى أبعد من كل الكتب؟

249 ـ تحسر العارف

«آه أيها الجشع اللعين! لا يسكن هذه الروح أبداً نكران الذات ـ بل بالأحرى إنها ذات تشتهي كل شيء، وتريد أن ترى عبر الكثير من الأفراد كما لو كانت ترى بعينيها الخاصتين، وان تقبض كما لو بيديها الخاصتين، ـ ذات تستعيد أيضاً الماضي بأكمله، ولا تريد أن تضيع شيئاً يمكنه أن يكون خاصاً بها! آه يا شعلة جشعي اللعينة! ألا يمكنني أن أولد في مئات الكائنات!» من لم يعرف تجربة هذه الحسرة، لا يعرف أيضاً الهوى المعرفي.

250 ـ شعور بالذنب

مع أن أشد قضاة الساحرات ذكاءً والساحرات أنفسهن كن مقتنعات بالطابع المذنب للسحر، فإن حالة الذنب لم تكن أقل إنعداماً. والأمر عينه بالنسبة لكل شعور بالذنب.

251 ـ المتألمون المجهولون

يتألم ذوو الطبائع العظيمة بطريقة تختلف عما يتخيله الذين يكرمونهم: إنهم يتألمون بشدة من الانحطاط الوضيع والمسكين لعدة لحظات سوء، وباختصار إنهم يتألمون من شكهم الخاص فيما يخص عظمتهم الخاصة ـ وليس من التضحيات ومن الاستشهادات التي تنيطها بهم مهمتهم. طالما بروميثيوس يشفق على البشر ويضحي من أجلهم، هو سعيد وعظيم بنظر نفسه: لكن ما ان يحسد جوبيتر على التكريم الذي يمنحه الفانون اليه، إذ ذاك يكون متألماً!

252 ـ من الأجدى البقاء مذنباً

من الأجدى البقاء مذنباً عوضاً عن دفع عملة لا تحمل صورتنا! هذا ما تريده سيادتنا.

253 ـ دائماً في المنزل

سيأتي يوم نصيب فيه هدفنا مذ ذاك سنظهر بفخر رحلاتنا الطويلة لنصل إلى الهدف. في الحقيقة لم نكن قد لاحظنا إطلاقاً أننا مسافرون. بحيث نكون قد رحلنا بعيداً في كل مرحلة جديدة كنا نفكر فيها أننا دائماً في البيت.

254 ـ ضد الارتباك

من يكون دائماً مندمجاً يبقى بعمق أبعد من كل ارتباك.

255 ـ مقلدون

A ـ ما معنى هذا؟ لا تريد مقلدين لك إطلاقاً؟

B ـ لا أريد أن أستخدم اطلاقاً كمثل يحتذى، في هذا الأمر أو ذاك؛ أريد من كل واحد أن يختار نموذجه بنفسه: تماماً كما أفعل أنا.

A ـ إذن. . . ؟».

256 ـ البشرة

يضع كل رجال الأعماق هناءهم في مقدرتهم على التشبه بالاسماك الطائرة التي تلعب عند أعلى قمم الأمواج: فما يقدرونه على أنه أفضل ما في الأشياء هو سطحها: ما تملكه عند البشرة Sit venia verbo.

257 ـ بالتجربة

أكثر من واحد يجهل مبلغ ثرائه، إلى اليوم الذي يدرك فيه، كم من الرجال، حتى أغناهم، قد تحولوا إلى سارقين، في تواصلهم معه.

258 ـ منكر الصدفة

ما منا منتصر لا يؤمن بالصدفة.

259 ـ من الجنة

«الخير والشر هما من أحكام الله المسبقة» ـ تقول الأفعى.

260 ـ واحدة بواحد

الواحد مخطئ دائماً: إلا أن الحقيقة تبدأ مع اثنين: الواحد لا يمكنه أن يقيم الدليل لنفسه: إلا أنه يكفي اثنين حتى لا يعود بالامكان تهفيتهما.

261 ـ تفرد

ما هو التفرد؟ إنه رؤية شيء ما لم يُسمَّ حتى الآن، ولا يمكن تسميته بعد، مع أنه تحت نظر الجميع. من شأن الرجال عادة أنه يلزمهم في البدء إسم لكي يصير الشيء مرئياً. لقد كان المتفردون في الغالب من أعطى أسماء للأشياء.

262 ـ Sub specie aterni

A ـ «إنك تبتعد بسرعة أكثر فأكثر عن الاحياء: فقريباً سيمحونك من لائحتهم!».

B ـ «إنها الطريقة الوحيدة لمشاطرة الأموات امتيازهم».

A ـ «أي امتياز؟»

B ـ «أن لا تموت مرة أخرى».

263 ـ من دون غرور

عندما نحب نريد أن تبقى أخطاءنا محجوبة ـ ليس غروراً؛ بل كي لا نؤلم المحبوب. وبالواقع يريد العاشق أن يبدو الهياً. وذلك أيضاً ليس نتيجة للغرور.

264 ـ ما نقوم به

لا يفهم إطلاقاً ما نقوم به، إنه فقط يُمدح أو يلام.

265 ـ آخر ارتياب

ما هي إذن، في آخر تحليل، حقائق الانسان؟ إنها أخطاؤه التي لا تدحض.

266 ـ حيث القساوة ضرورية

من لديه العظمة يكون قاسياً في فضائله وفي اعتباراته الثانوية.

267 ـ فضيلة الهدف العظيم

إن هدفاً عظيماً يجعلنا أعلى من العدالة نفسها، وليس فقط من أفعالنا وقضاتنا.

268 ـ ما الذي يمنح البطولة؟

ان تمضي أبعد من أسمى أمل لك.

269 ـ بماذا تؤمن؟

بهذا : يجب من جديد تحديد وزن الأشياء.

270 ـ ماذا يقول ضميرك؟

«وعليك أن تكون ذاتك ذاتها».

271 ـ أين تمكن أشد المخاطر؟

في الشفقة.

272 ـ ما الذي تحبه عند الآخرين؟

آمالي.

273 ـ من الذي تسميه رديئاً؟

ذاك الذي يريد دائماً أن يفضح.

274 ـ ما هو الأشد إنسانية عندك؟

ـ توفير العار على أحدهم.

275 ـ ما هي سمة الحرية المتحققة؟

ألاّ تخجل من ذاتك.

كتاب رابع
القديس يناير

أنتَ يا من برمح شعلتك

تفتت صقيع روحي

بحيث تهب هائجة

نحو بحر أسمى آمالها.

دائماً أشد سداداً وأشد صفاء.

حرة في ضيقها الودود

هكذا تمجد عجائبك

آه، أنت يناير الأجمل.

جنوى ـ ك2/ يناير 1882

Sum ergo Cogito: Cogito ergo Sum.

276 ـ للسنة الجديدة

لا أزال أحيا، لا أزال أفكر: ينبغي أن أحيا أيضاً، لأنه ينبغي أيضاً أن أفكر، يسيغ كل واحد اليوم لنفسه بأن يعبر عن رغبته، عن أعز فكرة لديه: سأقول إذن، أنا أيضاً، ما أتمناه من نفسي اليوم، وما هي الفكرة الأولى التي مرت في سريرة قلبي هذه السنة، وما هي الفكرة التي على الذهن أن يحملها إلي، رهان وطلاوة كل حياتي اللاحقة! أريد أن أتعلم اعتبار الضرورة في الأشياء على انها الجمال في ذاته: هكذا أصير واحداً

ممن يجملون الأشياء: حب القدر: Amor Fati: فليكن ذلك من الآن فصاعداً حبي! لا أريد أن أحارب القبح! لا أريد أن أتهم حتى المتهمين، سأغض بصري، وسيكون ذلك من الآن فصاعداً انكاري الوحيد! وبكلمة، وبالجملة، لا أريد منذ اليوم، أن أكون إطلاقاً سوى التأكيد.

277 ـ عناية إلهية شخصية

هناك لحظة تبلغ فيها الحياة ذروة ما: ما ان نبلغها، ترانا بالرغم من كل حريتنا، من كل رفضنا منح أي طيبة وأي عقل الهي لخواء الوجود الجميل، فإننا مع ذلك نخاطر مرة أخرى أيضاً بالوقوع في أضخم خضوع فكري، ويكون علينا القيام بأقسى تجاربنا صعوبة. في الواقع، في تلك اللحظة تمثل أمامنا فكرة العناية الإلهية الشخصية بأشد طرق التسلط وأفضل ناطق بلسانها، الظاهر، لأننا نرى مذ ذاك أن كل ما يصيبنا يدور باستمرار لمصلحتنا. الحياة اليومية في كل ساعة، تبدو أنها لا تنحو لشيء آخر سوى تأكيد هذا التأويل ببراهين جديدة: مهما يكن الأمر، الطقس الحسن أو السيء، فقدان صديق، مرض، نميمة، رسالة لم تصل، رضة، مجرد التفاتة في مخزن، حجة يعارضك فيها آخر، كتاب يفتح صدفة، حلم، خدعة... كل شيء، كل شيء ينكشف في الحال أو بعد برهة على أنه واحد من تلك الأشياء التي لا يمكنها أن لا تحدث ـ فلكل شيء معنى عميق، وفائدة جمة لنا نحن بالضبط! هل من إغراء أشد لطرح آلهة أبيقور، هذه الآلهة المجهولة اللامبالية، لنؤمن بما لا أعرفه من ألوهية تعرف بالذات أقل شعرة في رأسنا ولا تشعر إطلاقاً بأي نفور من الظهور بهذه الدرجة بمظهر الخدوم الرحيم؟ والحال ـ فإني أريد أن أقول: بالرغم من كل ذلك ـ لنترك الآلهة في سلام، وكذلك نكتفي بأن نفترض أن براعتنا العملية والنظرية في تأويل وربط الاحداث قد بلغت أوجها في هذه النقطة، ولا نتباهى أيضاً بحكمتنا لو بلغ عزفها روعة التآلف الذي يتشكل عند اللعب بآلاتنا مبلغاً يدهشنا: تآلفاً برنين مفرط الاتقان لنجرؤ أن نعزوه إلى أنفسنا. في الواقع، هنا وهناك ثمة شخص ما يلعب معنا ـ الصدفة العزيزة: فهي تقود أناملنا، وأحكم عناية إلهية لا يمكنها أن تتخيل أجمل من تلك الموسيقى التي تولد عندئذٍ من يدنا المجنونة.

278 ـ فكرة الموت

أشعر بفرح كثيب في العيش وسط هذا الخليط من الأزقة والحاجات والأصوات: كم من المتع، وعدم الصبر والشهوات؛ كم من العطش للحياة ونشوة الحياة تولد هنا في كل لحظة! ومع ذلك أي صمت سيخيم قريباً على كل هؤلاء الصاخبين، كل هؤلاء الأحياء، كل هؤلاء الجشعين إلى الحياة! كما يرى جيداً خلف كل واحد ينتصب ظله، رفيق طريقه المظلم! يتم الأمر دائماً كما في آخر لحظة قبل اقلاع باخرة المهاجرين: يكون هناك كلام يقال أكثر من أي وقت مضى، والوقت ضاغط، والمحيط في صمته الكالح ينتظر بنفاذ صبر خلف كل هذا الضجيج، . . . فائق الجشع، والثقة بغنيمته! وكلهم، كلهم يتخيلون أن الحياة التي عاشوها حتى الآن ليست بشيء، والا فإنها شيء زهيد، وأن المستقبل القريب سيكون كل شيء، من هنا تلك السرعة، وهذا الصراخ، هذه الحاجة إلى صم الآذان، وإلى الانخداع! يريد كل واحد أن يكون الأول في هذا المستقبل ـ ومع ذلك فالموت وصمت القبور يشكلان اليقين المشترك الوحيد للجميع في هذا المستقبل!! كم هو غريب أنه يكاد لا يكون لهذا اليقين الوحيد، لهذا الاتحاد الوحيد أي سلطة على البشر، وانه ليس أبعد عن فكرهم أكثر من فكرة أن يشعروا بأخوية الموت هذه! يسعدني أن أرى أن البشر يرفضون أن يفكروا بفكرة الموت. أحب أن أساهم عن طيب خاطر بجعل فكرتهم عن الحياة مقبولة أيضاً مئة مرة أكثر.

279 ـ صداقة الكواكب

لقد كنا صديقين، ولقد صرنا غريبين. إلا أن هذا حسن أيضاً؛ ولن نسعى إلى أن نخفي ذلك عن أنفسنا أو أن نداريه أو أن نحجبه كما لو كان علينا أن نخجل منه. شأننا في ذلك شأن سفينتين تتابع كل واحدة منهما وجهتها وهدفها الخاصين: يمكننا أن نتقاطع وان نحتفل بأعياد فيما بيننا كما فعلنا ذلك من قبل. . . ، وعندها يرتاح المركبين الطيبين جنباً إلى جنب في نفس المرفأ، تحت الشمس، هادئين حتى ليقال أنهما قد بلغا هدفهما، وانه وجهتهما كانت واحدة. لكن النداء الذي لا يُقاوم يدفعنا من جديد الواحد بعيداً عن الآخر، كل على بحاره، نحو جهته، تحت الشموس

المختلفة ـ وربما لن نعود نرى بعضنا إطلاقاً: ربما لنلتقي مرة أخرى، ولكن من دون أن نتعرّف على بعض بحار مختلفة، شموس متنوعة، غيرتنا! أن نكون قد صرنا غريبين عن بعضنا هذا ما يريده القانون الذي يزن فوقنا: وبهذا بالذات علينا أن يصير واحدنا أشد احتراماً للآخر! لهذا يجب أن تكون فكرة صداقتنا القديمة أشد قداسة لنا! هناك على الأرجح خط مسير رائع، ميدان غير مرئي، فلك كوكبي، كتبت عليه وجهتنا وأهدافنا المتباينة كمراحل صغيرة؛ ... لنرتفع حتى تلك الفكرة، لكن حياتنا قصيرة ونظرنا مفرط في ضعفه حتى يكون بامكاننا أن نكون أصدقاء بمعنى مختلف عن الذي تسمح به هذه الامكانية السامية... لنؤمن إذن بصداقتنا الكوكبية، حتى لو كان علينا أن نكون أعداءً على الأرض.

280 ـ هندسة معمارية لمن يبحثون عن المعرفة

من الضروري أن نفهم ذات يوم، ولربما كان هذا اليوم قريباً، ما الذي ينقص قبل كل شيء في مدننا الكبيرة: أماكن للصمت، فسيحة وفائقة الامتداد مخصصة للتأمل، مزودة بأروقة طويلة وعالية للعواصف أو للشمس الحارقة، حيث لا يدخلها ضجيج العربات ولا صراخ البائعين، وحيث يمنع الذوق الرهبان من الصلاة بصوت مرتفع: أبنية وحدائق تعبر في مجملها عن سمو التفكير والحياة المنعزلة! لقد ولى الزمن الذي كانت فيه الكنيسة تتولى ناصية هذا التأمل وحيث الـ vita contemplativa كانت دائماً في المقام الأول الـ vita religiosa وكل ما بنته الكنيسة في هذا النوع يعبر عن تلك الفكرة. ولا أرى كيف يمكننا أن نتدبر أمر هذه الأبنية حتى لو فرغت من غايتها الدينية. هذه الصروح بيوت الله، مسارح الابهة، للتعامل مع الما فوق ـ طبيعي، تتكلم لغة مفرطة الفخامة ومفرطة الضيق لكي يكون بامكاننا، نحن الملحدون، أن نتأمل في أفكارنا. نحن من يجدر بها أن تترجمنا الحجارة والنباتات لكي يكون بامكاننا أن ننزه أنفسنا عندما نذهب في هذه الأروقة والحدائق.

281 ـ معرفة إيجاد النهاية

يمكن التعرف على المعلمين من الدرجة الأولى في أنهم يعرفون، في

الأشياء الكبيرة كما في الأشياء الصغيرة، أن يجدوا النهاية الكاملة، سواء في لحن أو في فكرة، أو في الفصل الخامس لمأساة، أو في فعل سياسي. موسيقيي الدرجة الثانية، حتى أقواهم، ينفعلون عند اقتراب النهاية ويجهلون ذلك النظام المهيب والصافي الذي يرتسم مثلاً في هبوط سلسلة جبال البورتو فينو Porto fino في البحر ـ هناك حيث خليج جين Gêne ـ يختم أغنية لحنه.

282 ـ المسير

ثمة أنماط للذهن تفضح، حتى عند العقول الكبيرة أصلها الرعاعي أو نصف الرعاعي: إنها مسيرة وخطى أفكارهم هي التي توشي بهم؛ إنهم لا يعرفون أن يمشوا. وهكذا فإن نابليون نفسه، في مرارته العميقة، لم يكن يعرف أن يمشي إطلاقاً بخطى أميرية و«شرعية» في المناسبات التي تقتضي ذلك، في مواكب التتويج الكبيرة وفي مناسبات مشابهة: هناك أيضاً لم يكن يمشي الا كقائد أركان فخور وعنيف في آن معاً، إضافة إلى أنه كان يعي ذلك تماماً. لا شيء يضحك أكثر من رؤية هؤلاء الكتاب الذين يتسربلون لباس مرحلتهم: إنهم يأملون بذلك أن يخفوا أقدامهم.

283 ـ رجال ممهدين

أحيي بفرح كل ما يبشر بمجيء مرحلة أشد رجولية وأشد محاربة، تعرف قبل كل شيء أن تعيد للشجاعة عزها! لأنها ستحضر بدورها الطريق لمرحلة أسمى، وتجمع القوة التي ستحتاجها هذه المرحلة المقبلة ـ مرحلة تدخل البطولة إلى مجال المعرفة، وتعلن الحرب كرمى للفكرة ونتائجها. يلزم الآن الكثير من البواسل المبشرين والذين لا يمكنهم أن ينبجسوا من العدم ـ ولا من رجال الحضارة أيضاً ولا من التربية الرطبة واللزجة لمدننا الكبيرة: رجال صامتون متوحدون وحازمون، يعرفون الاكتفاء بمهمتهم اللامرئية ويعرفون أن يبقوا مواظبين، رجال يسعون بشغف إلى الحواجز في كل شيء ليتجاوزونها؛ رجال أمينين، صبورين، وسطاء يزدرون زخارف الحياة الكبيرة، يعرفون الشهامة عند الانتصار، والتسامح مع زهو الخاسرين الصغير، رجال يحكمون بحرية على كل المنتصرين ويقيسون بدقة ما يرجع

إلى الصدفة في كل نصر وكل مجد، رجال لديهم أعيادهم وأيام عملهم الخاصة وحدادهم، لديهم عادة أن يحكموا، وأن يحكموا بثقة، ومستعدين في اللحظة عينها للخضوع عندما يجدر ذلك، فخورين في الحالة الأولى كما في الحالة الثانية، خادمين قضيتهم الخاصة، رجال أشد تعرضاً للخطر، رجال أشد خصباً، رجال أشد سعادة! ذلك أن السر الكبير، صدقوني، في الوجود الأشد خصباً والأعلى متعة، هو في العيش بخطر. أبنوا مدنكم عند فيزوف، أرسلوا مراكبكم للبحار التي لم يتم ارتيادها بعد. عيشوا في حرب مع نظرائكم ومع أنفسكم، إنهبوا واغزوا، طالما ليس بامكانكم أن تكونوا مسيطرين ومالكين، أنتم رجال المعرفة! قريباً سيولي الزمن الذي يمكن فيه أن يكفيكم أن تعيشوا مختبئين في الغابات شأنكم شأن الأيائل الجافلة! أخيراً ستمد المعرفة يدها الى ما يعود لها بشكل خاص: ستتوق إلى أن تحكم وتملك وستريدون أنتم ذلك معها!

284 ـ الثقة بالذات

قليل من الأشخاص يملكون ثقة مطلقة بأنفسهم: وبين هذا العدد القليل، البعض يتلقاها عند الولادة شأنها شأن عماء ضروري أو كإظلام جزئي للعقل ـ (أيّ مشهد سيرونه لو كان بمقدورهم النظر في أعماق أنفسهم؟!) الآخرين عليهم أن يكتسبوها أولاً؛ كل الخير الذي يقومون به، المناسب، الكبير، هو قبل كل شيء حجة ضد الشك القائم فيهم: عليهم أن يقنعوه أو أن يرضوه، وهذا ما يتطلب عبقرية. إنهم أشد الناقمين على أنفسهم.

Excelsior ـ 285

«لن تصلي بعد الآن إطلاقاً، لن تتعبد بعد الآن إطلاقاً، لن ترتاح بعد الآن إطلاقاً في ثقة لا متناهية ـ ستتمنع عن التوقف أمام أسمى حكمة، أسمى طيبة، أسمى مقدرة ولن تفرغ حمولة أفكارك ـ لن تحصل على أي صديق ولا حارس مثابر لوحدتك المتعددة ـ ستعيش من دون أي متعة لمرأى سلسلة الجبال التي تحمل الثلوج على قممها والوهج في قلبها ـ لن يكون لك من منتقم، ولا من مصلح أخير، ـ لن يكون هناك من علة ولا

حب فيما سيحصل لك ـ ولا مكان مفتوح لراحة قلبك حيث لن يكون لديه إلا أن يجد دون أن يبحث، . . . ستمتنع عن السلام النهائي، وستريد العود الأبدي للحرب وللسلام: . . . يا رجل التخلي، أتريد أن تتخلى عن كل ذلك؟ من سيعطيك القوة؟ ما من أحد يملكها حتى الآن!». ثمة بحيرة ستمتنع يوماً عن الجريان وينتصب سد في الموضع الذي كانت تجري فيه من قبل: مذ ذاك الحين لم يتوقف مستوى البحيرة عن الارتفاع، ربما سيزودنا هذا النوع من التخلي بالقوة التي ستسمح بتحمل التخلي ـ ربما بتخلياتنا سنتوصل، نحن أيضاً، إلى تحمل التخلي، ربما لن يتوقف الانسان عن الارتفاع في الوقت الذي سيتوقف فيه عن الذوبان في الله.

286 ـ استطراد

هاك آمال؛ لكن ماذا بامكانكم أن تروا منها؛ ما الذي بامكانكم أن تشعروا به إذا لم تكن أرواحكم قد عرفت اللعب والسناء والفجر؟ ليس بامكاني إلا أن أساعد ذاكرتكم، ولا شيء أكثر من ذلك! أن أحيي الأحجار أن أحول الحيوانات إلى رجال؟ ـ هل هذا ما تريدونه مني؟ للأسف! إذا لم تكونوا شيئاً آخر غير حجارة وحيوانات، إبحثوا لكم في البدء عن أورفيوس!

287 ـ فرح العمى

يقول المسافر لظله: «الأفكار، عليها أن تدلني أين أنا موجود: وليس أن تكشف لي إلى أين أمضي. أحب الجهل بالمستقبل، ولا أريد أن أموت من نفاذ الصبر بانتظار أشياء موعودة، ولا أن آكل قمحي أخضر».

288 ـ نفسيات سامية

يبدو لي أن أغلب البشر لا يؤمنون بالنفسيات السامية الا ما كان يدوم للحظات، لربع ساعة على الأكثر ـ باستثناء هذه الكائنات النادرة التي تعرف بالتجربة شعوراً سامياً لمدة أطول، أما فيما يكوّن رجل الحمية الفريدة، التجسيد لنفسية سامية ـ فإنه لم يكن حتى الآن إلا مجرد حلم، إمكانية منشطة: لا يقدم لنا التاريخ مثلاً أكيداً عليه. ومع ذلك فإنه من

الممكن أن يولّد مثل هؤلاء الرجال ـ ما ان يولد ويتوطد فوج من الشروط المسبقة، التي لا يمكن حتى لأسعد ضربة نرد للصدف أن تنتجها. ربما ستعرف هذه الأرواح المستقبلية كحالة عادية ما كانت تجهل الشعور به إلا استثنائياً مع قشعريرة وللحظات: حركة متواصلة بين الارتفاع والعمق وشعور بالارتفاع وبالعمق، في آن معاً، شأن ارتقاء مستمر يصاحبه إنطباع بالاستناد المريح على الغيوم.

289 ـ لنرفع المرساة

عندما نمعن النظر بالتأثير الذي يمارسه تبرير فلسفي كامل على كل فرد في أسلوب حياته، وتفكيره، عندما نفكر أنه يدفئه ويخصبه كشمس تشرق له وحده، عندما نقدر الاستقلالية التي تمنحها له مواجهة الرأي العام، عندما نرى كم يجعله راضياً عن نفسه، غنياً، فائضاً بالسعادة وحسن الالتفات، وانه لا يتوقف عن تحويل الشر إلى خير.. عن ازهار وانضاج كل قواه وعن قتل كل الزؤان الصغير والكبير فيه، والمزاج الأسود والتعاسة، لا يمكننا حينها الامتناع عن صراخ كأنه ابتهال: آه، ألا يمكن أيضاً خلق آلاف الشموس المشابهة؟! فاللئيم نفسه، والتعيس ورجل الاستثناء يجب أن يكون لديهم هم أيضاً فلسفتهم، حقهم الخاص، وشعاع شمسهم! ليست الشفقة ما يلزمهم! فلنستقبح هذه الفكرة المغرورة، مع أن الانسانية لم تطلب إلا منها ولزمن طويل دروسها ومواضيع تجاربها، ... إننا لا نحتاج إلى معرفين ولا إلى معزمين ولا إلى مباركين لهم، ما يلزم هو عدالة جديدة! شعار جديد! وفلاسفة جدد! فالأرض الأخلاقية مستديرة شأنها شأن الأرض الأخرى! لديها كما الأخرى قطباها المتقابلان! والقطبان المتقابلان، شأننا نحن، لديهما الحق بالحياة! ثمة عالم آخر للاكتشاف أيضاً! فاصعدوا أيها الفلاسفة إلى سفنكم!

290 ـ شيء واحد ضروري

«قدّم أسلوباً» لطبعك، ... إنه فن معتبر ولكن نادراً ما نلقاه! لممارسته يجب على نظرنا أن يحيط بكل قوى طبيعتنا وضعفها، وأن يعرف كيف يدرجها جيداً في مخطط فني يظهر كل عنصر فيه على أنه قطعة فنية

وذهنية، ويكون حتى للضعف فضيلة استهواء النظر. هنا نكون قد أضفنا قطعة كبيرة من طبيعة ثانية، هناك نكون قد اقتلعنا قطعة من الأولى، وفي الحالتين، نتيجة ممارسة صبورة وجهد يومي. في ذلك الموضع سترنا بشاعة لم نستطع اقتلاعها، في الموضع الآخر حولت إلى جمال رفيع. عدد من العناصر الملتبسة التي رفضت أن تتشكل احتفظ بها لتستعمل في تأثيرات المنظور: مهمتها إبراز الابعاد، والدعوة إلى اللامتناهي. في النهاية ما ان ينتهي العمل حتى يبدو أن إكراه ذوق وحيد بعينه هو الذي سيطر وشكل الاشياء الكبيرة كما الأشياء الصغيرة: أكان هذا الذوق جيداً أو سيئاً، إنه لأمر أقل أهمية مما نعتقد يكفي أنه كان هناك ذوقاً! إنها الطبائع القوية والمسيطرة التي تتذوق الأفراح الأشد رقة في هذا الاضطرار، هذه العبودية، هذا الاتقان الذي يمليه قانونهم الشخصي؛ يخفف شغف إرادتهم القوية لمرأى كل طبيعة ذات أسلوب، كل طبيعة قد غُلبت أخيراً وأُخضعت، ولو كان عليهم أن يشيدوا قصوراً، أن يغرسوا حدائق فإنه لينفرهم أيضاً أن تترك الطبيعة حرة. وعلى النقيض فإن ذوي الطبائع الضعيفة الذين لا يسيطرون على أنفسهم، يكرهون الخضوع للاسلوب: فهم يشعرون أنهم يصبحون سوقيين لا محالة لو فرض عليهم هذا الاكراه المر: إنهم لا يجيدون الخدمة من دون أن يصبحوا عبيداً، لذلك فإنهم يكرهون القيام بها. تواظب عقول كهذه العقول ـ يمكن أن تكون من الدرجة الأولى ـ على أن تعطي لنفسها وأن تمنح محيطها سمة الطبيعة الحرة، الوحشية، الاستبدادية، غريبة الأخلاق، المضطربة والعجيبة ـ أو أن تؤول نفسها على أنها كذلك: وهي حسناً تفعل لأنها لا تحسن لنفسها إلاّ بهذه الطريقة! في الواقع يلزم شيء وحيد: أن يتوصل الانسان إلى أن يكون راضياً عن نفسه مهما كان الفن والوهم الذي يستعمله لهذه الغاية. عندها فقط يأخذ سيماء يمكن تحملها! أولئك المستاؤون من أنفسهم مستعدون دائماً للانتقام منها: ونحن من سيكون ضحاياهم، حتى لو لم يكن الا بتحملنا مشهدهم الكريه دائماً، لأن مشهد البشاعة يجعلنا دائماً سيئين وكئيبين.

291 ـ جنوى

تأملت لفترة كافية من الزمن هذه المدينة، منازلها الريفية، حدائق لهوها، محيط تلالها الفسيح وانحداراتها المسكونة، ولم أستطع أن أمتنع عن أن أقول لنفسي: اكتشف هنا وجوه الاجيال التي مضت؛ ... هذه البقعة المنثورة بصور رجال أسياد لا يملون. لقد عاشوا وأرادوا أن يستمروا. هاك ما يقولونه لي بواسطة منازلهم المشيدة والمزخرفة للقرون وليس للحظة عابرة: لقد كانوا يحبون الحياة، مهما كانوا خبثاء تجاه أنفسهم. لا أزال أرى هذا البناء الذي كان يحط نظره ويرتاح على كل ما شيد هناك من قريب أو بعيد؛ وعلى المدينة وعلى البحر وعلى خطوط الجبال؛ أرى هذا النظر الذي يغزو، هذا الرجل الذي يُخضع كل هذا لمخططه؛ ويجعله في النهاية ملكاً له يحوله بنفسه إلى قطعة صغيرة من المجموع. لقد تشكلت هذه القطعة بشكل وافر من هذه الرغبة الرائعة والتي لا تشبع في تأكيد الذات بالملكية والغنيمة: كما أن هؤلاء الرجال لا يعترفون بأي حد للآفاق البعيدة، فإنهم وبعطشهم للجديد قد أقاموا عالماً جديداً بجانب القديم، وعلى النحو الذي كان كل واحد منهم يثور في موطنه الأصلي على الآخر، كان كل واحد يستنبط طريقة للتعبير عن استعلائه ليضع بينه وبين جاره ملكيته اللامتناهية. كان كل واحد يعيد غزو بلاده لنفسه، بفرضه عليها فكرته المعمارية، باعادته، بشكل ما، خلقها من جديد، مفعماً نظره بلذة مرأى منزله: إن ما يذهل في الشمال هو القانون، اللذة المشتركة، الخضوع للقانون، عندما نتأمل الهندسة المعمارية للمدن: نحزر هذا الميل إلى المساواة، إلى التنسيق، الذي قاد البنائين. بالمقابل، نكتشف هنا عند كل منعطف رجل لِذَاته يعرف البحر والمغامرة والشرق، رجل يضجره وينفذ صبره القانون والجار، رجل يقيس بعين الغيرة كل ما هو قديم، كل ما هو مشيد أصلاً، إنه يريد، بفكره على الأقل، بحيلة رائعة من المخيلة، أن يعيد من جديد بناءه كله، أن يضع يده فيه، عقله، ولو لم يكن إلا للحظة بعد الظهر المشمس هذا، حيث تشعر روحه الكئيبة، والتي لا تشبع، تشعر لمرة أنها قد بلغت الشبع وحيث لا يعود على نظره أن يرى الأشياء الغريبة ما خلا كل ما ينتمي إليه.

292 - إلى واعظي الأخلاق

لا أريد أن أكون واعظاً. إلا أني أقدم نصيحة لمن يريدون أن يقوموا بذلك: إذا أردتم أن تنزعوا عن أفضل الأشياء كل فتنة وكل قيمة، تابعوا الكلام عنها كما تفعلون ذلك. اجعلوها في قمة أخلاقكم، كرروا ملء فاهكم ليل نهار عن سعادة الفضيلة، وسكون الروح، وإنصاف العدالة الملازمة؛ بسرعة سيركم هذه ستنتهي تلك الأشياء الممتازة بأن تستميل قلب الشعب، وسيكون صراخ الشارع إلى جانبها: إلا أنها وبمرورها من يد إلى يد ستنتهي بأن تفقد كل وهجها، أنحس، يتحول ذهبها إلى رصاص. آه، كم أنتم خبراء في مضادات ـ الخيمياء هذه! كم أنتم ماهرون في تبخيس أثمن الماهيات! فلتحاولوا مرة إذن، على سبيل التجربة، وصفة مختلفة، إذا كنتم لا تريدون، كما حصل معكم لغاية الآن، أن تحصلوا على نقيض ما تبحثون عنه: أنكروا هذه الأشياء الممتازة، إحرموها من تصفيق الجماهير، أعيقوا تداولها، اجعلوها من جديد الحشمة السرية للروح المتوحدة، قولوا أن الأخلاق فاكهة ممنوعة! ربما تربحون إلى جانبكم النوع الوحيد المهم من الرجال، أقصد عرق الأبطال. إلا أنه يلزم لهذه القضية أن توحي بالخشية وليس بالاشمئزاز، مثلما فعلت حتى الآن! ألا يستميلنا اليوم أن نقول للأخلاق، على طريقة المعلم ايكارت Eckart: «أستجير بالله على أن يبرئني من الله»؟

293 - جوُّنا

إننا نعرفه جيداً!.. ان من يكتفي بالقاء نظرة عابرة على العلم ـ شأنه في ذلك شأن النساء ومعظم الفنانين، للاسف ـ يبدو له أن جفاء العلم الذي يتطلبه من خدمه، هذه الصرامة التي لا ترحم التي يطالب بها في أصغر الأمور وأكبرها، هذه السرعة في التقويم التي يفرضها في البحث، في الحكم وفي القرار، لديها شيء ما مروع ومخيف. إن ما يروع رجلنا هو أن يطلب منه هنا أن يعطي أقصى ما لديه وأن يحقق المستحيل، من دون أن يحصد التكريم أو المديح على الاطلاق. بينما على العكس من ذلك تماماً، فإنه لا يسمع في الحياة العسكرية إلا اللوم أو التبكيت العنيف، وبلهجة آمرة لأن النجاح هنا هو القاعدة، ويجب ألاّ يكون الفشل سوى الاستثناء: وهنا، كما في كل مكان، للقاعدة فم صامت. يجري

الأمر في هذا «التقشف» في المجال العلمي كما اللياقة في المجتمعات العالية، إنها تخيف الجاهل. لكن من يعتادها لا يعود بامكانه العيش في أي مكان آخر غير هذا الجو المضيء، الشفاف القرير والمشبع بالتفريغ الكهربائي، وباختصار في هذا الجو الرجولي. وكل مكان آخر يبدو له أنه قذر ولا يستطيع التنفس: إنه يخشى ألاّ يستفيد أحد من أفضل ما في فنه، وألاّ يجلب لنفسه أي متعة، ألاّ يسيل نصف حياته بين أصابعه وسط سوء التفاهم، وأن يكون مضطراً إلى قضاء حياته بحذر ومواربة وتحفظ تقضي على قواه من دون فائدة! بينما هنا، في هذا العنصر القاسي والشفاف تبقى طاقته كاملة: هنا بامكانه أن يطير! ما الذي يفيده من إعادة نزوله إلى المياه العكرة حيث يحكم عليه أن يسبح وأن يتوحل وأن يوسخ أجنحته! كلا! من الصعب جداً علينا أن نعيش في هذه الأماكن الفاسدة: هل هو خطأنا أننا ولدنا للهواء، للهواء الصافي، نحن منافسي شعاع النور، وإذا كان أغلى حلم لدينا أن نركب ذرات الأثير مثله، ليس هرباً من الشمس، بل على العكس صاعدين نحوها! هاك المستحيل، لنفعل إذن ما بامكاننا أن نفعله: أن نحمل الضوء إلى الأرض، لنكون «نور الأرض»! لهذا السبب نحن شجعان، حتى أننا رهيبون، شبيهين بالنار. فليخشنا أولئك الذين لا يعرفون أن يدفئوا أنفسهم ولا أن يضيئوا قرب النار التي نشكلها نحن.

294 ـ ضد المفترين على الطبيعة

أي كائنات كريهة هم هؤلاء الرجال الذين يصير، للحال، كل ميل طبيعي عندهم مرضاً، ويفعل بطريقة مشوهة، لا بل مهينة ـ إنهم هم من جعلنا نعتقد أن كل ميول الانسان وغرائزه كانت وبالاً: إنهم هم علة جورنا العظيم نحو طبيعتنا، نحو كل طبيعة! هناك عدد من الرجال يحق لهم أن يستسلموا لميولهم ولاندفاعاتهم برضى وبدون مبالاة: إلا أنهم لا يقومون البتة بذلك، لخشيتهم من خبث الطبيعة المتخيل هذا! لهذا قلما نلقى نبلاً بين الرجال: لأن التعرف على نبل الروح يتم دائماً في انها لا تخاف من ذاتها، ولا تنتظر من نفسها أي شيء مهين وتطير بلا تردد شأنها شأن عصفور ولد حراً، إلى أي مكان تدعوها اليه رغبتها! في أي مكان تمضي يكون هناك دائماً الشمس والحرية.

295 ـ عادات قصيرة

أحب العادات التي لا تدوم؛ فهي لا تقدر بثمن إذا أردنا أن نعرف الكثير من الأشياء، الكثير من الحالات، أن نسبر كل عذوبتها، ومرارتها: لدي طبيعة مصنوعة للعادات القصيرة؛ حتى في حاجات صحتها الجسدية، وبشكل عام، كل ما أستطيع أن أراه فيها من شهواتها العالية والواطئة. أتخيل دائماً أن هذا الشيء أو ذاك سيرضيني باستمرار ـ ذلك أن للغادة القصيرة، إيمان الشغف هذا، الايمان بالأبدية ـ أتخيل أني محسود لأني اكتشفت هذا الشيء، ومذّاك يصير هذا الاعتقاد يغذيني ليل نهار، ويسبغ علي رضى ينفذ نعيمه إلى أعماقي، ولا يعد باستطاعتي أن أرغب بشيء آخر دون مقارنة أو احتقار أو كره، ثم، وذات يوم ينتهي كل شيء؛ لقد انتهى وقت العادة، عندها يتركني الشيء العزيز، ليس بتأثير نفوري، بل في سلام شبعاً مني، وأنا شبعاً منه، وكأنما لدينا اعتراف متبادل نمد يدنا لنودع بعضنا البعض. وبالأصل ينتظرني شيء جديد، ينتظرني عند عتبة الباب مع إيماني ـ الذي لا يفنى جنونه...، وحكمته! ـ بأن هذا الشيء الجديد سيكون الجيد، الحقيقي، الأخير... وهكذا في كل أمر، طعام، أفكار، ناس، مدن، أشعار، موسيقى، عقائد، نظام اليوم وطرق العيش. بالمقابل فإني أكره العادات الثابتة ويبدو لي أن طغاة يقتربون مني ليسمموا هوائي الحيوي بأنفاسهم ما ان تتجه الاحداث بشكل يبدو أنه يجب أن ينتج عنها عادات نهائية: مثلاً نتيجة لوظيفة اجتماعية، أو لتردد مستمر على وسط بعينه، أو لسكن مستقر، أو لنوع وحيد من الصحة. نعم أني أعترف أنني في أعمق أعماق روحي، أدين بالرضى للمآسي الجسدية لمرضي ولكل شوائبي، لأنها تترك آلاف المخارج التي تسمح لي بالانفلات من العادات النهائية ـ إن ما لا طاقة لي على تحمله، والحق يقال، ما يرعبني حقاً، هو حياة خالية تماماً من العادات، حياة تفرض إرتجالاً مستمراً، فهذا منفاي، سيبيريا الخاصة بي.

296 ـ السمعة الصلبة

كانت السمعة الصلبة فيما مضى ضرورة قصوى: في كل مكان تسيطر في مجتمعه غريزة القطيع، لا يزال من الأنسب لكل فرد أن يقدم طبعه

واهتماماته على أنها معطيات نهائية، حتى عندما لا يكون الأمر كذلك. «يمكن الوثوق به، إنه ثابت» هاك ما يشكل في كل ظروف المجتمع الخطرة أهم ثناء. بالواقع، يُسعد المجتمع أن يشعر أنه يملك آلة مستعدة دائماً، يوثق بها دائماً، في فضيلة هذا، وفي طموح ذاك، وفي تأمل وهوى ذلك الآخر أيضاً؛ وهو لا يكرم شيئاً بمقدار ما يكرم هذه الطبيعية الآلية، فهو يفيض في تبجيل الانسان المخلص لذاته، والذي لا يغير آرائه، ولا يتغير في جهده، لا بل في عيوبه. إن هذه الطريقة في الحكم، والتي ازدهرت وتزدهر في الوقت عينه في كل مكان مع أخلاقية التقاليد تربي «الطبع» وتكرس زوال حظوة كل تغيير، كل إعادة تعلم، كل تأويل جديد، كل تحول في الذات. والحال فإنه مهما عظمت منافع هذه الطريقة في التفكير، فإن هذا النمط من الأحكام هو ما يسيء أشد الاساءة إلى المعرفة: لأن ما تتم محاكمته وتزول حظوته في هذا الفعل هو بالذات إرادة العَالِمْ الطيبة بأن يرمي من دون وجل وفي كل لحظة ما كان يشكل حتى اللحظة رأيه الخاص، وأن يحذر بشكل عام من كل ما يهدد «بالتأصل». يعتبر رأي الباحث مخادعاً بصفته عدواً «للسمعة الصلبة»، بينما يحصل تخثر الآراء على كل تكريم: هاك القاعدة التي لا يزال علينا أن نحيا بظلها حتى أيامنا هذه! وما أصعب العيش عندما نشعر أننا نتنفس هواء، أحكام عدة آلاف من السنين! من المحتمل أن المعرفة خلال قرون وقرون كان لها ضمير متعب، وأن حياة كبار العقول لم تكن لتمر من دون أن يحتقروا أنفسهم وأن يعانوا في السر من البؤس.

297 ـ معرفة مخالفة القول

لا يخفى على أحد اليوم أن القدرة على تحمل التناقض هو دلالة رفيعة على الثقافة. حتى أن البعض يعرفون أن الرجل الأعلى يتمنى ويثير التناقض ليحصل على دلالة نسبية لتعسفه الخاص، الذي كان سيجهله بدون ذلك. إلا أن معرفة المناقضة، والحفاظ على ضمير مرتاح مكتسب من العداء لكل ما هو اعتيادي، تقليدي، ومقدس، هاك ما يشكل أكثر من تحمل واثارة التناقض، هاك ما هو ـ جوهري ـ عظيم، جديد ومدهش في ثقافتنا، هاك الخطوة الأسمى للذهن المتحرر: من يقدر على ذلك اليوم!

298 ـ أنين

قبضت على هذه الفكرة وهي طائرة، ومن خشيتي من أن تفلت مني ثبتها في أول كلمات سيئة جاءتني. وها هي قد ماتت من جفاف هذه الكلمات، وتبقى معلقة فيها رخوة مهتزة، وأكاد عندما أنظر إليها، لا أعرف كيف كنت سعيداً بالتقاط هذا العصفور.

299 ـ ما يمكن تعلمه من الفنانين

ما هي الوسائل التي نملكها لنجعل الأشياء جميلة، جذابة ومرغوبة، عندما لا تكون كذلك؟ ويبدو لي أنها في ذاتها ليست كذلك على الاطلاق. هنا ثمة وصفات علينا أن نتعلمها من الأطباء، الذين يُحلِّضون مثلاً، المر، أو يخلطون السكر والخمر، أكثر من هؤلاء، هناك الفنانين الذين لا يتوقفون في العمق عن هذا النمط من الاختراعات، من أن يفعلوا فعل الأبطال. الابتعاد عن الأشياء حتى يختفي العدد الكبير من تفاصيلها ويجبر العين على أن تضيف تفاصيل أخرى لتتمكن من رؤيتها، أن يخفيها بزاوية بطريقة لا نعود نرى إلا جزءاً منها، أن نرتبها بشكل يخفي بعضها بعضاً بحيث لا يسمح للنظر إلا بأن يقوس منظورها؛ او أن نراها من خلال زجاج ملون أو على ضوء المغيب؛ أن نعطيها سطحاً، بشرة، لا تكون شفافة تماماً؛ كل هذا علينا أن نتعلمه من الفنانين، إضافة إلى أنه علينا أن نكون أكثر حكمة منهم. لأن قوتهم الحادة تتوقف عادة حيث يتوقف الفن وتبدأ الحياة؛ أما نحن، فإننا نريد أن نكون شعراء حياتنا، وقبل كل شيء في التفاصيل الصغيرة، وفي أتفه أمور الحياة اليومية الحميمة.

300 ـ ممهدو العلم

هل تعتقدون أنه كان بامكان العلوم أن تنمو وتكبر، لو لم يكن قد تقدمها هؤلاء السحرة والخيميائيون والمنجمون والرقاة، الذين كان عليهم في البدء بواسطة طعم سراب ووعود أن يثيروا الجوع والعطش، ممهدات إلى القدرات الخفية، إلى القوى الممنوعة؟ ألا ترون أنه قد لزم التنبؤ أكثير بكثير مما يمكن الحصول عليه ليكون بالامكان القيام بأدنى شيء في مجال المعرفة؟ اننا نرى هنا مجرد تمهيد للعلم، تمارين تحضيرية لم يشعر بها

على أنها كذلك ولم تمارس على أنها كذلك: وعلى النحو عينه، ربما سيرى عصر بعيد، في الدين أيضاً مجرد تمرين، تمهيد ربما لن تكون الاديان إلا وسيلةً غريبة ليتمتع بعض الرجال ذات يوم بالشرط الالهي في أن يكتفوا بأنفسهم كما بالقوة الخاصة بالاله، في أن يعيدوا شراء ذواتهم. أحسن من ذلك. سيمكن السؤال ـ خارج هذه المدرسة وما قبل التاريخ الديني هذا، هل سيكون الانسان قد تعلم أن يشعر بالجوع والعطش إلى ذاته وأن يجد في ذاته الشبع والوفر؟ ألم يكن على بروميثوس أن يصدق أنه قد سرق النور، وأن يكفر عن هذه الفاحشة، . ليكتشف أخيراً أنه برغبته هو من خلق هذا النور وانه قد صنع بيديه وجبل بأصابعه ليس فقط الانسان بل الاله؟ وان كل هذا لم يكن إلا تماثيلاً لنحات؟ شأن الجنون والتحليق والقوقاز والعُقاب وكل التراجيديا البروميثوسية لكل الباحثين عن المعرفة؟

301 ـ هذيان المتأملين

يتميز الرجال الفائقون عن الرجال السافلين بقدرة فائقة على الرؤية والسمع وهم لا يسمعون ويرون إلا مع التأمل. وهذا بالضبط ما يميز الانسان عن الحيوان والحيوانات العليا عن الحيوانات الدنيا. ويغتني العالم باستمرار في عين من ينمو مرتفعاً نحو الأعالي الانسانية، تُرمى نحوه ـ خدع المنفعة أكثر فأكثر: تنمو باستمرار كمية ما يثيره في الوقت عينه الذي تنمو فيه مختلف أنواع لذته وعدمها. يصير الانسان الأعلى دائماً أشد فرحاً وفي الوقت عينه أشد تعاسة. ومع ذلك يصاحبه دائماً هذيان: فهو يعتقد بالواقع أنه قد وُضع بصفته مشاهداً ومستمعاً أمام أعظم مشهد سمفوني، الحياة، يسمي طبيعتها المتأملة دون أن يدرك أنه هو بنفسه شاعر الحياة، الذي يتابع تحضيرها الشعري ـ وأنه يتميز من دون شك عن ممثل هذه المأساة، ما يقال له الرجل العملي، ولكنه يتميز أكثر أيضاً عن المتأمل البسيط المدعو إلى حفل ليقبع في الصفوف الأولى. كمؤلف فإنه يملك من دون شك Vis contemplativa وملكة النظر الارتدادي إلى عمله، ولكن، وفي نفس الوقت، وقبل كل شيء يملك «vis activa» التي تنقص الرجل العملي مهما قيل عنه في الظاهر، وأياً كان الاعتقاد التقليدي. نحن من يفكر ومن يشعر، نحن في الحقيقة من يعمل ولم يتوقف عن فعل ما لم

يكن موجوداً من قبل: هذا العالم الابدي النمو من التقويم والألوان والأوزان والمنظورات والمراتب ومختلف أنواع التأكيد والنفي. هذه القصيدة التي ألفناها هي ما يتعلمه الرجال العمليون (ممثلينا، كما قلت)، يكررونها، يترجمونها في حرفيتها، في الفعل وفي الحياة العادية. كل ما له قيمة في العالم الحالي، لا يملكها في ذاته، لا يملكها بطبيعته ـ فالطبيعة دائماً لا قيمة لها، لقد تلقت قيمتها ذات يوم كهبة، ونحن كنا الواهبين! نحن من خلقنا العالم المتعلق بالانسان! ـ لكي يكون هناك عالم كان يجب أن نأتي!... إلا أن هذا بالضبط ما لا نعرفه، وعندما يحصل لنا أن ندرك ذلك فإننا ننساه بلمح البصر: إننا نجهل أفضل قوتنا ونقلل بعض الشيء من تقييمنا لأنفسنا، نحن المتأملون ـ إننا لسنا بفخورين ولا بسعداء بقدر ما يمكننا ذلك.

302 ـ خطر الأشد سعادة

ان تمتلك أحاسيس دقيقة وذوقاً رفيعاً؛ أن تكون معتاداً على أشهى وأجود ما يملكه الذهن، على انه طعامه المنطقي والطبيعي، أن تتمتع بروح قوية، شجاعة وجسورة، أن تمشي في الحياة بخطى ثابتة، قرير العين، أن تكون مستعداً للاسوأ دائماً كما لو كنت تستعد لفرح، مفعم دائماً برغبة البحار والعوالم التي لم تكتشف بعد وبالرجال والآلهة المجهولة، ان تنصت أذنيك لكل موسيقى فرحة كما لو كانت تشير إلي صدى اللذة القصيرة، الراحة الوجيزة التي يبيحها الشجعان، والجنود والبحارة لأنفسهم، في هذه الأماكن البعيدة، تعتريهم الدموع فجأة في نعيم اللحظة التي يهزمها نعيم التعاسة القرمزي: من لا يحب أن يكون هذا خيره، وحالته الشخصيين! تلك كانت سعادة هوميروس! حالة الرجل الذي منح اليونانيين الهتهم، لا، من منح الآلهة لنفسه! ولكن ـ ولا نكتم الأمر ـ م سعادة هوميروس هذه في الروح لا نزال أشد المخلوقات قدرة تحت الشمس على المعاناة: وبهذا الثمن فقط نشتري أثمن القواقع التي ألقاها بحر الوجود على شطآنه حتى اليوم. إن مالك هذا الكنز الثمين يصير أكثر فأكثر حساسية لدقائق المعاناة، ويصير في النهاية حساساً بافراط: كان يكفي هوميروس حركة انحراف مزاج بسيطة أو نفور، لتنكد عليه حياته. لم

يكن باستطاعته أن يكتشف «حزورة» صغيرة طرحها عليه صيادين شباب ليحلها!... آه نعم! إنها الألغاز الصغيرة التي تشكل خطراً للأشد سعادة.

303 ـ كائنان سعيدان

حقاً، وبالرغم من فتوته، يعرف هذا الرجل، في الحياة، أن يرتجل؛ وهو يدهش أشد المراقبين دقة: يبدو أنه لا يخطئ أبداً، مع أنه يلعب باستمرار أشد الألعاب خطورة. لا يمكن عند رؤيته ألاّ نفكر بمعلمي الارتجال الموسيقي هؤلاء الذين يتوق المستمع إلى أن يمنح أيديهم عصمة إلهية، مع أنها تخطئ أحياناً شأنهم في ذلك شأن كل فان. ذلك أنهم بارعون مبتكرون، ومستعدون دائماً إلى أن يعلقوا في اللحظة ذاتها الصوت الصادر عن الصدفة أو عن نزوة أصابعهم في مجمل عملهم الموضوعي، ذلك أنهم يعرفون دائماً أن يحيوا في هذه الصدفة حساً جميلاً وروحاً جميلة.

هاك الآن رجلاً آخر يمكن القول أنه في العمق، يفشل في كل ما يريده أو يشرع به. إن ما، في المناسبة، يشغل أعز ما في قلبه قد قاده، لأكثر من مرة، إلى قاب قوسين من الخراب: وإذا نجا من ذلك، فإنه لا ينجو فقط مع «عين متورمة» أتعتقدون أن ذلك يتعسه؟ لقد قرر منذ زمن بعيد أن لا يعير أهمية كبرى لرغباته أو مشاريعه، فهو يقول لنفسه «إذا لم ينجح معي هذا الأمر، ربما سينجح ذاك الأمر الآخر، وما أدراني، إذا لم أكن مديناً لفشلي أكثر مما أنا مدين لنجاحي؟ هل أنا مصنوع لأكون عنيداً، وأن أحمل قرون الثور؟ إن ما يعطي قيمة وفائدة للحياة بالنسبة لي يقبع في مكان آخر. فأنا أعرف الحياة أفضل منكم، لأنني غالباً ما كنت على حافة فقدانها: لهذا السبب أملك منها أكثر منكم جميعاً!».

304 ـ بالفعل يتم التخلي

أكره في العمق، كل هذه الأخلاق التي تقول: «لا تفعل هذا، لا تفعل ذاك. تخلى! تغلب على نفسك». بالمقابل أحب تلك الأخلاق التي تدفعني لفعل شيء ما، لإعادة فعله، للتفكير به ليل نهار، لأحلم به ليلاً، ألاّ يكون لدي هماً آخر إلا أن أفعله بشكل جيد، بمقدار ما أستطيع ذلك،

وأقدر عليه بين كل الرجال. فالعيش بهذه الطريقة يجرد كل الهموم التي لا تدخل أبداً مع هذه الحياة واحداً واحداً: فترى الشيء يمضي اليوم بدون كره ولا نفور، وغداً ذاك شأن الأوراق المصفرة التي تنفصل عن الشجرة، عند أقل هبة ريح حية. أو حتى أننا لا ننتبه للأمر، لشدة ما يستوعب الهدف نظرنا، لشدة ما تصر العين على أن ترى أمامها، لا تحيد إطلاقاً لا إلى اليمين ولا إلى اليسار ولا نحو الأعلى ولا نحو الأسفل. «إن نشاطنا هو الذي يحدد ما الذي سنتخلى عنه، بفعلنا يتم تخلينا»...، هاك ما أحب، هاك الـ «Placitum» الخاص بي، إلا أنني أرفض أن أطمح بوعي إلى فقري، ولا أحب أي من تلك الفضائل السلبية التي يشكل الجحود وإنكار الذات ماهيتها.

305 ـ السيطرة على الذات

إن هؤلاء الأخلاقيون الذين يدْعون أساساً، وفي المقام الأول إلى أن يسيطر الانسان على نفسه، يثيرون لديه مرضاً فريداً! أقصد توتراً مستمراً، نوع من التآكل الذاتي يصير طريقته في الرد على كل التوترات الأكثر طبيعية. مذّاك، أي أمر يحصل سواء من الخارج أو من الداخل، أي أمر يلتقيه أو يجذبه أو يحثه أو يدفعه، يبدو لهذا المتوتر أن سيطرته على نفسه في وضع خطير؛ لم يعد لديه الحق في أن يثق بأي غريزة. بأن يستسلم لأي شراع ويبقى في حالة دفاع من دون راحة، العين منتبهة وحذرة، نافشاً أسلحته ضد نفسه، حارساً أبدياً للقلعة التي تحول إليها من تلقائه. بالطبع قد يعطيه هذا الدور عظمة! لكن كم صار لا يحتمل بالنسبة للآخرين! ثقيلٌ على نفسه، فقير أخيراً، مغلق بإحكام عن أجمل صدف الروح، وعن كل درس مستقبلي! لأنه علينا أن نعرف أن نضيع أنفسنا لوقت إذا كنا نريد أن نتعلم شيئاً جديداً مما لا نشكله نحن بأنفسنا.

306 ـ رواقيون وأبيقوريون

يختار الأبيقوري الظرف والأشخاص وحتى الاحداث التي تلائم طبيعته الفكرية المتهيجة إلى أقصى حد. ويتخلى عن كل شيء آخر ـ أي عن أغلب الأشياء تقريباً ـ إذ أنها تشكل بالنسبة له غذاء مفرط القوة

والثقل. بينما يتمرن الرواقي على بلع الحصى والدود وكسرات الزجاج والعقارب وأن يبقى من دون قرف؛ على معدته أن تصير لا مبالية تجاه كل ما ترميه الصدفة فيها؛ إنه يجعلنا نفكر بهذه الطائفة العربية Aïssouas (العيسوية) التي تلقاها في الجزائر: وشبيهاً بفاقدي الحس هؤلاء يجب أن يكون لديه جمهوراً من المدعوين ليصفقوا لمشهد فقده الاحساس، هذا الجمهور الذي ينصح الابيقوري بالضبط بالابتعاد عنه، فلهذا الأخير، في الواقع، «حديقته»!. إن الرجال المعرضون لضربات القدر، أولئك الذين يعيشون في المراحل العنيفة ويخضعون لقانون الرجال النزويين والمندفعين، يُنصح بالرواقية، ولكن من يملك إمكانية استباق الحوادث مع بعض اليقين بأن القدر سيتركه ينسج نسيجاً طويلاً، من الأفضل أخذ احتياطات أبيقورية: لقد قام بذلك كل الرجال الروحانيين حتى الآن! إن أفدح خسارة لهؤلاء الرجال هي خسارة توترهم المرهف وأن يتلقوا بالمقابل جلد الرواقيين القاسي المنقوش بالشوك.

307 ـ لصالح النقد

يبدو لك في الوقت الحاضر خطأ في شيء كنت فيما مضى تحبه على أنه حقيقة أو على أنه محتمل: فترميه بعيداً عنك، وتتصور أن عقلك قد انتصر على هذا النحو. غير أنه ربما كان هذا الخطأ في الماضي، بينما كنت لا تزال غير ذاتك ـ وأنت دائماً غير ذاتك ـ ضرورياً لك بمقدار ضرورة حقائقك «الحالية». لقد كانت نوعاً من الجلد الذي يخفي ويغطي الكثير مما لم يكن يحق لك بعد أن تراه. إنها حياتك الجديدة وليس عقلك من قتل فيك تلك الفكرة: إنك لم تعد بحاجة إليها، فهي بالتالي تنهار، وتتحرك لا عقلانيتها وتظهر كالدودة في وضح النهار. عندما نمارس ذهننا النقدي فإنه ليس عبثياً، ولا غير شخصي، إنه في الأغلب، إجمالاً، دليل على أن قوى حية تعمل فينا مستعدة لسلخ قشرتها. فإننا ننكر ونحن مضطرون لذلك، طالما شيء ما يريد فينا أن يحيا وأن يتأكد، شيء ما ربما كنا نجهله، ربما كنا لا نراه بعد! لنعطي هذه العلامة الجيدة للنقد.

308 ـ حكاية كل يوم

ما الذي يشكل عندك حكاية كل يوم؟ لتنظر في العادات التي تؤلفه: هل تنتج عن حشد من الدناءات، عن حشد من التكاسلات الصغيرة، أو عن شجاعتك وعقلك الراجح؟ مهما اختلفت هذه الأصول يمكن في الحالتين أن يمنحك البشر الثناء عليه، وان تكون أنت بالمقابل، في كل الأحوال، ذا فائدة مساوية لهم، إلا أنه يمكن للثناء والمنفعة والاحترام أن يكفوا من يسعى فقط إلى راحة الضمير. . .، إلا أنهم لا يكفونك، يا راجس الحقيقة، يا من يملك علم الضمير!.

309 ـ من أعماق سابع وحدة

ذات يوم وقد أغلق الباب خلفه، توقف المسافر، وبكى، ثم قال: وهذه الحاجة إلى الحقيقي، هذا العطش إلى الواقعي، والأكيد، هذا الكره للظاهر. . . آه، كم أحقد عليها. لماذا هذا الطارد الكامد والشغف يتعلق بي أنا بالضبط؟ أحب أن أرتاح، إلا أنه لا يسمح لي! بالنسبة لي ليس هناك سوى حدائق أرميد Armide، حيث تقتلعني من دون توقف أشياء جديدة، ومرارات قلب جديدة! يلزمني أن أتقدم أيضاً، أن أرفع هذه القدم التعبة، هذه القدم المجروحة؛ ولأنه علي أن أتقدم، لم يعد لدي في الغالب للأشياء الجميلة التي لا تستطيع أن تمسكني إلا نظر مليء بالجزع ـ لأنها لا تستطيع أن تمسكني!».

310 ـ موج وإرادة

كيف تقترب تلك الموجة بجشع، كأنما تريد أن تبلغ شيئاً ما! بأي سرعة رهيبة تزحف في أشد زوايا الصخور سرية! يبدو كأنها تريد أن تسبق أحد ما إليها، يبدو أن فيها، شيء ما ثمين، ثمين للغاية!. . . والآن ها هي ترجع، ببطء قليل، لا تزال بيضاء من الانفعال، . . هل خاب أملها؟ هل وجدت ما تفتش عنه؟ أليست خيبتها هذه إلا تصنُّعاً؟ لكن ها قد أتت موجة أخرى، أشد جشعاً وأيضاً أشد وحشية من الأولى، وتبدو روحها أيضاً مفعمة بالالغاز، مفعمة بشهوة الباحثين عن الكنوز. هكذا تحيا الأمواج، هكذا نحيا نحن أيضاً، نحن من يستخدم الارادة!. . . لن أقول

أكثر بهذا الخصوص... آه، ماذا! أتحذرين مني! أتسخطين عليّ أيتها الوحوش الجميلة؟ أتخشين أن أبوح كلياً بسرك؟؟ فليكن! أتغضبين، أرشقي بأعلى ما تستطيعينه بأجسادك الخضراء، أجسادك الخطيرة، أقيمي حائطاً كما تفعلين، بيني وبين الشمس! لم يعد هناك من شيء في العالم سوى هذا الغسق الأخضر البحري الجلي والبرق الأخضر. اهتاجي أيتها العنيفة أصرخي من اللذة ومن اللؤم، ... أو عاودي غطسك، اعدمي زمرداتك في المهاوي، إرمي فوق جُزُرك اللامتناهية، جُزُرك البيضاء من الرغوة والزبد؛ أستحسن كل شيء، لأن كل شيء يستوي عندك! وأنا مدين لك بهذا كثيراً؛ كيف بامكاني أن أخونك! لأنني - إسمعي - أعرفك، وأعرف سرك، أعرف من أي عرق أنتِ! إننا من ذات العرق، أنت وانا نتقاسم السر عينه.

311 - أشعة منكسرة

لسنا شجعاناً دائماً، وعندما نتعب، يحصل لأكثر من واحد منا أن يشتكي على هذا النحو: «إنه لمن الصعب ألاَّ نسيء إلى البشر - آه، ما هو الضروري في ذلك؟ ما الفائدة من العيش مختبئين إذا كنا لا نريد أن نحتفظ لأنفسنا بما يثير الفضيحة؟ أليس من الأجدى أن نعيش وسط المعترك مصلحين في الأفراد الخطايا التي سترتكب، والتي يجب ارتكابها أمام المجموع؟ أن تكون مجنوناً مع المجانين، مغروراً مع المغرورين، متحمساً مع المتحمسين؟ ألن يكون من العدل أن نبتعد عنهم بسفاهة بشكل عام؟ عندما أعرف الاساءات التي ارتكبها الآخرون بحقي، ألا تكون ردة فعلي الأولى بأن أفرض التعويض على ذلك؟ هاك ما هو طيب ما يبدو لي اني أقوله لهم، إني أتفق بشكلٍ سيء معكم، لدي الكثير من الحقائق بجانبي! إذن إرتاحوا جيداً على حسابي، بمقدار ما تستطيعون ذلك! هاكم عيوبي، أخطائي، جنوني، واضطرابي، هاكم دموعي، غروري، هاكم أيضاً سري الليلي وتناقضاتي، أليس لديكم هنا ما يضحككم! إضحكوا إذن، الهوا جيداً! فأنا لا أحقد على قانون الأشياء ولا على طبيعتها التي تريد أن تكون الاخطاء والعيوب سخرية للآخرين! بالطبع، كانت هناك أوقاتاً «أشد جمالاً» أوقاتاً نشعر فيها مع كل فكرة جديدة بعض الجدة أننا ضروريون،

حيث كان بامكاننا ونحن متسلحون بهذه الفكرة أن ننزل إلى الشارع وأن نصرخ في كل واحد: «أنظر، إن مملكة الله قريبة! أما فيما يخصني فإني لا ألحظ غيابي لو أني تغيبت. ما من أحد منا بضروري!» إلا أنني أكرر لا نفكر بهذه الطريقة عندما نكون شجعاناً: عندما نكون شجعاناً نحن لا نفكر بذلك...

312 ـ كلبتي

لقد أعطيت إسماً ألمي وأسميته «كلبة»... فهو وفي ولجوج وسفيه وملهٍ وذكي تماماً مثل أي كلبة... وباستطاعتي أن أكون لاذعاً معه، بلهجة متسلطة وأن أفرغ عليه مزاجي، كما يفعل الآخرون مع كلابهم وخدمهم ونسائهم.

313 ـ ما من لوحة استشهاد

أريد أن أفعل ما فعله رافائيل، ألاَّ أرسم شهداء، ثمة سناءٍ في مكان آخر حتى لا نسعى إليه في المكان الذي يعيش فيه مع القساوة كأخت له: ولن يجد طموحي أي لذة في أن أرى نفسي وقد صرت جلاداً سنياً.

314 ـ حيوانات داجنة جديدة

أريد أن أرى نسري وأسدي في متناول يدي لكي تأتيني في كل لحظة إشارات وتنبؤات عن مقدار قوة أو ضعف قوتي. أيجدر بي أن أخفض عيني باتجاههما؟ ألا يمكنني أن أمتنع عن خشيتهما؟ أستعود أيضاً تلك اللحظة التي سيكونان فيها هما من يرفعان نظرهما بوجل نحوي؟

315 ـ من آخر لحظة

العواصف هي خطري: أأحصل على العاصفة التي سأخضع لها، كما خضع أوليفيه كرومويل Olivier Cromwell لعاصفته؟ أو أنني سأنطفئ كمشعل لا ينتظر إلا أن تنفخه الريح، ولكنه تعب ومرتوٍ من نفسه ـ مشعل تلف؟ أم أخيراً سأنفخ بنفسي لنفسي حتى لا أتلف نفسي؟

316 ـ رجال النبوة

أنتم لا تريدون أن تفهموا أن رجال النبوة هم كائنات تتألم كثيراً: إنكم تفكرون فقط أنهم قد تلقوا «هبة» جميلة وأنكم تحبون كثيراً أن تمتلكوها أنتم أيضاً؛ لكن سأستخدم الرمز هنا، كم على الحيوانات أن تتألم من الجو والغيوم المشحونة بالكهرباء! إننا نرى أن لبعض الأنواع مقدرة تنبؤية بخصوص الطقس، شأن القردة (يمكن ملاحظة الظاهرة حتى في أوروبا وليس فقط في معارض الوحوش، بل في الهواء الطلق، في جبل طارق). إلا أننا لا نشك أن آلامهم هي التي تتنبأ! عندما تقترب بتأثير غيمة، ولا تزال بعيدة عن مجال الرؤية، تنقلب شحنة كهربائية قوية إيجابية إلى شحنة سلبية، وسط تغير في الجو، تسلك هذه الحيوانات كما لو كان عدواً سيقترب؛ تتهيأ للدفاع أو الهرب: وعادة ما تختبئ، إنها لا ترى الظاهرة الجوية في الطقس السيء، إنه العدو، عدو تشعر مسبقاً بيده.

317 ـ نظر استعادي

نادراً مانعي الشغف الخاص بكل مرحلة من حياتنا طالما لم تنته هذه المرحلة. إننا نعتقد دائماً أن هذا الهوى يشكل بالنسبة لنا من الآن فصاعداً الحالة المنطقية الوحيدة، الوحيدة الممكنة، وانها «ethos» وليس «pathos»، شغف إذا تكلمنا وميزنا على طريقة اليونان. لقد ذكرتني بضعة نوتات موسيقية اليوم بشتاء ومنزل، حياة متوحدة تماماً وبمزاجي في ذلك الوقت: كنت اعتقد أنني سأحتفظ بها طيلة حياتي. إلا أنني قد فهمت الآن أنها كانت «شغف»، شغف صرف، شأنها شأن هذه الموسيقى الشجاعة بأسى والمعزية؛ هذا النوع من الهوى الذي لا ينبغي أن نحتفظ به لسنوات أو للأبدية؛ إذ أننا ننتهي بأن نصير مفرطي الاثيرية لهذا الكوكب.

318 ـ حكمة الألم

في الألم حكمة توازي حكمة اللذة: مثل اللذة يشكل الألم في المقام الأول جزءاً من القوى التي تحفظ النوع. لأنه لو لم يكن كذلك لكان الألم قد اندثر منذ زمن طويل: أن يوجع الألم لا يشكل دليلاً ضده. فالوجع ماهيته فقط. إسمع فيه أمر القبطان: «ارخوا الاشرعة» على البحار

المقدام أن يتمرن على التحكم بأشرعته بألف طريقة؛ وألا ينتهي الأمر معه باكراً جداً، ويبتلعه المحيط بسرعة. علينا أن نجيد الحياة أيضاً مقلصين قوانا: ما ان يعطي الألم إشارته، تكون اللحظة مناسبة خطر عظيم عاصفة تتحضر، ومن الأفضل أن نهديها أقل «مساحة» ممكنة. ومع ذلك هناك أشخاص عند اقترابُ ألم عظيم، يسمعون الأمر المناقض، ولا يكونون أشد فخراً، أشد شراسة، أشد سعادة إلا عندما تصل العاصفة، ماذا أقول: إن العاصفة نفسها هي التي تعطيهم أعلى لحظاتهم! إنهم الرجال البطوليون، كبار «رسل الألم»: هؤلاء النادرون، هؤلاء الاستثنائيون الذين يجب مدحهم بمقدار مدح الألم نفسه! ولا يمكن أن نرفضه لهم! إنهم المحافظين على النوع، إنهم محرضين من النمط الأول، حتى عندما لا يكون الا لأنهم يقاومون الرفاهية ولا يخفون إشمئزازهم لهذا النوع من السعادة.

319 ـ مؤولي تجاربنا المعاشة

ثمة نزاهة تبقى غريبة عن كل مؤسسي الاديان ومن شابههم: ـ إنهم لم يجعلوا اطلاقاً من أحداث حياتهم مشكلة ضميرية «ما الذي عشته بالاجمال؟ ما الذي يجري معي في هذه اللحظة، ومن حولي؟ هل كان ذهني واضحاً بما فيه الكفاية؟ هل ناضلت إرادتي بما فيه الكفاية ضد خداع الحواس، هل حاربت الاشباح بشجاعة كافية؟ ما من أحد منهم طرح هذه الأسئلة، ما من أحد من رجال ديننا الطيبين قد طرحه اليوم أيضاً: إنهم بالعكس، عطاشاً لأشياء بامكانها أن تصطدم العقل، ولا يريدون أن يتعذبوا كثيراً لتسكين هذا العطش؛ كما انهم أيضاً يعيشون من «المعجزات» ومن «البعث»، ومن سماع أصوات الملائكة! لكن نحن، نحن الآخرون، العطاشى إلى العقل، نطالب بتفحص أحداث حياتنا ساعة بساعة، ويوماً بيوم! بصرامة توازي صرامة سيرورة التجربة العلمية! إننا نريد أن نكون تجاربنا الخاصة، نريد أن نكون الأرانب الخاصة بتجاربنا!.

320 ـ عند عودة اللقاء

A ـ هل أفهمك جيداً؟ إنك تبحث؟ أين تقع زاويتك، أين تقع نجمتك في خضم العالم الحاضر؟ أين سيكون مكانك في الشمس بحيث

تستطيع، أنت أيضاً، أن تتمتع بفائض من الهناء يبرر وجودك؟ ألا يمكن لكل واحد أن يتصرف تبعاً لحسابه ـ هذا ما يبدو أنك تريد أن تقوله لي ـ وأن يتوقف مرة واحدة وإلى الأبد عن الثرثرة عن المنفعة العامة، وعن القلق على مصير الآخر والمجتمع!.

B ـ إن طموحي أعظم من هذا بكثير، ولست إطلاقاً بباحث. ما أريده هو أن أخلق لنفسي شمساً خاصة.

321 ـ حذر جديد

فلنتوقف عن التفكير باستمرار بالعقاب، بالذم، بإرادة التحسين! ليس بمقدورنا أن نغير رجلاً واحداً، وإذا ما توصلنا إلى ذلك ربما سيكون، ولدهشتنا، أمراً آخر: إننا نحن من يكون قد تغير به! فلنحرص إذن بالأحرى على أن يعادل تأثيرنا على كل ما سيأتي تأثيره ويتجاوزه! فلنتوقف ... عن كل عقاب، عن كل ذم، عن كل محاولة تحسين تقود إلى الصراع المباشر. لكن بالعكس لنرفع أنفسنا دائماً إلى الأعلى، لنجعل مثلنا يضيء بعظمة أشد، لنظلم جارنا بسنى نورنا، لا، نحن لا نريد على الاطلاق أن نصير، بسببه، مظلمون على غرار كل المعاقبين، كل المتبرمين! لنضع أنفسنا بالأحرى جانباً! لنغض النظر!

322 ـ رمز

إن المفكرين الذين يفكرون أن الكواكب تدور في أفلاك دائرية ليسوا الأعمق: إن من ينظر في ذاته كمن ينظر إلى كون لا حد له، ويحمل في أعماقه سبلاً لبنية، يعرف أيضاً اضطراب كل الأفلاك: فهي تصل إلى الخواء، إلى متاهات الوجود.

323 ـ حظ

إن أعظم امتياز يمكن للقدر أن يمنحنا إياه هو أن يتركنا نحارب لفترة من الزمن إلى جانب أعدائنا، لأنه يهيئنا بذلك لنصر عظيم.

in media vita ـ 324

لا ، لم تخيب أملي الحياة، كل سنة أجدها أفضل، أشد رغبة وأشد غموضاً، . ـ منذ ذاك اليوم الذي جاءتني فيه محررتي الكبرى، فكرة أنه يمكن للحياة أن تكون تجربة لأولئك الذين يسعون إلى المعرفة، وليست واجباً، قدراً، خداعاً !. . . أما المعرفة نفسها، سواء كانت لآخرين، سرير راحة أو طريقاً لسرير راحة، أو ذهول أو بطالة، فإنها بالنسبة لي عالم المخاطر، كون من الانتصارات حيث للمشاعر البطولية ميدانها وصالة احتفالاتها. «الحياة وسيلة للمعرفة». عندما يملك هذا الشعور القلب يمكن أن نعيش ليس فقط بشجاعة ولكن بسعادة، يمكن الضحك بفرح! من الذي سيفقه إذن أن يضحك جيداً وأن يعيش جيداً إذا لم يفقه في البدء الحرب والانتصار؟

325 ـ ما يظهر العظمة

كيف تبلغ هدفاً عظيماً إذا لم تشعر في البدء بالقوة في ذاتك وبالارادة بأن تسبب آلاماً عظيمة؟ أن تعرف أن تتألم لهو أقل الأشياء: النساء الضعيفات لا بل العبيد، يتوصلون أحياناً إلى أن يكونوا أسياداً في هذا الفن. لكن أن لا تفنى من البؤس الداخلي، أن لا تموت من عدم اليقين بينما تسبب ألماً عظيماً، وتسمع تصاعد الصراخ، هذا هو العظيم، والذي يظهر العظمة.

326 ـ أطباء الروح والألم

لكل واعظي الأخلاق، كما لكل رجال اللاهوت ضرر مشترك: أنهم يسعون لاقناع الانسان بأنه في حالة سيئة جداً، وأنه بحاجة إلى علاج صارم، نوع من العلاج الأسمى والجذري. ولأن البشر بدون استثناء قد أعاروا السمع لقرون طويلة لهذا النوع من الأساتذة، فقد إنتهى الانسان إلى أن يشعر بجزء من هذا الألم الذي يفرضه عليه الإيمان بالخرافات: لدرجة أنهم صاروا معها مستعدين بافراط للتحسر لأن يجدوا ألاَّ شيء طيباً في الحياة وأن يضموا سحنتهم الكامدة إلى سحنة جارهم الكامدة كما لو أنه يصعب تحمل الحياة. وهم في الحقيقة لا يقبلون الشك بها، ومغرمون

فيها، ويفيضون بالحيل وبرهافة لا تصدق ما ان يتعلق الأمر بالغاء المكاره وبنزع سهام الألم أو التعاسة. يبدو لي أن ثمة مبالغة في كل مرة يتم الكلام فيها عن هذا الألم وهذه التعاسة، كأنما هذه هي اللهجة المناسبة لهذه الأمور: ونصمت قصداً، بالمقابل، أن لهذا الألم عدد لا يحصى من الأدوية، مثل المخدرات، أو حمى التفكير، أو وضعية مريحة، أو الذكريات الطيبة والسيئة، أو النوايا أو الآمال، والشفقة وكل أنواع الفخر، التي تعطي تأثيرات شبه مخدرة، وأنه في أعلى درجات الألم يتدخل الاغماء لوحده.

إننا متفقون تماماً على أن نسيل على مرارتنا كل رقة، وبالأخص على مرارة الروح: لدينا علاج بالجملة في الشجاعة وسمو المشاعر وفي الخضوع وفي التخلي. بالكاد يتم الشعور بالخسارة على أنها خسارة لمدة ساعة: إذ يصاحبها دائماً بطريقة أو بأخرى شعور بأن هبة تهبط علينا من السماء، قوة جديدة، مثلاً؛ .... حتى لو لم تكن الا فرصة جديدة للقوة! ما الذي لم يخيطه واعظو الأخلاق حول موضوع «البؤس» الحميم لكل لئيم! أي أكاذيب عن تعاسة الناس الشغوفين! نعم، «أكاذيب» هو اللفظ المناسب تماماً: لقد عرفوا ما يجب أقصى سعادة هذا النوع من البشر، إلا أنهم لم ينبسوا ببنت شفة. لأن هذه السعادة تهفت نظريتهم التي ترى أن ما من سعادة بامكانها أن تولد إلا من إعدام الشغف، وصمت الارادة!

وفيما يخص وصفة أطباء الروح هؤلاء وطلبهم بعلاج جذري، من المسموح أن نسأل: هل حياتنا مؤلمة بحق لدرجة كريهة، لدرجة أننا نكسب بتبديلها بنظام رواقي متحجر؟ إننا لا نشعر، بما فيه الكفاية، بكوننا في حالة سيئة، لكي نشعر أنه يجب علينا أن نكون كذلك في الرواقية.

327 ـ الأخذ مأخذ الجد

إن الفكر عند غالبية البشر هو آلة قاتمة وتصر لدرجة نيأس معها من أن نضعها موضع الحركة: عندما يريدون أن يشتغلوا بواسطتها ويفكروا جيداً، يسمون هذا: «أخذ الأمر مأخذ الجد»؛ آه! على التفكير الجيد هذا أن يكون أمراً صعباً بالنسبة لهم! ما ان يتعلق الأمر به حتى تضيّع البهجة الانسانية، على ما يبدو، كل مزاج طيب: فهي تقول: إنها تصير «جدية»!

الجيد هناك حيث الضحك، واللهو، لا يفيد الفكر بشيء؟ هذا هو الحكم المسبق لهذا الحيوان الخطير بخصوص كل «علم جذل» فليكن، فلنبرهن أنه حكم مسبق.

328 ـ الاساءة إلى البلاهة

إن رفض الانانية الذي تم الوعظ به باقتناع عنيد قد أساء، بالطبع إلى الأنانية بالاجمال (لصالح، ساكرره ألف وألف مرة، غرائز الانسان الجمعية)، وأساءا إليها بالأخص في أن نزع عن الانانية ضميرها المرتاح، ويأمرها أن تبحث في نفسها عن مصدر كل الآلام. «أنانيتك هي لعنة حياتك». هاك ما تم الوعظ به لآلاف السنين: وقد أساءا هذا الاعتقاد كما كنت قد قلت للأنانية، لقد خلع عنها الكثير من الفكر، من الصفاء ومن المهارة والجمال فجعلها حمقاء بشعة وفاسدة.

على العكس كان الفلاسفة القدماء يعينون للشر مصدراً آخر: لم يتوقف المفكرون منذ سقراط، عن الوعظ: «إن طيشك وبلاهتك وعاداتك بأن تقتات تبعاً للقاعدة، بخضوعك لحكم الجار، هي التي تمنعك غالباً من أن تكون سعيداً؛ إننا نحن المفكرون، نحن الأسعد، لأننا نفكر». إننا لا نسأل هنا إذا كانت هذه الموعظة ضد البلاهة مدعومة أكثر من الموعظة ضد الانانية؛ إن ما هو أكيد هو أنها تجرد البلاهة من راحة الضمير: لقد أساءا هؤلاء الفلاسفة إلى البلاهة.

329 ـ وقت فراغ وبطالة

ثمة وحشية خاصة بدم «الجلد الأحمر» في عطش الامريكيين إلى الذهب: واستعجالهم الذي لا يرتاح إلى العمل ـ آفة العالم الجديد بحصر المعنى ـ بدأت بتوحش أوروبا العجوز بالعدوى، ناشرة فيها عقماً غير معقول في التفكير. منذ الآن صار هناك خجل من الراحة: ويكاد المرء يشعر بالندم في التأمل. يتم التفكير والساعة في المعصم، كما اننا نفطر والعين على جريدة البورصة: يتم العيش شأن السيد الذي يخشى أن «يفوته» شيء ما. «من الأفضل أن نفعل شيئاً من ألاَّ نفعل شيئاً على «الاطلاق». هذا المبدأ هو أيضاً الحبل الذي سيخنق كل ثقافة وكل ذوق ساميين. ينعي

هذا الجنون في العمل كل شكل، أتعس من ذلك، إنه يدفن حتى الشعور بهذا الشكل، بالحس الرخيم للحركة، نصير عُمْيٌ، صمٌّ عن كل توازن. والبرهان على ذلك هو هذه الدقة الفظة، المفروضة في الوقت الحاضر في كل المواقف التي يريد فيها الانسان أن يكون بمقابل قرينه، في علاقاته مع أصدقائه، نساء، أهل، أطفال، أساتذة، تلامذة، موجهين وأمراء، ينقص الوقت، تنقص القوة اللازمة لنكرسها للطقوس، لمواربات المجاملة ولعقلية المحادثة والفراغ بشكل عام. ذلك أن الحياة، وقد صارت صيداً للربح تجبر الذهن على الضنى من دون توقف في لعب التخفي، والخداع، واستباق الخصم؛ أن الفضيلة الحقة اليوم هي في إنجاز الشيء بوقت أسرع من الآخر. كما أنه ليس هناك إلا ساعات نادرة يمكن فيها أن نسمح لأنفسنا بأن نكون صادقين: وفي هذه الساعات نكون مرهقين لدرجة نطمح فيها ليس فقط إلى أن «نترك أنفسنا»، ولكن إلى «الاستلقاء» بثقل وإلى «التمدد». تبعاً لهذا الميل نكتب رسائلنا اليوم؛ والحال فإن أسلوب وعقلية الرسائل ستكون دائماً بحق ما يكشف «دلالة الزمن» بالضبط. إذا كان لا يزال هناك من وجود للذة الحياة الاجتماعية والفنون، فإنها من النوع الذي يحتفظ به العبيد المنهكين من السخرة. آه، أي حزن عند «تواضع» الفرح هذا عند بشرنا المثقفين وغير المثقفين! أي خجل هو هذا الشك الذي يرمونه يوماً بعد يوم، وبقساوة أشد عليه! كل يوم يستأثر العمل أكثر براحة الضمير لمصلحته: فالذوق للفرح صار بالأصل يسمى «حاجة إلى الراحة»، لقد صار يخجل من نفسه. «هذا ما تفرضه صحتنا علينا»، هذا ما يقال للناس الذين يكتشفونك متلبساً بتسلية ريفية. يمكن للامور أن تستمر قريباً على هذا المنوال لدرجة لا يجرؤ بعدها على الاستسلام لمذاق الحياة التأملية **Vita Contemplativa** من دون احتقار للذات أو الشعور بتبكيت الضمير: للرغبة في التنزه بصحبة أفكاره وأصدقائه، والحال، كان الوضع فيما مضى مناقضاً لذلك؛ لقد كان العمل هو ما يعطي تأنيب الضمير، إن رجلاً حسن المولد كان يخفي عمله. إذا كان البؤس يضطره لأن يكتسب عملاً. وكان العبد يعمل ويغلب عليه الشعور بأنه يقوم بشيء حقير: . . . «ليس هناك من نبل وشرف إلا في وقت الفراغ وفي الحرب» : هذا ما كان يقوله الحكم المسبق للاقدمين.

330 ـ إستحسان

لا يحتاج المفكر إلى الاستحسان ولا إلى التصفيق، طالما هو أكيد من تصفيقه لنفسه: هذا بالعكس، ما لا يستطيع أن يستغني عنه. هل من بشر يستطيعون ذلك؟ ويستطيعون أن يستغنوا أيضاً عن كل استحسان؟ أشك في ذلك: حتى فيما يتعلق بأحكم الرجال، تاسيت Tacite، الذي لا يُشكّ بأنه افترى على الحكماء، عندما قال: quando ediam sapientibus glovia Cupido novissima exuitur هذا ما كان يعني بالنسبة اليه: إطلاقاً.

331 ـ الطرش خير من الطوش

في الماضي كان المراد أن تصير مشهوراً: لم يعد هذا يكفي اليوم، لقد صار السوق رحباً جداً، يلزم أن تبيع بالمزاد العلني. وينتج عن ذلك أن أفضل الحناجر تصرخ بأعلى أصواتها، وأن أفضل البضائع تقدم الينا بأصوات مبحوحة: لم يعد هناك من عبقرية، في أيامنا، من دون صخب ومن دون بحة. مرحلة لعينة للمفكر! عليه أن يتعلم أن يجد بين كل صرختين، الهدوء الذي يحتاجه وأن يصم آذانه حتى يصير أصماً بالفعل. وطالما لم يتعلم ذلك، فإنه يخاطر من دون شك بأن يفنى من قلة الصبر ومن آلام الرأس.

332 ـ ساعة سوء

لكل فيلسوف، من دون شك، ساعة سوء يفكر فيها: سأكون قليل الأهمية، إذا لم يصدقوا أيضاً حججي السيئة ـ ويمر بجانبه عصفور خبيث يغرد بسخرية: «أي أهمية لك؟ أي أهمية لك؟».

333 ـ ماذا يعني أن تعرف

يـــقـــول Non ridere, non lugere, neque detestari, sed intelligere سبينوزا spinoza؛ بهذا الأسلوب المبسط والسامي الخاص به. ولكن، وفي التحليل الأخير، ما الذي يعنيه هذا «intelligere» إذا لم يكن الشكل الذي تظهر لنا فيه العمليات الثلاث الأخرى في آن معاً؟ إذا لم يكن نتيجة هذه الميول المتناقضة في الضحك والشفقة واللعنة؟ لكي تحصل هناك معرفة

يجب في البدء أن يكون كل واحد من هذه الميول قد أعطى رأيه المغرض حول الحادثة أو موضوع المعرفة؛ ثم يحصل صراع بين هذه الميول، ومن هذا الصراع تحصل تهدئة ويحصل توازن بين الميول الثلاثة، يأخذ كل واحد منها حقه بنوع من العدالة والعقد. لأن هذه العدالة، وهذا العقد، يسمح لها بأن تبقى وبأن تكون على حق في الوقت عينه. نحن، من لا يسجل وعيناً إلا آخر مشاهد هذه القضية الطويلة، المصالحة وتسديد الحساب، نعتقد أن الـ «intelligere» هو شيء ما سهل المراس وعادل وطيب، ومناقض بشكل أساسي للغرائز: بينما هو ببساطة صلة ما للغرائز فيما بينها. لفترة طويلة، لم يكن إسم التفكير يشير إلا إلى التفكير الواعي؛ واليوم فقط بدأنا نستشف الحقيقة؛ للعلم: إن الجزء الأكبر من نشاطنا الفكري يدور على غفلة منا، من دون أن نشعر بشيء منه؛ لكنني أعتقد أن هذه الغرائز التي تتقاتل فيما بينها ستعرف أن تتفق لتصير محسوسة وان تسيء الواحدة منها للأخرى: من هنا ربما يتأتى هذا الإنهاك الفجائي الذي يعرفه كل المفكرون (الإنهاك المقيت الفجائي للجندي في ساحة المعركة). حتى انه ربما كان هناك في أعماق روحنا المصارعة بطولات عديدة لا نراها أبداً، إلا أنه ليس هناك البتة من شيء إلهي، شيئاً يعتمد أبدياً على ذاته، كما كان يعتقد سبينوزا. إن التفكير الواعي، وبالأخص تفكير الفيلسوف، هو الأقل عنفاً من التفكير كله، وهو بالتالي الأشد لطفاً، والأشد هدوءاً من مقولات التفكير: كما أن الفيلسوف هو الأشد تعرضاً للخطأ فيما يخص طبيعة المعرفة.

334 ـ يجب تعلم الحب

هاك ما يحصل لنا في مجال الموسيقى: علينا أن نتعود في البدء أن نسمع مجازاً، لحناً، نتميزه بالسمع، وأن نفرزه وأن نعزله وأن نحدده بصفته حياة لذاته: ثم علينا فيما بعد أن نقوم عن طيب خاطر بالجهد لتحمله بالرغم من غرابته. وأن نستخدم الصبر لنقبل هيئته وتعبيره الجسماني، والشفقة لنسامح فرادته؛ وتأتي أخيراً اللحظة التي نكون فيها قد اعتدنا عليه، التي ننتظره فيها والتي نشعر فيها أنه ينقصنا إذا غاب عنا؛ مذ ذاك الحين يستمر في ممارسة قهره وسحره علينا ولا يتوقف إلا إذا أصبحنا من

عشاقه المتواضعين، من مخلصيه المسلوبين الذين لا يطلبون من العالم أكثر من شيء سواه، هو أيضاً ودائماً هو.

وليس الأمر على هذا المنوال في الموسيقى فقط: فبهذه الطريقة تعلمنا أن نحب كل ما نحبه. إن إرادتنا الطيبة، صبرنا، عدالتنا، لطفنا مع الأشياء الجديدة علينا تنتهي بأن ترجع لنا، لأن الغرابة تخلع شيئاً فشيئاً سترها لنا وتظهر لعيوننا جمالها الذي لا يوصف: إنه الشكر على ضيافتنا. إن من يحب نفسه يتعلم هذا الحب بطريقة مشابهة: ليس هناك من غيرها، الحب أيضاً يجب أن يُلقن.

335 ـ لتحيا الفيزياء

ما هو عدد الذين يعرفون أن يلاحظوا! وبين العدد القليل الذي يعرف ذلك، ما هو عدد الذين يقدرون على ملاحظة أنفسهم؟ «ما من غريب عن ذاتك أكثر من ذاتك».. هذا ما لا يجهله، مع شقائه الكبير، كل سابر للروح الانسانية. إن الحكمة «إعرف نفسك» تأخذ في فاه الاله، وبتوجيهها إلى البشر لهجة دعابة لئيمة. ما من شيء يبرهن بشكل أفضل عن الوضع الميؤوس منه لملاحظة الذات أكثر من الطريقة التي يكاد يتكلم فيها كل واحد عن ماهية الفعل الأخلاقي. ما هذه الرشاقة عند هؤلاء الناس! ما هذه المبادرة! ما هذا الاقتناع، ما هذه الثرثرة! وهذه النظرة، وهذه البسمة، وهذا النشاط، وهذه المجاملة! يبدون كأنهم يقولون: «لكن، يا عزيزي، إن هذا عملي بالضبط! لقد وقعت بالضبط على من يستطيع أن يجيبك: إنها المسألة التي، بصدف، أنها أفضل ما أعرفه. هاك إذن: عندما يقرر رجل «هذا حسن»، ويستنتج: «لهذا يجب أن يكون» ويعمل مذ ذاك على ما اعترف بأنه عدل وما عرّفه على أنه ضرورة، فإن طبيعة فعله تكون «أخلاقية»! لكنك يا عزيزي تكلمني هنا عن ثلاثة أفعال وليس عن فعل واحد: فحكمك، ـ «هذا حسن» مثلاً، وحكمك هذا فعل أيضاً! والا يمكن لهذا الحكم أن يكون بالاصل أخلاقياً أو غير أخلاقي؟ لماذا تعتبر «هذا» حسناً وليس شيئاً آخر؟ «لأن ضميري يقول ذلك؛ والضمير لا يقول شيئاً لا أخلاقياً بتاتاً، لأنه هو من يحدد ما هو الأخلاقي!» لكن لماذا تستمع إلى صوت ضميرك؟ من الذي يعطيك الحق بأن تعتقد إن حكمك

معصوم؟ هذا الاعتقاد، ألم يعد هناك من ضمير ليفحصه؟ ألم تسمع إطلاقاً بضمير فكري؟ بضمير يقوم خلف «ضميرك»؟ لحكمك «هذا حسن» ما قبل تاريخ في غرائزك، وميولك ونفورك وتجاربك ولا تجاربك؛ «كيف ولد هذا الحكم»؟ إنه السؤال الذي يجب أن تطرحه على نفسك؛ وفي الحال من بعده «ما الذي يدفعني إلى الخضوع لهذا الحكم؟» لأنه بامكانك أن تتبع أمره كجندي شجاع يسمع صوت رئيسه، أو كامرأة تحب من يأمر، أو أيضاً كمتملق، جبان يخاف من سيده، أو أيضاً كأحمق يسمع لأنه ليس لديه ما يعترض عليه. بكلمة بامكانك أن تسمع صوت ضميرك بألف طريقة مختلفة.

والحال، أن تسمع في هذا الحكم أو ذاك صوت ضميرك؛ وان تجد هذا الشيء أو ذاك حسناً. هاك ما يمكن أن يجد أصله في كونك لم تكن قد فكرت إطلاقاً بنفسك وانك قد قبلت بطريقة عمياء كل ما أعطي لك على أنه حسن منذ طفولتك: أو لأن خبزك اليومي والتكريم قد أتاك حتى الآن مما تسميه واجبك؛ . . . ترى هذا الواجب «حسناً» لأنك ترى فيه «شرط وجودك» (وحقك في الوجود يبدو لك أنه غير قابل للدحض). إلا أنه يمكن جداً لحزم حكمك الأخلاقي أن يكون الدليل على فقر شخصيتك، على نقص فرادتك، ويمكن «القوتك الأخلاقية» أن تجد منبعها في عنادك أو في عجزك عن تصور مثل جديدة! باختصار: لو فكرت بطريقة أشد رهافة، لو لاحظت بشكل أفضل، وتعلمت أكثر، لكنت كففت عن أن تسمي واجباً وضميراً هذا «الواجب» وهذا «الضمير». إن فهم الطريقة نفسها التي أمكن فيها لاحكامك الخلقية أن تولد سينفرك من هذه الألفاظ المؤثرة - كما نفرت من قبل من ألفاظ مؤثرة أخرى شأن «الخطيئة» أو «خلاص الروح» أو «الخلاص على يد المبشر».

والآن لا تكلمني، يا صديقي، عن «الأمر القطعي»! إن هذه الكلمة تدغدغ أذني، ولا أستطيع الامتناع عن الضحك، رغم حضورك الجدي: فإنها تذكرني كثيراً بكانط العجوز الذي عوقب لأنه وضع اليد «كذباً» على «الشيء في ذاته» - شيء آخر مضحك جداً ! - بتركه نفسه تؤخذ به كذباً، وضياعه من جديد معه في سجون «الله» و«الروح» و«الحرية» و«اللاخلاقية»

العجوز شأنه شأن ثعلب يعود إلى قفصه محاولاً الهرب إليه، مع أن قوته وبراعته هي التي كسرت القضبان! ـ كيف؟ إنكم تعجبون بالأمر القطعي فيكم؟ بهذا «الحزم» الذي تسمونه «آمركم القطعي» أعجبوا بالأحرى في هذا بأنانيتكم! بعمى ووضاعة وتواضع هذه الأنانية! لأنها أنانية أن تعتبر حكمك على أنه قانون عام! وهي أنانية عمياء وضيعة، مسكينة، لأنها تكشف أنكم لم تكتشفوا بعد أنفسكم، وانكم لم تشيدوا بعد مثالاً شخصياً لكم، وشخصياً بدقة! لأنه لا يمكنه أن يكون لكائن آخر، وبدرجة أقل للجميع، . . . للجميع! . . . أن من يحكم أيضاً «في هذه الحالة على كل واحد أن يتصرف بهذه الطريقة»، لم يقم بعد بثلاث خطوات في طريق معرفة ذاته: وبأنه لا يمكن أن يكون هناك من فعل مشابه، وأن كل فعل تم قد تم بطريقة فريدة وغير قابلة لاعادة الانتاج وسيكون الأمر عينه لكل فعل مستقبلي، وأن الأوامر (من دون أن نستثني أشدها دقة وكل الأخلاق التي جرت لغاية الآن) لا تحمل إلا على الجانب الخارجي للفعل، على ظاهره الفظ، وانه يمكنها جداً أن تحصل بذلك على بعض ظاهر المساواة، إلا أن ذلك ليس إلا ظاهراً. إن كل فعل بالنسبة اليها هو ويبقى غير قابل للنفاذ؛ وانه لا يمكن البرهنة على أفكارنا حول «الحسن» أو «النبيل»، أو «العظيم» إطلاقاً بواسطة أفعالنا، لأن كل فعل هو مجهول؛ وأن كل آرائنا وحساباتنا ولوائح قيمنا هي جزء من أقدر الروافع في معمل أفعالنا، إلا أنه ما من حالة خاصة لا تبرهن عن قانون تركيبها، فلنقتصر إذن على تقنية مبادئنا وحساباتنا وعلى خلق لوائح قيم تكون خاصة بنا: ولنتوقف عن سوء الاستخدام الخاص بـ «القيمة الأخلاقية لأفعالنا». نعم، يا أصدقائي، يفرض الاشمئزاز نفسه من كل هذه الثرثرة الأخلاقية التي يستسلم إليها كل واحد بخصوص أنداده؛ لقد حان الوقت لوضعها على جدول الأعمال. علينا أن نشمئز من إطلاق الأحكام الاخلاقية. فلنتخلى عن هذا الذوق السيء وهذه الكلمات لمن لا يجد شيئاً يفعله أفضل من جعل الماضي ينجر بضع خطوات في الزمن، أولئك الذين لن يصيروا أبداً «حاضرين» بأنفسهم أي الحشد والغالبية العظمى. . . أما نحن فإننا نريد أن نصير ـ ما نحن عليه ـ الجدد الفريدون من لا يقارن بهم، أولئك الذين يقدمون قوانينهم لأنفسهم، أولئك الذين يخلقون أنفسهم! ولهذا علينا أن نتعلم، علينا أن

نكتشف كل ما هو قانون وما هو ضرورة في العالم: فلنصير أفضل تلامذة وأفضل رحالة: علينا أن نصير أخيراً فيزيائيين لكي نتمكن من الخلق في هذا الاتجاه، بينما لم يشيد لغاية الآن أي مثال ولا أي حساب للقيم إلا على أساس جهل أو احتقار الفيزياء أو كان متعارضاً معها. وبالتالي لتحيا هذه الفيزياء! ايحيا أيضاً ما تفرضه علينا: . . . إخلاصنا.

336 ـ بخل الطبيعة

لماذا كانت الطبيعة بخيلة لهذه الدرجة تجاه البشر، فلم تترك هذا يضيء أكثر من ذاك تبعاً لكثافة نورهم؟ ولماذا لا يكون للرجال العظام عند شروقهم وعند مغيبهم، سنى يوازي جمال سناء الشمس؟ بناء عليه كم سيختفي الغموض من الحياة الاجتماعية.

337 ـ «إنسانية المستقبل»

عندما أعاين مرحلتنا بنفس العين التي تعاينها به عين بعيدة، لا أجد شيئاً أشد غرابة عند إنسان اليوم الا هذه الفضيلة الفريدة، هذا المرض الفريد الذي يسمى «الحس التاريخي». انه ترسب شيء جديد وغريب كلياً في التاريخ: لتعطي لهذا البذرة بضعة قرون ـ وأكثر ـ سينتهي الأمر بأن تبرز نبتة كاملة الروعة ذات رائحة لا تقل روعة يمكنها أن تجعل حياتنا على أرضنا العجوز أشد لطافة للسكن مما كانت عليه حتى الآن. ذلك أننا قد بدأنا نحن الرجال، نُشَيِّدُ، عقدة بعقدة، سلسلة شعور مستقبلي سيصبح قادراً جداً؛ إننا بالكاد نعرف ما نقوم به: يكاد يبدو أن الأمر لا يتعلق هنا بشعور جديد، بل بمجرد ضعف لكل المشاعر القديمة؛ لا يزال الحس التاريخي شيئاً فقيراً وبارداً لدرجة أنه يجذب عدداً كبيراً من الناس شأنه شأن قشعريرة مجمدة ويجعلهم أشد فقراً وأشد برودة. ويبدو لآخرين على أنه إشارة ممهدة لعقم آت: وبالنسبة لهم يبدو كوكبنا كمريض كئيب يكتب تاريخ حياته من أجل غاية واحدة وهي أن ينسى حاضره. وهذا، في الواقع، ليس إلا تمييزاً لهذا الشعور الجديد: إن من بمقدوره أن يشعر تاريخ الرجال بمجمله على أنه تاريخه، يشعر بنوع من التعميم الذي لا حد له، بمرارة المريض الذي يفكر بالصحة، والعجوز الذي يفكر بأحلام

الشباب، والعاشق المحبط بحبيبته، وبالشهيد الذي يرى انهيار مثاله، والبطل ليلة معركة غير محسومة والتي كلفته مع ذلك جراح وفقدان الصديق؛ لكن تحمل هذه المآسي من كل نوع أن تكون قادراً على تحملها، وان تبقى مع ذلك البطل، الذي مع شروق الفجر التالي للمعركة، يحيي الفجر وحظه، كرجل له كل آفاق آلاف السنين في الماضي كما في المستقبل. كوريث لكل النبل، لكل الذهن، لكل الماضي، وكوريث لديه واجبات، الأشد نبلاً من أقدم نبالة، وأول وليد لنبالة جديدة لم يراها أي زمن ولم يحلم بها؛ أن يأخذ كل هذا في روحه، الماضي الأقدم والحاضر الأشد جدة، الخسائر والآمال، والغزوات وانتصارات الانسانية، أن يجمع أخيراً كل هذا، في روح واحدة وشعور وحيد. هاك ما يجدر به أن يولد سعادة لم يعرفها أي رجل من قبل، سعادة اله مفعم بالقدرة والحب، مفعم بالدموع ومفعم بالضحك، سعادة كشمس أمسياتنا، تغرف ملء يديها في غناها الذي لا ينفذ وترمي بكنوزها في البحر، شأنها شأن الشمس لا تشعر بأنها أشد غنى إلا عندما يرجع أفقر الصيادين، مع مجداف ذهبي! وهذه السعادة الالهية تسمى... الانسانية!

338 ـ إرادة الألم والمشفقون

هل من المناسب لك أن تكون من الرجال المشفقين؟ هل من الملائم لأولئك الذين يتألمون أن تكون كذلك؟ لنترك حالياً السؤال الأول جانباً.

إن ما نتألم منه بأعمق ما يكون وبالطريقة الأكثر شخصية يكاد لا يفهمه الرجال الآخرون ولا يدركونه: لهذا نبقى مختبئين عنهم حتى لو شربنا معاً الكأس عينه. كل من يرانا نتألم، يفهم ألمنا بطريقة سطحية. تختص الشفقة بأنها تنزع عن كل ألم غريب كل ما هو شخصي بحق: إن «المحسنين» لنا يقللون من قيمتنا ومن إرادتنا أكثر من أعدائنا. إن أغلب أعمال الاحسان التي يُنعم بها على التعساء لديها شيء ما منغص في الخفة الفكرية التي يسعد المشفق فيها بأن يلعب دور القدر. إنه يجهل كل شيء عن هذا التلبك الداخلي لكل العلل والمعلولات التي يمكنها أن تسمى تعاسة بالنسبة لي ولك؛ إن الاقتصاد العام لهذه الروح والتعويض الذي تحمله «المأساة» لهذا الاقتصاد، والمصادر الجديدة التي تفتحها له،

والحاجات الجديدة التي تخلقها والتسكين الذي تقوم به وكبت ما مضى، لا شيء مما يعود إلى المأساة الحميمة يهم المشفق الغالي: إنه يريد أن ينجد ولا يفكر لحظة بأنه يمكن للمأساة أن تنشأ عن ضرورة شخصية، أنا وأنت يمكننا أن نحتاج إلى الذعر، والحرمان والفقر، وإلى منتصف الليالي والمغامرات والمخاطر والاحتقار بمقدار ما نحتاج عكسها، وأتعس، ولأتكلم لغة صوفية ـ إن الطريق الضيق لسمائنا الخاصة يمر دائماً بلذة جحيمنا الخاص. كلا إن الروح المشفقة لا تعرف شيئاً عن كل هذا: فـ «دين الشفقة» (القلب) يأمر بالنجدة، ويعتقدون أن أفضل مساعدة هي عندما تساعد بأسرع مُا يكون! فإذا كنتم أنتم من أتباع دين شبيه بهذا الدين وتتعاملون مع أنفسكم بهذه الذهنية التي تظهرونها لأقرانكم وكنتم لا تريدون أن تتركوا لساعة واحدة ألماً يرتاح فيكم لتنطلقوا باستمرار أمام كل نوع من المأساة الممكنة، إذا كنتم تشعرون كلياً أن الألم وعدم اللذة هي أمور سيئة، مكروهة جديرة بأن تعدم بصفتها عيب في الوجود: فبالاضافة إلى دين الشفقة، لديكم في القلب دين آخر، ربما كانت والدة ذلك الدين: آه، أقصد دين الرفاهية! للاسف، يا رجال الرفاهية، والمزاج السهل، كم هو قليل ما تعرفونه عن السعادة! لأن السعادة والشقاء شقيقان توأمان يكبران في الوقت نفسه أو كما هو الأمر عندكم، يبقيان صغيرين معاً!...

لكن لنرجع إلى سؤالنا الأول. ما الذي يجدر بنا صنعه لنبقى في حال سبيلنا؟ في كل لحظة ثمة صرخة ما تحولنا عنه، ونادراً ما تلمح عيننا في الموضع الذي سمعنا الصرخة منه مشهداً لا يستحق أن نترك من أجله عملنا الخاص في الحال. أعرف ذلك جيداً: ثمة ألف طريقة، ألف طريقة شريفة وحميدة، لتضيع خارج سبيلك، ألف طريقة سامية «أخلاقية»، ويمضي رأي واعظي أخلاق الشفقة اليوم إلى درجة أن يقول أن ما هو أخلاقي، الأخلاقي الوحيد، هو بالضبط في التيه بهذه الطريقة عن السبيل الخاص لنهب لنجدة الآخرين. لكني أعرف معرفة اليقين عينه أنه لا يلزمني إلا أن أتعرض بهذا الشكل لمرأى مأساة حقيقية، لأجد نفسي قد ضيعت نفسي! إنه إذا قال لي صديق في الشقاء: «أترى، إني سأموت، عدني بأن تموت معي»، فأعده، شأني في ذلك عندما أرى شعب جبال صغير يحارب

من أجل حريته، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن أن أهبه ذراعي القوية وحياتي؛ . . . كيلا اختار لمرة واحدة، ولأسباب وجيهة، الا أمثلة سيئة. آه، نعم، مما لا شك فيه أن هناك إغراء سري حتى في الطريقة التي تثير فيها الشفقة طلبات المساعدة هذه، ذلك أن الاعتناء بـ «سبيلنا الخاص» لهو أمر مفرط القساوة، مفرط التطلب، يمضي «سبيلنا الخاص» أبعد بكثير من الحب والاعتراف بجميل الآخر، ولا تفر منه بدون لذة؛ والأمر عينه بالنسبة لوعينا الأكثر شخصية، نبحث في وعي الآخرين عن ملجأ، في المحراب المحبب «للدين الشفقة» ما ان تندلع حرب في أيامنا، حتى نرى في الوقت عينه عند أشد الرجال نبلاً، إندلاع لذة يحفظونها سراً بالطبع؛ إنهم يرمون بأنفسهم بطرب أمام خطر الموت الجديد، لأنهم يعتقدون أنهم قد وجدوا أخيراً في التضحية الوطنية بحياتهم مأذونية كانوا يبحثون عنها منذ زمن طويل، مأذونية الفرار من هدفهم. . . فالحرب بالنسبة لهم انتحار ملتو، لكنه ملتو مع كل راحة ذهنية. ولكن، إذا كنت أصمت هنا عن بعض الأشياء، فإني لن أصمت عن أخلاقي التي تقول لي هذا: عش مختبئاً حتى تعيش لنفسك، عش جاهلاً ما يبدو أنه أهم ما في مرحلتك، ضع سماكة ثلاثة قرون من الزمن بينك وبينها. حتى لا يصل اليك ضجيج النهار وضوضاء الحروب وفرقعة الثورات، الا كهمس. تريد أن تساعد أنت أيضاً. لكن ليكن فقط أولئك الذين تفهم مأساتهم كلياً لأنهم لا يملكون معك إلا الفرح نفسه، إلا الأمل نفسه، . . . أصدقاؤك: وفقط بالطريقة نفسها التي تساعد فيها نفسك، اجعلهم أشد شجاعة، وأشد قساوة وأشد بساطة وأشد فرحاً! علمهم ما تعرفه قلة من البشر، ما يجهله واعظي الشفقة والاتحاد في الألم: . . . انه الاتحاد في الفرح.

Vita femina _ 339

أن نرى منتهى الجمال في عمل، . . . يبقى فعلاً لا تقوى عليه مهما بلغت عظمة معرفتنا ولا طيبة إرادتنا؛ يلزمنا بالفعل أسعد الصدف وأندرها، لتنحي عن أعلى القمم ستار الغيوم، وتجعل الشمس تتألق فوقها. ولادراك هذه اللوحة، لا يكفي أن تكون في المكان المناسب، يجب أن تكون روحك نفسها قد نزعت ستارها عن مرتفعاتك الخاصة، وأن تشعر بالحاجة

لتعبير، لرمز خارجي، كي تعرف نوعاً من الدعم، لتبقى سيدة نفسها. إلا أنه نادراً ما يجتمع كل هذا لدرجة تسولني نفسي إلى الاعتقاد بأن أسمى قمم الكمال في خير ما ـ سواء أكان تحفة أو فعلاً أو في انسان أو في الطبيعة قد بقيت خافية عن أعين الغالبية، حتى عن أعين الصفوة: . . . إن ما ينكشف لنا لا ينكشف إلا مرة واحدة! لقد كان اليونانيون من دون شك يصلون: «فليرجع الجمال كله مرتين أو ثلاثة»، . . . ذلك أنه كان لديهم سبباً وجيهاً ليتوجهوا إلى الآلهة: ذلك أن الحقيقة غير الإلهية لا تمنح الجمال إطلاقاً أو انها لا تمنحه إلا مرة واحدة! أقصد أن العالم يفيض بالأشياء الجميلة، إلا أنه مع ذلك فقير، وفقير جداً باللحظات الجميلة، ويكشفه لهذه الأشياء. لكن ربما كان هذا هو السحر الأكبر للحياة، إنها تلبس دائماً، وموشحاً بالذهب غشاء مبشراً بخير كثير، دفاعي، حيي، ساخر، رحيم، ويغوي باحتمالات كثيرة، آه، نعم، الحياة، الحياة إمرأة.

340 ـ سقراط محتضر

أذهل لشجاعة سقراط وحكمته في كل ما قام به، ما قاله. . ، وما لم يقله. شيطان أثينا هذا العاشق والساخر، ساحر الفئران هذا الذي جعل أشد شبان أثينا غروراً يرتجفون وينتحبون، لم يكن فقط من أحكم الثرثارين: لقد كان أيضاً عظيماً في صمته. كنت أحب لو التزمه في آخر لحظات حياته: . . . ربما كان سيكشف عندها عن طبقة عقلية أرفع أيضاً. هل كان الموت أو السم، الشفقة أو اللؤم؛ . . . شيئاً ما في آخر لحظاته فك لسانه وقال: «آه كريتون Criton، إني أدين بديك لاسكولاب Esculape». تعني هذه «الكلمة الأخيرة» المضحكة والرهيبة لمن يعرف أن يسمع: «كريتون criton، الحياة مرض!». هل من الممكن أن رجلاً مثله، رجلاً عاش بفرح! شأنه شأن جندي في نظر الجميع، أن هذا الرجل كان متشائماً! إنه طوال حياته لم يفعل الا أن يأخذ وضعية جيدة أمام الحياة ليخفي في حياته حكمه الأخير، شعوره الأكثر حميمية! سقراط، سقراط قد عانى إذن من الحياة! وقد انتقم بهذه الكلمة الرهيبة حيث تختلط الشفقة مع التجديف بصوت كتوم! هل كان يلزم فوق هذا لسقراط بأن ينتقم؟ هل كان ينقصه حبة الجود لفضيلته هذه، للأسف يا أصدقائي علينا أن نتجاوز حتى اليونانيين.

341 ـ أثقل وزناً

وإذا انزلق، ذات يوم أو ذات ليلة، شيطان في أسمى وحدتك وقال لك. «إن هذا الوجود كما عشته، وكما تعيشه حتى الآن، عليك أن تكرره وأن تكرره باستمرار؛ دون أي شيء جديد، بل على العكس! إن أقل ألم، وأقل لذة، وأقل فكرة، وأقل آهة، كل ما في حياتك سيعود، أيضاً، كل ما فيها مما لا توصف عظمته ومما لا يوصف صغره، الكل سيعود وسيعود بالترتيب عينه، تبعاً لنفس التعاقب الذي لا يرحم، . . . هذا العنكبوت سيعود أيضاً، وضوء القمر هذا بين الأشجار، وهذه اللحظة وأنا أيضاً! ساعة الحياة الرملية الأبدية ستعود من دون انقطاع، وأنت أيضاً ستعود معها غبار أقل من قليل الغبار». . . ألن ترمي بنفسك على الأرض، صاراً بأسنانك ولاعناً هذا الشيطان؟ أو إذا كنت قد عشت لحظة مدهشة حيث تجيبه «أنت اله، فأنا لم أسمع إطلاقاً بكلام أشد ألوهية!». لو سيطرت عليك هذه الفكرة فإنها ربما ستحولك جاعلة منك شخصاً آخر، وربما ستعدمك؛ وتسأل بخصوص كل شيء: «هل تريد هذا؟ هل ستريده من جديد؛ مرة! دائماً؟ أبداً!» وسيثقل عليك هذا السؤال بثقل قاطع ورهيب! أو أيضاً، آه! كم سيجدر بك أن تحب نفسك وأن تحب الحياة حتى لا تتمنى شيئاً آخر الا هذا التأكيد الأسمى والأبدي!

Incipit tragaedia ـ 342

عندما بلغ زرادشت الثلاثين عاماً ترك وطنه وبحيرة Urmi أورمي ورحل إلى الجبل. هناك تمتع بذهنه وبوحدته ولم يسأم طيلة عشر سنوات. إلا أن قلبه قد تحول أخيراً، وذات صباح، وقد نهض مع الفجر، تقدم نحو الشمس وكلمها كالتالي: «آه، أيها الكوكب العظيم! ماذا ستكون سعادتك لو لم يكن لديك من تنيريه! منذ عشر سنوات وأنت تأتي إلى هنا، في كهفي: من دوني ومن دون نسري وأفعاي كنت ستسأم من ضيائك وتتعب من هذه الطريق؛ لكننا كنا بانتظارك كل صباح نحررك من اشمئزازك ونباركك. أنظر: إنني قد كرهت حكمتي، شأني شأن النحلة وقد جمعت العسل بافراط، أحتاج ليداي تمتد، أريد أن أمنح وأن أوزع إلى أن يصير أحكم الحكماء بين البشر سعداء بجنونهم، والفقراء بغناهم. لهذا علي أن

أهبط إلى أعمق الأعماق، كما تفعل أنت في المساء، عندما تغرق في البحر، آه، يا كوكب الفيض، وتحمل ضياءك إلى الجهة المقابلة للعالم!... علي، مثلك، أن أغرق وأن أغيب كما يقول الرجال، الذين أريد أن أهبط نحوهم. هكذا أباركك، آه أيها النظر الدمث الذي بامكانه أن يرى من دون حسد حتى سعادة مفرطة العظمة! بارك الكأس التي تطلب أن تفيض، وليسل ماءك بفيضان من ذهب ولينشر في كل مكان إنعكاس فرحك! أنظر! هذا الكأس يطمح إلى أن يعود فارغاً من جديد، يطمح زرادشت إلى أن يصير إنساناً...

هكذا بدأ مغيب زرادشت.

كتاب خامس

نحن من لا يخاف

ترتجف، أيها الجسد، سترتجف أكثر
بكثير لو أنت تعرف إلى أين أقودك.

تورين

343 ـ صفاؤنا

إن أعظم حدث قريب العهد ـ في الواقع «موت الله»، بعبارة أخرى فقد الايمان بالله المسيحي معقوليته ـ قد بدأ أصلاً ينشر أول ظلاله على أوروبا. قلة من الناس حقاً، يمتلكون على الأقل حاسة بصر جيدة، وحذر يقظ ليدركوا مشهداً كهذا؛ قد يبدو على الأقل لهؤلاء البشر أن شمساً قد بدأت بالمغيب، وأن ثقة قديمة وعميقة قد صارت شكاً، ويبدو لهم أن عالمنا القديم قد صار حتماً أشد ظلمة وأشد إرتياباً وأشد غرابة وأشد قدماً يوماً بعد يوم. لكنْ وبطريقة عامة يمكن القول أن هذا الحدث مفرط الكبر ومفرط البعد، وخارج عن تصور الحشود بافراط حتى يحق لنا اعتبار نبأ هذا الواقع ـ وأقول نبأ ببساطة ـ قد وصل العقول، ليحق لنا أن نفكر وأن بشراً قد توصلوا لما حدث ولكل ما سينهار الآن وقد تآكل هذا الايمان الذي كان الأساس، السند، والأرض المغذية لهذا المقدار من الأشياء: كل الأخلاق الأوروبية بين التفاصيل الأخرى.

علينا من الآن فصاعداً أن نتوقع سلسلة طويلة، فيض طويل من الانهيارات والتدمير والخراب والانقلابات: من بإمكانه أن يتنبأ بما فيه

الكفاية منذ اليوم ليعلم هذا المنطق الجسيم، أن يصير نبي هذه الفظائع الرهيبة، والظلمات وهذا الخسوف للشمس الذي لم تعرفه الأرض بتاتاً؟ نحن أنفسنا فاكي الألغاز، نحن العارفون بالفطرة، من ينتظر والحق يقال على قمم الجبال، المقيمين بين الأمس والغد، كما لو كنا مشدودين بالتناقض بين اليوم والغد، نحن المقدمات، الذرية البكر للقرن القادم، علينا أن نكون قد أدركنا مسبقاً الظلال التي ستغلف أوروبا قريباً، من أين يأتي إننا ننتظر صعود هذا المد الأسود بلا مبالاة حقيقية، وخاصة من دون وجل ومن دون أن نقلق على أنفسنا؟ هل يرجع هذا إلى أنه لا يزال تأثير النتائج الأولية لهذا الحدث يسيطر علينا؟ لأن أول النتائج بالنسبة لنا ليست سوداء اطلاقاً ولا محبطة، بعكس مما يمكن أن يُنتظر؛ إنها تبدو على النقيض، من الضياء ومن السعادة ومن السلوى، طريقة في الصفاء، في التشجيع وفجر من نوع جديد صعب الوصف . . .، على نحو إننا نحن الفلاسفة، «المفكرون الاحرار»، وقد علمنا أن «الله القديم قد مات» نشعر أننا نضيء كما لو كان فجراً جديداً لمسنا؛ يفيض قلبنا بالعرفان بالجميل، وبالدهشة وبشعور مسبق وبالانتظار!. . . هاك أخيراً، ولو أنه ليس جلياً، يبدو الأفق، من جديد، حراً، هاك أخيراً، تستطيع مراكبنا أن تنطلق من جديد، أن تجدف أمام كل خطر، لقد سمح بكل محاولة لرواد المعرفة، البحر، يفتح لنا بحرنا، من جديد، كل آفاقه، ربما لم يكن هناك إطلاقاً من بحر «مفتوح» كهذا!

344 ـ بأي معنى لا نزال نحن أيضاً أتقياء

يقال وبحق، أنه في المجال العلمي، لا يملك اليقين أي حق بالامتياز، فقط عندما يقرر أن يتبنى، بتواضع، أشكال الفرضيات الوقتية، من وجهة النظر التجريبية، والخيال المنظم، يمكن أن يُمنح له مجال العبور إلى ميدان المعرفة، وحتى يعترف له ببعض القيمة. بشرط أن يبقى مع ذلك تحت رقابة الشرطة، تحت رقابة الحذر. . . لكن ألا يرجع ذلك، في العمق، إلى القول بأنه فقط عندما يتوقف اليقين عن أن يكون يقيناً يمكنه أن يكتسب حق امتياز في العلم؟ ألا يبدأ نظام العقل العلمي فقط عند رفض كل يقين؟. . . هذا محتمل: يبقى أن نعرف إذا لم يكن وجود يقين بالأصل

أساسياً لكي يستطيع هذا النظام نفسه أن يبدأ، وجود يقين متصلف، مطلق لدرجة أنه يجبر كل أنواع اليقين الأخرى على التضحية بنفسها من أجله؟ نرى بذلك أن العلم نفسه يعتمد على اعتقاد؛ وأنه ليس هناك منَ علم «بدون مسلمات». «هل الحقيقة ضرورية؟» يجب لكي يتشكل، أن يكون هذا السؤال قد حصل على جواب من قبل، ليس فقط على جواب إيجابي، بل إيجابي لدرجة أنه يعبر عن هذا المبدأ، هذا الايمان، هذا اليقين: ليس هناك من أمر ضروري سوى الحقيقة، لا شيء إلا بالنسبة للحقيقة؟ ما هي إرادة الحقيقة هذه؟ هل هي إرادة عدم الاستسلام للخداع؟ هل هي إرادة عدم خداع الذات؟ ذلك أنه ما من شيء يمنع من أن نُؤوِّل بهذه الطريقة الثانية الحاجة المطلقة إلى الحقيقة، وإذا فهمت «لا أريد أن أخدع» على أنه حالة خاصة من «لا أريد أن أخدع نفسي». لكن لماذا إذن عدم الخداع؟ ولماذا عدم الاستسلام لخداع النفس؟

لنلاحظ أن الأسباب التي تجيب عن السؤال الأول تقوم على ميدان مختلف عن الأسباب التي تجيب عن السؤال الثاني: إذا كنا لا نريد أن نستسلم للخداع، يفترض أنه من المؤذي والخطر والمضر أن نكون مخدوعين، في هذه الفرضية، يكون العلم خدعة طويلة، وسيلة احتياط، مسألة منفعة؛ إلا أنه يمكن الاعتراض وبحق: وماذا! أتكون بحق إرادة عدم ترك أنفسنا للخداع أقل أذى وضرراً وأقل خطراً من غياب هذه الارادة؟ ما الذي تعرفونه مسبقاً عن طابع الوجود حتى تقرروا أن الحذر المطلق يقدم منافع أكثر من الثقة المطلقة؟ وإذا كنا بحاجة للاثنين، لثقة عظيمة، ولحذر عظيم. . . ، أين سيجد العلم هذا اليقين المطلق، هذا الايمان الذي يخدمه كقاعدة والقائل أن الحقيقة تهم أكثر من أي شيء آخر. بما في ذلك أي يقين آخر؟

لا يمكن لهذا اليقين الأساسي أن يتشكل إلا إذا كان الصحيح والخاطئ ـ وهذه هي الحال ـ قد تأكدا دائماً على أن الواحد والآخر مفيدان. لا يمكن إذن لهذا الايمان بالعلم، هذا الايمان الموجود بالفعل بطريقة لا جدال فيها، لا يمكنه أن يجد أصله في حساب نفعي، بل أنه على العكس قد تشكل على الرغم من خطر وعدم فائدة «الحقيقة بأي

ثمن». خطر ولا نفعية لا تتوقف الحياة عن البرهنة عليها باستمرار. (الحقيقة «بأي ثمن»! إننا نعرف جيداً ما هي، إننا لا نعرفه إلا بافراط للاسف! عندما قدمنا عند هذا المذبح المعتقدات واحداً واحداً!).

«إرادة الحقيقة لا تعني إذن إرادة عدم الاستسلام للخداع»، ـ ولكن ـ ليس هناك من خيار آخر ـ «إرادة عدم خداع الآخرين وعدم خداع الذات»، وهذا ما يعيدنا إلى ميدان الأخلاق.

فلنتساءل في الواقع بجد: «لماذا إرادة عدم الخداع؟»، خاصة وأنه يبدو، وهذا هو الحال بالفعل ـ أن الحياة قد نهضت بغرض الظاهر، أقصد أنها تهدف إلى الضلال والخداع والتخفي والابهار والعمى، وإذا ظهرت بالواقع من جهة أخرى، في شكلها الأعظم من جهة الخداع الأقل تردداً؟ يمكن لهذا المبدأ، مُؤَوَّلاً بخجل، أن يعتبر دون كيشوتية، لا عقلانية صغيرة، لمتحمس؛ إلا أنه يمكن أن يكون أيضاً شيئاً ما أسوأ: مبدأ تهديمي، معادٍ للحياة... «إرادة الحقيقة» يمكن أن تكون سراً، إرادة موت: شكل يعود فيه السؤال العلمي إلى مشكلة أخلاقية: لماذا، بشكل عام، الاخلاق كلها؛ عندما تكون الحياة والطبيعة والتاريخ كلها لا أخلاقية؟ مما لا شك فيه، إن من يريد الحقيقة، بالمعنى الشجاع والاسمى الذي يفترضه العلم، يؤكد بهذه الارادة بالذات عالماً آخر غير الحياة والطبيعة والتاريخ. وبمقدار ما يؤكد هذا «العالم الآخر» ألا ينفي بالضرورة وبالضربة عينها نقيضه هذا العالم، عالمنا؟...

غير أنه قد فهم إلى أين أريد أن أصل بهذا: إلى إيمان ميتافيزيقي يعتمد أيضاً على إيماننا في العلم؛ باحثي المعرفة كفرة أعداء الميتافيزيقا، إننا بأنفسنا نقترض أيضاً نارنا للجمر الذي أشعله إيمان من ألف سنة، هذا الايمان المسيحي، الذي كان أيضاً إيمان أفلاطون، الذي كان الحق لديه يتطابق مع الله، وكل حقيقة هي حقيقة الهية.. ولكن إذا أصبح هذا أكثر فأكثر غير قابل للتصديق؟ إذا ظهر أن لا شيء أشد ألوهية، ما عدا الخطأ، العمى، الكذب؟ وإذا اتضح أن الله نفسه لم يكن إلا أطول كذبة لنا...

345 ـ إشكالية الأخلاق

ينتقم إنعدام الشخصية لنفسه، في كل مكان، فالشخصية الضعيفة، الرقيقة، المنطفئة، التي تنكر وتعيد إنكار نفسها، لم يعد لها أي قيمة، وخاصة في الفلسفة لم يعد للتجرد أي قيمة لا في السماء ولا في الأرض؛ تفرض الاشكالات العظيمة كلها حباً عظيماً، والاذهان القوية، الواضحة والواثقة القوية الارتكاز، قادرة على هذا الحب. ثمة فرق هائل بين مفكر ينخرط بشخصيته في إشكالاته لدرجة أنه يجعل منها قدره، المه وأعظم سعادة لديه، وبين من يبقى «لا شخصي». من لا يعرفها ولا يتلمسها ولا يدركها إلا بأطراف أصابعه وبحشرية باردة. لن يتوصل هذا الأخير إلى شيء يمكننا أن نتكهن بذلك بكل ثقة: لأنه حتى لو قبلنا أن يترك للأشياء أن تدركه، فإن الاشكالات العظيمة لا تترك نفسها يُحتفظ بها بواسطة الضفادع والرخويات؛ فهذا لم يكن من ذوقها إطلاقاً ـ وهذا قاسم مشترك لها مع إناثنا الصغيرات الشجاعات، وكيف حصل إني لم ألتق إطلاقاً بشخص، حتى في الكتب، ينخرط على هذا الشكل، بشخصه نفسه في دراسة الأخلاق، والذي جعل من هذه الاخلاق إشكالاً، ومن هذا الإشكال مأساته الشخصية، وكربه ولذته وشغفه؟ من الواضح أنها لم تشكل أشكالاً حتى اليوم، بل لقد كانت على العكس الأرض المحايدة التي كان ينتهي بعد كل الخداع والانشقاقات والتناقضات بالاتفاق على أنها الملجأ المقدس للسلام حيث يرتاح المفكرون أنفسهم، يتنفسون، وأخيراً يعاودون حياتهم. لم أر أحداً قد تجرأ على نقد القيم الأخلاقية؛ حتى أني ألاحظ أنه في هذه المادة ما من محاولة قد تمت بحشرية علمية، بهذه المخيلة الدقيقة، والمغامرة لعالم النفس، للمؤرخ الذي يستبق مع ذلك عن طيب خاطر الاشكالات وغالباً ما يدركها وهي طائرة من دون أن يعرف ماذا التقط. بالكاد توصلت إلى اكتشاف بعض المحاولات النادرة للتوصل إلى تاريخ لاصل المشاعر الأخلاقية وسُلم مختلف القيم الأخلاقية (وهو ما يشكل أمراً مختلفاً عن نقدها، وأمراً مختلفاً أيضاً عن تاريخ الأخلاق): في حالة منفردة قمت بكل شيء من أجل تشجيع ميل وموهبة هذا النوع من التاريخ، . . يبدو لي اليوم أن ذلك كان عبثاً. لا يقوم مؤرخي الاخلاق هؤلاء (وبالأخص الانكليز) بأي شيء مهم: فهم أنفسهم يخضعون أيضاً

بسذاجة لاخلاق ما محددة، يشكلون، من دون أن يشكوا في الأمر، باب حرسها، مرافقيها؛ ويبقون كلهم تقريباً عبيداً لهذا الحكم الأخلاقي المسبق، الذي تردده أوروبا المسيحية بسلامة نية، بأن الفعل الأخلاقي يتميز بالغيرية، وبإنكار الذات، وبذهنية التضحية، والشفقة والرحمة التي يثيرها، ويكمن خطأهم العادي، في مسلماتهم، بقبول نوع من الموافقة المشتركة للشعوب، - على الأقل للشعوب المدجنة، - بخصوص بعض الأحكام الأخلاقية، ويستنتجون في الحال أنه ينتج عن هذه الأحكام إلزام مطلق لأي فرد كان؛ وبالعكس عندما لاحظوا أن السلم الأخلاقي يتغير بالضرورة بين شعب وشعب، استنتجوا في الحال أنه ما من أخلاق ملزمة: وجهتا نظر كلتاهما بسيطتين، والأشد إرهافاً بينهم يرتكبون خطأ آخر: إنهم يظهرون وينتقدون ما يمكن أن يكون جنوناً في الأفكار التي يشكلها شعب ما حول أخلاقه؛ أو الأفكار التي يشكلها البشر حول كل أخلاق إنسانية، وحول أصل هذه الأخلاق، وعقابها الديني وحول الحكم المسبق لحرية الارادة، الخ.. الخ..، ويعتقدون أنهم بهذا الفعل قد انتقدوا هذه الاخلاق نفسها. ومع ذلك لا تتعلق القيمة الأساسية إطلاقاً لمبدأ مثل «عليك»، بالآراء التي نملكها حوله وبالاخطاء التي يمكن أن نطبقها عليه؛ كما أن قيمة دواء لا تتعلق بالمفاهيم الطبية التي يملكها المريض، سواء أكانت أفكار طبيب أم أحكاماً مسبقة لامرأة عجوز. يمكن لاخلاق أن تولد حتى من الخطأ، ومن دون أن تتأثر بذلك إشكالية قيمتها. ما من أحد قد تفحص حتى الآن قيمة هذا الطب المشهور بين كل أنواع الطب الأخرى، الذي عمد باسم الأخلاق: لأنه علينا قبل كل شيء أن نضعها موضع السؤال. فليكن! ستكون تلك مهمتنا بالضبط.

346 - علامة استفهامنا

ألا تفهمون؟ في الواقع سيصعب علينا أن نفهم أنفسنا: إننا نبحث عن الكلمات، ربما بمقدار ما نبحث عن آذان. من نحن إذن؟ إذا أردنا استعمال المصطلحات القديمة، نقول ببساطة كفرة، جاحدين أو لا أخلاقيين، نكون لا نزال بعيدين عن الاعتقاد بأننا قد عرّفنا أنفسنا بانصاف: إننا هذه الأشياء الثلاثة معاً في مرحلة متأخرة بافراط، لكي يمكن

فهم ـ لكي تستطيعوا أنتم أيها السادة الفضوليون، أن تفهموا ـ المشاعر التي تعترينا كلا، لم يعد الأمر يتعلق بالمرارة، لم يعد يتعلق بشغف الانعتاق الذي لا يمكنه أن يمنع نفسه عن أن يرتب عدم إيمانه إلى إيمان، إلى هدف وإلى الاستشهاد! لقد غلينا بافراط، وصلبنا وبردنا في فكرة ان مجرى العالم ليس إلهياً، أتعس من ذلك، انه ليس معقول انسانياً، أو رحيماً أو منصفاً؛ إننا نعرف أن العالم الذي نعيش فيه هو عالم كافر لا أخلاقي و«لا إنساني»؛ لقد أولناه خطأ ولوقت طويل بافراط، يكذب تبعاً لاجلالنا، أي ما معناه تبعاً لحاجتنا. ذلك أن الانسان هو حيوان مكرم! إلا أنه أيضاً حيوان حذر: ولا يساوي العالم ما كنا اعتقدنا أنه يساويه، ربما كان هذا أوثق حقيقة أدركها حذرنا أخيراً. بمقدار الحذر، الفلسفة، ونحاذر جيداً من أن نقول أن قيمة العالم أقل مما اعتقدنا: إننا لا يمكننا أن نمنع أنفسنا عن الضحك، حتى اليوم، إذا ما ادعى إنسان أنه يبتكر قيماً أعلى من قيم العالم الحقيقي: اننا قد رجعنا بالضبط عن هذا الخطأ، رجعنا كما من هذيان الغرور الانساني ومن اللاعقلانية الانسانية، كما من جنون لم يشخص بعد. لقد وجد هذا الجنون عبارته الأخيرة في التشاؤم المعاصر، وكان قد وجد تعبير آخر عنه أشد قدماً وأعتى في دروس بوذا؛ إلا أن المسيحية مليئة به أيضاً؛ بطريقة أشد التباساً وأشد ريبة إلا أنها لا تقل سحراً مع ذلك. «الانسان ضد العالم»، «مبدأ نافٍ» لهذا العالم، سلم الأشياء وحاكم الكون، ينتهي بأن يضع الوجود نفسه في ميزانه وبأن يجده مفرط الخفة، ثمة موقف كامل هنا يغرينا فيه الذوق السيء أخيراً ويقرزز أنفسنا؛ يكفي أن ننظر مجاورة «الانسان والعالم» الذي يتصل بينهما الادعاء السامي لهذه الـ «واو» الصغيرة، حتى لا يعود بامكاننا الامتناع عن الضحك!.

لكن ماذا! لنضحك إذن، لقد قمنا بشيء آخر غير أن نتقدم أيضاً خطوة في احتقار الانسان؟ وبالتالي في التشاؤم في احتقار الوجود الذي يمكننا معرفته؟ ألم نقع في شك التناقض بين العالم الذي كنا نعجب به على راحتنا حتى الآن ـ وربما كان هذا ما يسمح لنا بتحمل الحياة ـ وبين عالم آخر العالم الذي نشكله بأنفسنا بالذات؟ حذر عميق، جذري، حقود، شك يهاجمنا نحن بأنفسنا، يسيطر على الأوروبيين بخبث أشد وأشد،

وبطريقة أشد وأشد خطراً. بامكانه أن يضع الاجيال القادمة أمام هذا القياس الرهيب: «الغوا احترامكم أو ألغوا أنفسكم بأنفسكم».

وستكون العبارة الأخيرة هي العدمية؛ وأليست العبارة الأولى عدمية أيضاً؟ تلك هي علامة استفهامنا.

347 ـ المؤمنون وحاجتهم إلى الايمان

تقاس قوة رجل، أو بقول أفضل، ضعفه بدرجة الايمان التي يحتاجها لينمو، بعدد الكلاليب التي لا يريد أن نلمسها لأنه متعلق بها. فالمسيحية، في أوروبا القديمة خاصتنا، لا تزال ضرورة بالنسبة لأغلب البشر: لهذا السبب لا تزال تلقى أتباعها لها. ذلك أن الإنسان مجبول على هذا الشيء: ما ان يكون بحاجة إلى موضوع إيمان، حتى لو هفتنا مئة مرة موضوع إيمانه، فإنه لن ينفك يعتبره صحيحاً تبعاً «لبرهان القوة» الذي تتكلم عنه التوراة. والبعض لا يزال بحاجة أيضاً إلى الميتافيزيقا، مع أن هذه الرغبة الشديدة باليقين والتي تنصب اليوم بأفواج في الاداب ـ العلمية ـ الوضعية. هذه الرغبة بارادة التملك بأي ثمن كان بشيء ما أكيد (بينما نتغافل بتساهل كبير في حمى هذه الرغبة عن البراهين على هذا اليقين) هي أيضاً رغبة بالارتكاز والدعم، باختصار رغبة بغريزة الضعف التي لا تخلق فقط الأديان والميتافيزيقا والقناعات من كل نوع، بل. . . إنها مع ذلك تحافظ عليها.

في الواقع، يبقى أن كل هذه السساتيم الوضعية يغلفها دخان من التشاؤم الأسود، والتعب والقدرية، والاحباط والخوف من إحباطات جديدة، أو هو أيضاً بسط للحقد، للمزاج السيء معروض في الواجهات، فوضوية السخط، كل ما يمكن أن يوجد من أعراض أو تنكرات لشعور الضعف. أنظروا أيضاً العنف الذي تغرق فيه حتى أفضل الرؤوس في أزقة مسكينة وفي رُدُبٍ يرثى لها، شأن الافراط في حب الوطن (ما يسمى في فرنسا بـ «الشوفينية»، وفي ألمانيا «ديتشوي») أو في عقائد المعابد الجمالية شأن الطبيعية الباريسية (التي لا تعرض من الطبيعة الا ما يمكنه أن يفاجئ ويقزز في آن معاً، وهذا ما يسمى في زمننا عن طيب خاطر «الحقيقة

الصحيحة») أو العدمية على غرار سان بترسبورغ (بعبارة أخرى الايمان بعدم الايمان بما في ذلك الاستشهاد)، يكشف هذا العنف في المقام الأول عن الحاجة إلى إيمان، إلى دعم، إلى بنى، إلى إغاثة، . . . . ودائماً حيث تنقص الارادة بأكثر ما يكون، تكون الرغبة الاشد في الايمان، شديدة الضرورة، لأن الارادة بصفتها انفعال للقيادة هي الاشارة المميزة للسيادة وللقوة. كلما نقصت المعرفة بالقيادة كلما زاد التوق اليها، بقسوة سواء أكان عن طريق اله، أمير أو طبقة، أو طبيب أو معرف أو عقيدة، أو ضمير حزب. هذا ما يسمح بالاستنتاج بأنه يمكن لاعظم ديانتين في العالم، البوذية والمسيحية، أن يكونا قد ولدا عن فقر خارق في الارادة، الذي يفسر بشكل أفضل أيضاً سرعة انتشارهما. وبالواقع فالأمر كذلك: لقد وجد هذان الدينان في «عليك» حاجة قاهرة مهووسة حتى الجنون، حتى اليأس بفقر الارادة؛ لقد علم الإثنان التعصب في مرحلة خمود الارادة، وقدما من هنا عدداً لا يحصى من نقاط الارتكاز، من امكانية جديدة للارادة ولذة لا متناهية في القيام بها. إن التعصب هو «إرادة القوة»، الوحيدة التي يمكن بالواقع أن ينقاد اليها الضعفاء والمتشككين. لأنه ينوم مغناطيسياً كل سيستامهم الحسي والفكري لصالح غذاء وفير لوجهة نظر واحدة، لشعور وحيد ـ المسيحي يسميه إيمان ـ. ما ان يقتنع رجل بأنه يجب أن يؤمر فإنه يكون «مؤمناً»؛ ويمكن بالعكس أن نتخيل بعض اللذة في حكم الذات، بعض المقدرة في ممارسة السيادة الفردية، بعض الحرية في الارادة تسمح لذهن بأن يرمى بعيداً عنه تبعاً لرغبته كل إيمان، كل حاجة إلى اليقين متمرناً على البقاء متوازناً مع امكانيات خفيفة كما لو كان على الحبال المشدودة وإلى الرقص حتى على حافة الهاوية إنه سيكون الذهن الحر بامتياز.

348 ـ في أصل العلماء

ينمو العلماء في أوروبا في الطبقات والأوساط الاجتماعية الأكثر تنوعاً، شأنهم شأن نبتة لا تحتاج إلى أرض معينة: لهذا فإنهم جوهرياً وبشكل لا إرادي ممثلي الفكرة الديمقراطية. إلا أن هذا الأصل يكشفهم؛ لو تمرسنا قليلاً خلال قراءة كتاب أو بحث علمي على التمييز والقبض

بالجرم المشهود على طبع العالم ـ لأن لكل عالم طبعه ـ فإننا نكاد نلقى دائماً، خلفية تشكل هذا العالم، عائلته، وبشكل خاص الطابع المهني والحرفي لهذه العائلة. تبدو بعض النصوص كأنها تقول «هاك إذن شيئاً جيداً قد تأكد، لقد برهن عليه بالنسبة لي، إنه مسألة منتهية»، ذلك أن جَدّاً يتكلم في دم وغريزة العالم، مؤكداً من وجهة نظره أن المهمة قد «انتهت بنظافة». وان الاعتقاد بالبرهان، عند العالم ليس إلا عارضاً لما كان عند عرق كادح قد حُكِم بأنه «عمل جيد». مثلاً، أبناء كتاب المحاكم، والبيروقراطيون من أي نوع كانوا والذين كانت مهمتهم الأساسية تشتمل على مواد مختلفة، وإعادة توزيعها في السجلات وبشكل عام في ترسيمها، يسجلون عندما يكونوا علماء ميلاً خاصاً إلى اعتبار أن أشكال ما يكاد يكون قد حل ما إن يكونوا قد قاموا برسم بنيته. هناك فلاسفة، ليسوا شيئاً آخر، مع أخذ كل هذه الأمور بعين الاعتبار، سوى رؤوس إجمالية: ما كان يشكل الشكل في مهنة آبائهم قد صار العمق لديهم. فعبقرية التصنيف، عبقرية اللوائح الاجمالية لديهم، هي غريزة كاشفة لأننا لسنا بدون قصاص أبناء والدنا. فابن المحامي يرافع حتى في العلوم: فهو يريد من قضيته في البدء أن تغلب عليه وربما أيضاً، في المقام الثاني أن تكون قضية حقة. يُعرف أبناء أساتذة المدارس وراعي الكنيسة البروتستانتية بصفتهم علماء يُعرفون من يقينهم الساذج بأن أطروحتهم قد برهن عليها ما ان يتكلموا عنها بشجاعة وحرارة؛ ذلك أنهم قد اعتادوا منذ ولادتهم على أن يُصدقوا في كلامهم بالطبع يشكل هذا جزءاً من «مهنة» آبائهم. على العكس، فإن اليهود، متأثرين بنوع أعمال وتاريخ أمتهم ينتظرون كل شيء سوى أن يُصدقوا: تفحصوا بهذا الخصوص علماءهم: فهم يركزون بطريقة غير عادية على المنطق، أي ما معناه على فن الاكراه على القبول بعلل؛ فهم يعرفون أنهم منتصرون لا محالة معه، حتى عندما يصطدمون بكراهية عرقية أو اجتماعية وعندما لا يراد تصديقهم إلا قسراً. بالواقع ما من شيء ديمقراطي أكثر من المنطق: فهو لا يلتفت إلى الأشخاص ويضع الأنوف المعكوفة في السلة عينها التي يضع فيها الانوف المستقيمة (ليقال بشكل عابر: أن أوروبا والألمان في المقام الأول وهم عرق لا عقلاني بطريقة يرثى بها. ومن الضروري غسل رؤوسهم. لا تدين بالقليل إلى اليهود من وجهة المنطق

ونظافة العادات الفكرية. في كل مكان كان لليهود فيه تأثير، فإنهم علموا التمييز بدقة أشد والاستنتاج بضبط كلي والكتابة بأشد وضوح وصفاء، لقد كانت مهمتهم دائماً قيادة الشعوب «إلى العقل»).

349 ـ أيضاً في أصل العلماء

تعبر إرادة البقاء عن ظرف يأس، عن تقلص لغريزة الحياة الحقيقية، والتي بطبيعتها تطمح إلى توسع المقدرة، وبهذا فإنها غالباً ما تضع موضع السؤال وتضحي بـ «حفظ الذات». وإذا رأى بعض الفلاسفة ـ إذا لم يستطيعوا الامتناع عن رؤية ـ إن العنصر الأساسي للطبيعة الانسانية هو ما يسمى بغريزة البقاء ـ شأنهم شأن سبينوزا المسلول ـ علينا أن نجد في ذلك عارضاً؛ ذلك أنهم كانوا في ضيق أكيد. وإذا كانت العلوم الطبيعية في أيامنا هذه شديدة التشابك مع السبينوزية (وحديثاً مع الداروينية بعقيدتها اللامفهومة والوحيدة الجانب للصراع من أجل الوجود) ربما كان ذلك يعود إلى أصل أغلب علمائنا الطبيعيين: إنهم بهذا الخصوص من «الشعب» لقد كان أجدادهم فقراء ومن عامة الناس من الذين عرفوا صعوبات جمة لكي ينجوا بأنفسهم. تعبق الداروينية البريطانية بهواء راكد، بالعدد المتضخم لسكان بريطانيا، بالبؤس وبالضيق. إلا أنه عندما نكون علماء طبيعيين علينا أن نعرف أن نخرج من زاويتنا الانسانية؛ وليست الفاقة ما يحكم في الطبيعة ولا الضيق، إنه الافراط والتبذير، وجنون التبذير. وليس الصراع من أجل الوجود سوى استثناء، تقلص آني لإرادة ـ الحياة: يبقى أن ما يُخاطر به في الصراعات الكبيرة والصغيرة هو التفوق، والتكاثر والاتساع والمقدرة تبعاً لـ «إرادة الاقتدار» التي هي بالضبط إرادة حياة.

350 ـ على شرف «homines religiosi»

يمثل الصراع ضد الكنيسة، من بين أوجهه الأخرى ـ ذلك أنه يملك أوجهاً كثيرة ـ يمثل صراع الطبائع الرعاعية، الجذلة الأليفة والسطحية ضد سيطرة قوم أشد حصافة وأشد عمقاً وأشد تأملاً، أي ما معناه قوم أقل سذاجة، وأقل ثقة والذين تقصوا لزمن طويل شكاً عميقاً حول قيمة الوجود وقيمتهم الخاصة: لقد ثارت ضدهم غريزة الشعب السوقية ولذاته و«طيبة

قلبه». تقوم الكنيسة الرومانية على شك جنوبي بخصوص الطبيعة البشرية، شك طالما أساء أهل الشمال فهمه والذي ورثه الجنوب الأوروبي عن الشرق العميق، عن آسيا القديمة والغامضة، أرض التأمل. وتسجل البروتستانتية، بالأصل، ثورة الشعب لصالح «الرجل الشجاع» السليم الطوية، السطحي (لأن الشمال كان دائماً «الصبي الطيب» والأشد سطحية من الجنوب)؛ إلا أن الثورة الفرنسية هي من سلم الصولجان كلياً وبأبهة إلى «الرجل الطيب» (إلى الخروف الذي يثغي، والحمار والأوزة؛ لكل ما لا شفاء من سطحيته وصراخه، لكل ما هو ناضج لمأوى معتوهي «الافكار الحديثة»).

351 ـ على شرف الطبائع الكهنوتية

إنهم الفلاسفة، أعتقد، من شعر دائماً بأنهم أبعد ما يكون عما يسميه الشعب (ومن ليس من «الشعب» في أيامنا) حكمة: هذه الراحة البقرية للروح، هذه التقوى الحذرة، هذا اللطف الذي يشعر به خوري الريف، والمرعى، حيث يتمدد ليرى الحياة تمر بجدية المجتر ـ ربما كان هذا يعود إلى أن الفلاسفة ما كانوا يشعرون بما فيه الكفاية أنهم من الشعب وليسوا خوارنة ريف. وهم من دون شك آخر من يمكن إقناعهم أنه بامكان الشعب أن يفهم شيئاً ما بعيداً عن ذهنه بعد شغف المعرفة الكبير؛ إن من يبحث عن هذه المعرفة، يعيش باستمرار، يعيش بقضاء محتوم وسط عاصفة أعلى الاشكالات وأثقل المسؤوليات (لا يمكنه بالتالي أن يكون إلا نقيض المشاهد، رجل الهامش، اللامبالي، الواثق والموضوعي). وما يجله الشعب عندما يكون مثالاً «للحكيم» هو نمط مغاير تماماً من الرجال، ولديه ألف مرة الحق في أن يكرمهم بأندر التشريفات وبأشد العبارات اختياراً: إنها الطبائع الكهنوتية اللطيفة والجدية والبسيطة والعفيفة، وكل ما ينتسب اليها... إنها هي من يستحق الاحترام الذي يوجهه الشعب للحكمة. من، بالواقع، لديه من الأسباب ليوجه اليه عرفانه بالجميل إلا لهؤلاء الرجال الذين خرجوا منه، وينتمون اليه، لكن كأناس مكرسين، منتجين، كأناس مضحى بهم من أجل خيره ـ إنهم يعتقدون أنهم منذورون للاله ـ هؤلاء الرجال الذين يستطيع في وسطهم أن يفرغ ما في قلبه من دون عقاب، أن

يتخلص من أسراره، من وساوسه، ومما هناك من أتعس (لأن الرجل الذي «يعترف» يتخلص من «ذاته»، ومن «اعترف» اليه ينسى) إن ضرورة عظيمة هي التي تحكم هنا لأنه لكي تفرغ مصارف الروح هذه من قذارتها ولمياه صافية لتطهرها، تحتاج إلى فيض من الحب، من القلوب الباسلة، والمتواضعة والصافية التي لا تتراجع الأعمال الصحية هذه والتي تهملها الدوائر العامة، تحتاج إلى أناس يضحون بأنفسهم؛ وبالواقع يتعلق الأمر هنا بالتضحية بالذات، حيث يبقى الكاهن الضحية الانسانية. يرى الشعب في هذه الضحايا الصامتة رجال الايمان الوقورين هؤلاء، يرى الشعب أنهم حكماء ـ عقول عارفة ـ كائنات أهل للثقة في مواجهة تقلباته. من بامكانه أن ينزع عن الشعب هذه الثقة وهذا الاحترام؟ ولكن وبثأر عادل فإن الكاهن بنظر الفلاسفة ليس إلا رجلاً من «الشعب» وليس رجلاً عارفاً لأن الفلاسفة بشكل خاص، لا يعتقدون برجال «يعرفون» ويشعرون بالأصل بأن اعتقاد البشر بالناس الذين يعرفون لهو شعوذة «شعبية». لقد كان «تواضع» اليونانيين من ابتكر كلمة «فيلسوف» وترك إلى مؤرخي الادعاء المتفاخر بأن يسموا «حكيماً» تواضع وحوش الكبرياء وسيادة الذات من يسمون أفلاطون أو فيثاغورس.

352 ـ بأي معنى تكاد تكون الأخلاق لا غنى عنها

عادة ما يقدم الرجل العاري مشهداً مهيناً ـ ولا أتكلم هنا إلا عن نحن الأوروبيون (دون أن آخذ بعين الاعتبار الأوروبيات). لنفترض أنه خلال عشاء، وبخبث ساحر، يرى الأشد فرحاً بين الآكلين أنهم عراة فجأة، وأنهم قد تخلوا عن كل براقعهم، أعتقد أن هذا المشهد لا يحبط فقط المزاج الطيب، بل الشهية الأشد ضراوة؛ يبدو أن الأوروبيين عاجزون تماماً عن التخلي عن التنكر الذي يسمى ملابساً ـ لكن ألا يوجد أيضاً أسباب جيدة لنكسو الروح، لنلبس «الرجل الأخلاقي» ولنحجبه بصيغ وعبارات ملائمة؟ ليس ذلك لأني أعتقد أن هذا الفعل يستخدم لستر الدناءة البشرية، لنقنع الحيوان الكاسر الذي يعيش في داخلنا! بل على العكس أعتقد أنه بصفتنا حيوانات مدجنة فإننا نقدم مشهداً مهيناً يستدعي لباس تنكر الأخلاق. إن الرجل الأوروبي ليس سيئاً بما فيه الكفاية ليظهر نفسه، وهو

أبعد ما يكون عن الضراوة ليبدو جميلاً. يتنكر الأوروبي بـ «معطف الأخلاق» لأنه صار حيواناً مريضاً، دابة ذات عاهة ومشوهة لديها أسبابها الوجيهة لتظهر إنها «مدجنة» أسباب شبه المجهض والمسخ واليسار والضعيف. . . فالكواسر لا تجد أنه من الضروري أن تخفي ضراوتها بل حيوان القطيع من يحتاج إلى إخفاء وضاعته، وضاعته العميقة والخوف والملل الذي يسببه لنفسه. فبالتبرج بالأخلاق، يتأكد الأوروبي، لنعترف بذلك، بأنه يبدو أشد تمييزاً، أشد نبلاً وأهمية وأشد سطوعاً وأشد «ألوهية».

353 ـ في أصل الأديان

إن الابتكارات الحقيقية لمؤسسي الأديان هي: أولاً: ارساء نمط حياة، محدد، عادة يومية، تفعل فعل الارادة، وتبعد الملل، ثانياً: تأويل يمجد هذه القاعدة على أنها أغلى موضوع ويجعل منها خيراً أسمى يمكن أن نقاتل من أجله، وعند الحاجة، أن نقدم حياتنا له. بالواقع، من هذين الابتكارين الثاني هو الأهم؛ الأول: نمط الحياة، يكون موجوداً بشكل عام قبل النظام، إلا أنه يكون موجوداً بين أنماط أخرى دون وعي بقيمته الضمنية. تكمن أهمية وأصالة مؤسس الدين عادة في أنه يرى ويختار هذا النمط من الوجود، في أنه أول من يحزر ما الذي يمكن فعله به، وكيف يمكن تأويله. المسيح (أو القديس بولس) مثلاً، وجد من حوله حياة الناس الوضعاء في المقاطعات الرومانية: حياة متواضعة، صالحة مثقلة بالهموم. فعمد إلى تأويلها وإلى شحنها بمعنى وقيمة ساميين؛ وأعطى بذلك الشجاعة لاحتقار كل نمط وجود آخر. هذا الهدوء المتعصب هدوء أخوان مورافيا Frères Moraves، هذه الثقة السرية الديماسية في الذات، والتي تنتفخ باستمرار إلى أن تصير مستعدة ذات يوم لـ «تخضع العالم» (أي ما معناه روما والطبقات العليا في الامبراطورية كلها). ولقد وجد بوذا أيضاً بنفس الطريقة، متبعثرة بين كل طبقات شعبه، هذه الفئة من الناس الطيبين، المتسامحين (وغير العدوانيين بالأخص) نتيجة لكسل طبيعي، ويعيشون نتيجة للكسل أيضاً في تقشف من دون أي حاجة تقريباً. وفهم أن هذا النوع من البشر سيستسلم لا محالة، بفضل الـ Vis inertiae، لاعتقاد يعد بمنع

عودة البؤس الأرضي (أي ما معناه العمل، والفعل بشكل عام)؛ في فهم هذا الواقع كانت عبقريته. من خصائص مؤسس دين ان يتمتع بعصمة المعرفة النفسانية لبعض فئات الأرواح المتوسطة التي تنتظر أن تعي ما تشترك فيه فيما بينها وهو من يجمعها بواسطة هذا الوعي، لذلك فإن تأسيس الأديان يصير دائماً في هذا الصدد عيداً طويلاً «للتعارف».

354 - في عبقرية النوع

لا يطرح إشكال الوعي (أو بالأحرى وعي الذات) إلا في اللحظة التي نبدأ فيها بفهم من أين يمكننا أن نفلت منه: والفيزيولوجيا وعلم الحيوان يضعاننا في بداية هذا الفهم (لقد لزمهما بالتالي قرنين من الزمن ليستدركوا الشهرة المشبوهة التي سبقتهما منذ ليبنتز). بالواقع، يمكننا أن نفكر وأن نشعر وأن نريد وأن نتذكر، يمكننا أيضاً أن «نتصرف» في كل معاني الكلمة، دون أن يكون لدينا وعي بذلك (كما يقال مجازياً). يمكن للحياة بكاملها أن تمر دون أن تنظر إلى نفسها في مرآة الوعي هذه: إضافة إلى أن هذا ما يحصل في الواقع، إذ أن الجزء الأكبر من نشاطنا حتى أسمى التفكير والمشاعر والارادة، مهما بدا ذلك منكداً لفيلسوف من الأمس، تمر من دون انعكاس وبدون تفكير. ما هي بالتالي الضرورة المطلقة للوعي إذا لم يكن أساسياً للوجود؟

والحال لو تمت إعارة الانتباه إلى جوابي وإلى افتراضاتي التي أقدمها هنا والتي ربما ذهبت بعيداً بعض الشيء والتي يوحي لي السؤال بها، سأقول: إن قوة الوعي وحدته تبدوان لي على علاقة مباشرة مع مقدرة الانسان (أو الحيوان) على التعبير عن نفسه وهذه المقدرة نفسها تتعلق بالحاجة إلى التواصل. لا أريد أن أقول بذلك أن الفرد نفسه وهو أفضل من يعرف أن يعبر عن حاجاته وأن يفهمها للآخرين إنه قد اضطر قسرياً إلى الاعتماد على نجدة الآخرين. قد تكون الظاهرة قد جرت على أعراق بكاملها، على سلسلة من الأجيال؛ اليكم كيف: عندما أجبرت الضرورة والحاجة البشر على التواصل والتفاهم فيما بينهم، بسرعة وبدقة، خلق فائض من هذا الفن وهذه القوة، نوع من الكنز كدسه الزمان وينتظر وريثاً يبذره؛ «الفنان» هو هذا الوريث، شأنه شأن الخطيب والواعظ أو الكاتب:

كلهم رجال لا يأتون إلا عند نهاية سلسلة طويلة، إنهم «القادمون المتأخرون» بالمعنى «النبيل» والذين هم بطبيعتهم مبذرون. إذا كانت هذه الملاحظة صحيحة، أجد أنه من حقي الافتراض أن الوعي قد تطور بفعل ضغط الحاجة إلى التواصل؛ وإنه لم يكن ضرورياً في البدء إلا في علاقات الانسان بالانسان (خاصة بالنسبة إلى القيادة) وانه لم ينمو الا بمقياس هذه المنفعة. ليس الوعي إلا شبكة من الاتصالات بين الرجال، وبهذه الصفة فقط كان مرغماً على النمو! إن الانسان الذي يعيش متوحداً، الانسان المتوحش بامكانه أن يستغني عنه. وإذا كانت أفعالنا وأفكارنا ومشاعرنا وحركاتنا تتوصل إلى سطح وعينا ـ أو جزء منها على الأقل ـ، فإن ذلك ناتج عن ضرورة رهيبة «عليك» حكمت الانسان طويلاً، أشد حيوان مهدد: كان يحتاج إلى النجدة والحماية، يحتاج إلى شبيهه، كان يحتاج إلى أن يكون ذكياً ليعبر عن ضيقه إلى أن يجعل نفسه مسموعاً، من أجل هذا كله، كان بحاجة في المقام الأول إلى أن يملك «وعياً» إلى أن يعرف بنفسه ما ينقصه، وان «يعرف» ما الذي يشعر به، وأن يعرف ما الذي يفكر به. فالانسان، شأنه شأن كل مخلوق حي، أعود فأكرر ذلك، يفكر باستمرار. لكنه يجهل ذلك؛ لا تمثل الأفكار التي تصير واعية إلا جزءاً لا يذكر، لنقل الأكثر سطحية، الأشد سوءاً، من كل ما يفكر: لأنه ليس هناك إلا هذه الفكرة التي تعبر عن نفسها بالكلام، أي باشارات التواصل، وهذا ما يكشف أصل الوعي نفسه: إن نمو اللغة ونمو الوعي (ليس العقل، بل فقط العقل الذي يصير واعياً بنفسه) هذان النموان هما صنوان. لنضيف أنه ليس اللغة فقط من يخدم كجسر بين الرجال، هناك أيضاً النظر، الضغط، الحركة، لقد وعينا انطباعات أحاسيسنا الخاصة بوضوح أشد، ولقد اكتسبنا قدرة على تبيانها وعلى إظهارها كلما زادت الحاجة إلى التواصل مع الآخرين بالاشارات. لا ينفك مبتكر الاشارات إنساناً يعي نفسه أكثر فأكثر؛ إن الانسان فقط بكونه حيوان اجتماعي قد تعلم على أن يصير واعياً بنفسه، ولا يزال يقوم بذلك أكثر فأكثر. إني أفكر، كما يرى، أن الوعي لا ينتمي أساساً إلى الوجود الفردي للانسان، بل على العكس هو جزء من طبيعته المشتركة مع القطيع كله! وانه لم يتم تطوره الدقيق، بالتالي، الا بمقدار منفعته للجماعة، للقطيع، لا يمكن لأي واحد منا، بالرغم من

أفضل ارادة في أن «يتعرف إلى ذاته» بما لديه من أشد ما فيه فردية، فإنه لن يمكنه إطلاقاً إلا أن يعي جهته اللافردية. وأشد ما فيه «وسطاً»؛ وان تفكيرنا نفسه لا ينفك يجد طابع الوعي يزداد عليه. عبقرية النوع التي تأمر فيه ـ وتعاد ترجمته باللغة التي يفرضها عليه منظور القطيع. إن كل أفعالنا بالطبع هي في العمق فائقة الشخصية والفرادة والفردانية، ولا تقبل المقارنة، إلا أنه ما ان يترجمها الوعي بلغته حتى تكف عن أن تبدو كذلك. . . تلك هي الظاهراتية والمنظورية كما أفهمها: إن طبيعة الوعي الحيوانية تجعل العالم الذي نستطيع أن نعيه ليس إلا عالماً سطحياً وعالم دلالات، عالم تعميمات متداولة وان كل ما يصير واعياً يصير بالتالي ومن هنا بالذات سطحياً، رقيقاً، وغبيٌّ نسبياً، يصير شيئاً عاماً، إشارة، عدداً للقطيع، وان كل استيعاء يستتبع فساداً كلياً لموضوعه، تزويراً كبيراً و«تسطيحاً» وتعميماً. وفي آخر الحساب أن تزايد الوعي لهو أمر خطير، ومن يعيش وسط الأوروبيين الواعين يعرف حتى أنه مرض. ليس ما يشغلني الآن، كما يُتكهن تعارض الذات ـ الموضوع؛ أتخلى عن هذا التمييز إلى منظِّري المعرفة الذين يبقون معلقين بحبائل قواعد اللغة (ميتافيزيقا الشعب هذه). انه بشكل أقل، التعارض بين الشيء في ذاته والظاهر، لأننا لا نملك أي عضو للمعرفة، و«للحقيقة»: (إننا نعرف «نعتقد»، نتخيل) حقاً بمقدار المنفعة للقطيع الانساني، للنوع، كما أن «المنفعة» التي نتكلم عنها بهذا الخصوص ليست هي نفسها، في آخر الحساب، الا اعتقاد، نتاج لمخيلتنا، وربما الحماقة الأشد حتمية، تلك التي ستؤدي إلى هلاكنا في يوم ما.

355 ـ في أصل مفهوم «المعرفة»

لقد استوحيت هذا التفكير في الشارع عندما سمعت رجلاً من الشعب يقول: «لقد عرفني»! وتساءلت عند سماعي هذه الكلمات ما الذي يقصده العوام بالمعرفة. إلى ماذا يسعى عندما يسأل عنها؟ لا شيء غير ذلك: إرجاع شيء ما غريب إلى شيء ما «معروف». ونحن معشر الفلاسفة، ما هو الشيء الذي نضيفه إلى هذه الكلمة؟ المعروف أي ما معناه الاشياء التي اعتدنا عليها بشكل لا تعود معه تدهشنا؛ نضع فيها جدولنا اليومي، قاعدة

ما تقودنا، كل ما هو أليف لدينا. . . وماذا؟ أليست حاجتنا للمعرفة هي بالضبط حاجتنا إلى المألوف؟ الرغبة بأن نجد، بين كل ما هو غريب، غير عادي، لغزي، شيئاً ما يطمئننا؟ أليست غريزة الخوف هي ما يأمرنا بالمعرفة؟ أليست الفتنة التي تصاحب اكتساب المعرفة هي لذة الأمان الذي لقيناه ثانية. ذاك الفيلسوف يعتبر العالم «معروفاً» عندما يرجعه إلى «الفكرة» للاسف! أليس ذلك ببساطة لأن الفكرة شيء مألوف تماماً وعادي لديه؟ لأنه قلما تخيفه الفكرة؟ آه، هذه المسرات القليلة لأولئك الباحثين عن المعرفة! . . . كم يرضون بسعر زهيد! افحصوا إذن من وجهة النظر هذه مبادءهم وأجوبتهم على الالغاز التي يطرحها العالم! عندما يجدون في الأشياء، تحت الاشياء، أو وراء الأشياء عنصراً يعرفونه جيداً للاسف، كمنطقنا مثلاً، جدول الضرب، أو إرادتنا أو رغبتنا، أي نشوة صافية يشعرونها في الحال، لأن «المعروف قد عُرِفَ»، على هذا هم متفقون بالاجماع، ما من أحد، حتى أشد الحذرين، لا يفكرون أنه من الأسهل معرفة الأشياء الأليفة أكثر من الأمور الأخرى، وأن الأسلوب الجيد يوحي مثلاً بالانطلاق من «العالم الداخلي»، وبالاعتماد على «وقائع الوعي» لأنه الأشد معرفة لدينا! آه خطأ الأخطاء! إن ما يسمونه معروفاً، هو الاعتيادي، والاعتيادي هو بالضبط من أشد الأمور صعوبة على «المعرفة»، أي ما معناه، يجب اعتباره إشكالاً، شيئاً مجهولاً، بعيداً، خارجاً عنا. . . لأن اليقين الكبير الذي تبديه العلوم الطبيعية علم النفس ونقد عناصر الوعي - علوم يمكن القول أنها مضادة للطبيعة - يشتمل بالضبط على أن هذه العلوم تأخذ الواقع الغريب كموضوع: بينما هناك شبه - تناقض، شبه عبثية، في إرادة أخذ موضوع لا يكون غريباً.

356 - بماذا ستصير أوروبا «فنية» أكثر فأكثر

في مرحلتنا الانتقالية حيث اختفى الكثير من الاكراه لا يزال قلق القيام بالمعاش مع ذلك يفرض على أغلب الأوروبيين الذكور دوراً محدداً، مهنتهم كما يقال: يحافظ البعض على حرية، حرية ظاهرة، بأن يختاروا بأنفسهم هذا الدور، والآخرين الحشد الكبير، يأتيهم الخيار من الخارج. النتيجة غريبة بما فيه الكفاية: يكاد كافة الأوروبيين الذين وصلوا إلى عمر

متقدم، يختلطون مع دورهم؛ ويصيرون بأنفسهم ضحايا نوعية لعبتهم؛ وينسون كم تمكنت الصدفة والنزوة والعبث من حياتهم في المرحلة التي قررت فيها «مهنتهم»، وكم هي مختلفة الأدوار التي كان بامكانهم أن يلعبوها: لأنه من الآن فصاعداً يكون قد فات الأوان! بمعنى أعمق لقد صار دورهم طبعهم بالذات، لقد تحول الفن إلى طبيعة. هناك حقبات يعتقد فيها بقوة، باحتفالية، بتقوى، اننا منذورون لهذه المهنة، ولأكل ـ الخبز هذا أو ذاك، ولا يراد الاعتراف بأن الصدفة والدور والنزوة قد لعبت دوراً في هذا الخيار: ولقد نجحت بفضل هذا الايمان، طبقات، ومتحدات، وامتيازات مهنية متوارثة في تشييد هذه الأبراج الاجتماعية الوحشية التي تميز العصر الوسيط والتي يمكن أن نمدح فيها شيئاً على الأقل: القدرة على الديمومة (لأن الديمومة، على هذه الأرض، هي قيمة من المقام الأول!).

إلا أن هناك حقبات ذات طابع مناقض؛ إنها الحقبات الديمقراطية الحقة حيث يضيع أكثر فأكثر هذا الايمان وحيث يسيطر اعتقاد جسور في وجهة النظر المناقضة، اعتقاد اليونانيون الذي نلاحظه للمرة الأولى في مرحلة بركليس périclès. هذا الاعتقاد، اليوم والذي يصير اعتقاداً أوروبياً أكثر فأكثر؛ حيث كل واحد يعتقد أن بامكانه القيام بكل شيء تقريباً، بأن يكون على مقدار كل دور؛ كل واحد يحاول، يجرب، يرتجل ويعيد المحاولة، يلتذ بذلك، تتوقف كل طبيعة وتصير فناً. . . ما ان انخرط اليونانيون في مجرى الاعتقاد بالدور ـ اعتقاد فنان، إذا أردنا ـ حتى مروا بكل حقبات التحول الفريد غير الجدير بالتقليد على كافة الأوجه: لقد صاروا ممثلين بحق، وممثلون يفتنون ويكتسحون العالم، . . . بما في ذلك «تملك العالم بكامله» (لأن من اقتحم روما هو groeculus histrio وليس الحضارة الهلينية، كما يقول الأبرياء. . .). والحال فإن ما يخيفني، هو ما يمكن أن نراه بأعيننا لو كان لدينا رغبة بالرؤية، وهو أننا نأخذ، نحن المعاصرون الطريق عينه؛ وفي كل مرة يبدأ فيه الانسان باكتشاف المقدار الذي يمثل فيه دوراً، مقدار امكانيته بأن يصير ممثلاً، فإنه يصير ممثلاً بالفعل. . عندها نرى بروز نباتات جديدة، وحيوانات إنسانية جديدة لم يكن

بامكانها أن تنمو إلا في حقبات أشد صرامة وأشد ضيقاً، - أو انها تبقى على الأقل في الظل، مشتبه بأنها عار - ؛ إنها أشد الحقبات أهمية وأشدها جنوناً في التاريخ، تلك التي يكون فيها كل أنواع «الممثلين» هم الأسياد الحقيقيون. من هنا بالذات يجد نوع من الرجال نفسه وقد زالت حظوته، وصار، أخيراً، مستحيل الوجود. ابتداءاً من كبار المهندسين، والبنائين الكبار؛ فتذبل في الحاضر قوى البناء؛ وتفقر الشجاعة التي كانت تسمح بتشييد مشاريع للمدى الطويل؛ ويبدأ عباقرة التنظيم بالنقصان. من لا يزال يجرؤ على التصدي لعمل يستدعي انجازه أن يكون بالامكان الاعتماد على مدى آلاف السنين؟ ألا نرى موت الايمان الأساسي الذي يسمح بالتالي لرجل بالحساب بالوعد وبالاستباق وبالتضحية بالمستقبل لمشاريعه ولا يعود للانسان تبعاً لها أي قيمة، أو معنى الا بمقدار ما يكون حجراً في بناء لا حد له: هذا ما يفرض عليه في البدء أن يكون صلباً، أن يكون «حجراً»؟. . . وقبل كل شيء أن لا يكون ممثلاً: باختصار، - للاسف لا يُسكت عن ذلك الّا لوقت طويل! - إن ما لن يبنى من الآن، ما لا نستطيع بناءه بعد الآن، هو مجتمع، في المعنى الذي كان لهذا المصطلح فيما مضى: لبناء هذا البناء ينقص كل شيء، وتنقص المواد بالمقام الأول. لقد توقفنا جميعاً عن أن نكون مواد بناء لمجتمع: انها حقيقة آن الأوان للنطق بها. يبدو لي في هذه اللحظة أن الأمر سيان في أن النوع البشري الأشد ضعفاً بالنظر، وربما كان الأشد نزاهة أيضاً، والأشد ضجيجاً على كل حال، يبدو لي أيها السادة الاشتراكيون ان يستطيع أن يأمل وان يحلم وان يكتب وان يصرخ - وبالأخص أن يصرخ - رأياً مخالفاً: إننا نقرأ أصلاً شعارهم المستقبلي على كل اللوائح والجدران «مجتمع حر»، مجتمع حر؟ تماماً! ولكن هل تعرفون أيها السادة كيف يبنى هذا المجتمع؟ برخام من ورق! الورق - الرخامي الشهير! وبعد، عندما أقول ورق. . .

357 - بخصوص إشكال قديم

من هو الألماني؟ قم باحصاء المكتسبات الحقيقية للفكر الفلسفي والتي يعود الفضل فيها إلى أدمغة ألمانية: هل يمكننا بأي معنى مقبول، أن نعزوها إلى العرق بأكمله؟ هل يمكن القول: إنها في الوقت نفسه من صنع

«الروح الألمانية»، أو على الأقل من أعراضها في المعنى الذي يقال فيه عادة مثلاً أن هوس أفلاطون بالمثل وجنونه بدين الاشكال لديه هي صنيع «الروح اليونانية» وشاهد عليها؟

أو هل يجب أن نقبل النقيض؟ أتكون هذه المكتسبات الفلسفية ثمرة أفراد استثنائيين في عقلية العرق، كما كانت عليه مثلاً وثنية غوته وميكافيلية بسمارك «سياسة واقعية» دون أي خجل في ذلك؟ ألا ينطلق فلاسفتنا ضد «حاجات» «الروح الألمانية»؟ باختصار هل كان الفلاسفة الألمان ألمان فلاسفة بحق؟

سأذكّر بثلاث حالات. في البدء حالة لايبنتز، وفكرته التي لا تضاهى والتي أعطته الحق، ليس فقط ضد ديكارت، بل ضد كل النظريات الفلسفية التي كانت رائجة قبله، عندما قال أن الوعي مجرد عرض للتمثل وليس صفة ضرورية جوهرية، وأن ما نسميه وعياً، أبعد من أن يشكل عالمنا النفسي والروحي الداخلي، لا يمثل إلا حالة خاصة (ربما حالة مرضية). هل هناك من شيء ألماني في هذه الفكرة التي لم تستنفذ أعماقها الهائلة بعد حتى أيامنا هذه؟ هل من باعث للشك بأن لاتينياً لن يكون بامكانه التوصل بسهولة إلى هذا الانقلاب للبداهة؟ ذلك أن هذا هو انقلاب بحق:

لنتذكر كانط في المقام الثاني وعلامة التساؤل الرائعة التي وضعها أمام فكرة «السببية»؛ لم يناقش حقوق هذه الفكرة، كما فعل هيوم Hume بل على العكس، لقد بدأ بحذر شديد بتحديد المجال الذي لا تزال تحتفظ فيه بمعنى (وهو عمل لم ينجز حتى أيامنا هذه).

لنتذكر ثالثاً، وأخيراً، عمل هيغل الرائع، الذي قلب كل عادات المنطق، هذا الطفل الملل، عندما أخذ يُلقن أن الأفكار الخاصة تخرج الواحدة منها من الأخرى: مبدأ حضَّر العقول في أوروبا باتجاه آخر حركة علمية كبيرة، باتجاه الداروينية؛ ذلك أنه من دون هيغل ليس هناك من داروين على الاطلاق. هذا الابتكار الهيغيلي والذي كان أول من أدخل مفهوم التطور إلى العلم، هل لديه شيء ما ألماني؟

نعم لا شك في ذلك: نشعر في الحالات الثلاثة أن «اكتشافاً» قد

تم، وقد حزرنا شيئاً ما عن أنفسنا؛ إننا لشاكرين ومندهشين في الوقت نفسه؛ يساهم كل واحد من هذه الاكتشافات الثلاثة في أن يتعرف الألماني على ذاته. على أن يدرك ذاته، ويغني تجربته الذاتية. «إن عالمنا الداخلي هو عالم أغنى بكثير، وأعظم بكثير، وأكثر تستراً»؛ نشعر بذلك مع ليبنتز. ومع كانط، إننا كألمان نشك في القيمة النهائية للمعارف العلمية ولكل ما يُلقن باستنتاج سببي: لا يبدو لنا ما يمكن معرفته إلا، بهذه الصفة، كأقل قيمة، إننا هيغيليون نحن الألمان، وسنكون كذلك حتى لو لم يكن هناك من هيغل. إننا هيغيليون بالمقدار الذي نمنح فيه غريزياً، على نقيض كل لاتيني، نمنح للصيرورة، للتطور معنى وقيمة أشد من «الكين» (حتى أننا بالكاد نؤمن أن «الكين» هو مبدأ مبرر)؛ هيغليون أيضاً، بمقدار ما نعارض قبول منطقنا البشري على أنه المنطق من دون أي زيادة، والنوع الوحيد الممكن (بالعكس سنحب أن نقتنع أنه ليس الا حالة خاصة من المنطق الحقيقي، ربما واحد من أشدها بلادة وأشدها فرادة).

ثمة سؤال رابع يلقى أيضاً: وهو معرفة ما إذا كان شوبنهور، المتحمس لهذا التشاؤم الذي يشكك في قيمة الحياة، يجب أن يكون بالضرورة، ألمانياً. لا أعتقد بهذه الضرورة، فالحدث الذي يمكن أن ننتظر بعده أن يُطرح اشكال قيمة الحياة حتمياً يمكن لعالم فلك الروح أن يحسب مسبقاً اليوم والساعة التي سيزول فيها الايمان بالاله المسيحي، وانتصار الالحاد العلمي. هذا الحدث كان عملاً أوروبياً شاملاً يعود الفضل والشرف فيه إلى كل الاعراق. حتى أنه يجب أن يعزى إلى الألمان، إلى أولئك الألمان الذين عاشوا في حقبة شوبنهور - في أنهم قد أخروا ولأطول فترة وأشدها خطراً هذا الانتصار للالحاد: لقد كان هيغل بالتحديد المعيق بامتياز، مع كل عظمة المحاولة التي قام بها ليقنعنا في آخر ساعة بألوهية الوجود بواسطة حسنا السادس، الذي أسميه «الحس التاريخي». لقد كان شوبنهور، كفيلسوف، أول ملحد مقتنع وعنيد حصلنا عليه في ألمانيا! هذا هو سر عدائه لهيغل. ليس هناك من أي ألوهية للوجود: هذا ما كان بالنسبة اليه حقيقة معطاة، شيء ملموس، لا مجال للشك فيه؛ لقد كان يفقد رباطة جأش الفيلسوف، ويسخر في كل مرة يرى فيها شخص ما يتردد ويناور في

هذا الموضوع. حول هذا الاشكال ترتكز استقامته كلها؛ لأن الالحاد المطلق والمستقيم هو بالواقع الشرط الأولي لطريقته في طرح الاشكالات الذي يرى فيه نصراً للوعي الاوروبي دفع ثمنه طويلاً وطويلاً، الفعل الأشد خصوبة لألفي سنة من النظام، نظام يهدف إلى الحق الذي انتهى بأن امتنع عن أكذوبة الايمان بالله. . . نرى من الذي انتصر على الاله المسيحي، إنها الأخلاق المسيحية نفسها. مفهوم الاخلاص وقد طبق بدقة أشد فأشد، إنها دقة الوعي المسيحي وقد شحذها الاعتراف وغير موضعها وتسامت أخيراً، إلى وعي علمي، إلى نظافة فكرية أي ثمن كان. إن النظر إلى الطبيعة على أنها برهان على طيبة الاله وعنايته، وتأويل التاريخ لمجد العقل الالهي بصفته شهادة مستمرة على الغاية الاخلاقية للنظام الكوني، وتفسير كل تجاربنا الخاصة بالاتجاه الذي يفسرها فيه الرجال الورعون منذ زمن لا بأس به، على أن كل شيء ليس الا هبة، الا إشارة الا تنبيهاً من العناية الاهية وان كل شيء يساهم في خلاص روحنا، هذا كله قد ولى من الآن فصاعداً، هذا ما تشعر به في الوقت الحاضر أشد الضمائر رهافة على أنه عدم استقامة، على أنه سوء نية، على أنه خداع، على أنه أنثوية وضعف واسترخاء ـ وبفضل صرامة كهذه، إذا كان لا بد أن يكون بفضل شيء ما، فإننا أوروبيون طيبون، وارثي السيطرة على الذات الأكثر مثابرة، والأكثر شجاعة التي برهنت عليها أوروبا حتى الآن. لكن ما ان نرد هذا التأويل المسيحي، ما ان ندفعه عنا كعملة مزيفة، حتى ينتصب أمامنا بهول سؤال شوبنهور: إذن هل للوجود معنى؟ هذا السؤال الذي يتطلب قرون قبل أن يستنفذ فهمه في طوايا اعماقه. حتى ان جواب شوبنهور قد أعطي ـ وليغفر لي هذا ـ قبل أوانه؛ إنه فاكهة فجة، تسوية صرف. لقد توقف بسرعة، وعلق في الفخ، في هذه المناظير الاخلاقية التي تنتج بالضبط عن التقشف المسيحي، والتي أشير إليها، في الوقت نفسه الذي أشير به إلى الله، بأنه لم يعد يراد الاعتقاد به. . . . إلا أنه قد طرح السؤال، شأنه شأن أي أوروبي طيب، كما قلت، وليس كألماني. إلا إذا فكرنا أن الألمان قد شعروا بالتآلف، بالقرابة الذهنية مع شوبنهور، بالاستعداد لسماعه، وبالحاجة لاشكاله، بالطريقة التي استولوا بها على السؤال الشوبنهوري؟ إن واقع بدء التفكير والتعليق في ألمانيا بعد شوبنهور ـ وبتاريخ يبقى متأخراً

بما فيه الكفاية ـ على السؤال الذي طرحه. لا يكفي بالطبع للتقرير لصالح هذا الانتماء؛ حتى أنه يمكن أن نعارضه بالتشاؤم الأخرق الفريد الما ـ بعد شوبنهوري؛ ـ إضافة إلى أن الألمان يتصرفون بشكل جلي كما لو أنهم في غير موضعهم. لا ألمح بذلك إطلاقاً إلى ادوارد ڤون هارتمان Eduard Von Hartmann ؟ بل على العكس، فإني لا أزال إلى اليوم بعيداً عن التخلي عن شكي القديم بخصوصه، إني أعتبره، حذقاً بافراط بالنسبة الينا. أقصد أن المداعب الماكر منذ البداية، لم يفعل شيئاً آخر سوى أن يسخر من التشاؤم الألماني، إلا أنه بامكانه في آخر الحساب أن «يوحي» إلى الألمان بوصية، بالطريقة التي أمكن خداعهم بأنفسهم بها، في خضم مرحلة المشاريع العظيمة. لنترك هارتمان، فإني أتساءل ببساطة إذا كان يجب اعتبار باهنسن Bahnsun هذه الخرارة القديمة على أنه فخر لألمانيا، والذي أمضى حياته يدور متلذذاً حول مأساته «الواقعية الجدلية» «سوء حظه الشخصي» هل من الصدفة بشيء أن يكون ألمانياً؟ (أنصح بالمناسبة بكتاباته بصفتها علاج ضد التشاؤم، علاج مارسته بنفسي بالأخص بسبب خواصها elegantial psychological، الفعالة، كما أعتقد ضد أشد إمساك للروح وللجسد). أو هل يجب أن يحصى كألمان حقيقيين هواة الموسيقى والفتيات العوانس شأن Mainluïnder ماينلاندر رسول «البكارة» العذب هذا؟ وسترون في آخر المطاف أنه كان بدون شك يهودياً (يصير كل يهودي عذباً عندما يتكلم عن الأخلاق)، كلا، لا باهنسن ولا ماينلاندر، دون أن نتكلم عن هارتمان بامكانهم أن يساعدونا على الاعتقاد بأن تشاؤم شوبنهور وهذا النظر الهلع الذي يلقيه على عالم خلع عنه فجأة، الهته. عالم صار أحمقاً، أعمى، مجنوناً، ولغزاً ـ ما من واحد منهم باستطاعته أن يساعدنا على التفكير بأن هذا الصدق المرعب لم يكن حدثاً استثنائياً بين الألمان، بل أيضاً حدثاً ألمانياً، بينما كل ما يحدث في المقام الأول، سياستنا الشجاعة، والافراط الفرح في حب الوطن الذي يقدر كل شيء تبعاً لمبدأ قليل الفلسفة Duitschland, Deutschlandüber alles (ألمانيا فوق الجميع) وبالتالي sub speciei من الـ specieis الألمانية؛ يبرهن العكس مما لا مجال للشك فيه. كلا الألمان اليوم ليسوا بمتشائمين إطلاقاً! ولأقوله مرة أخرى، لقد كان شوبنهور متشائماً، بصفته أوروبياً طيباً، وليس بصفته ألمانياً.

358 ـ إنتفاضة الفلاحين في مجال الفكر

إننا نجد أنفسنا، نحن الأوروبيون، أمام عالم لا متناه من الخراب، حيث لا تزال تظهر بعض الانصاب المرتفعة، إلا أن الكثير منها لم تعد صامدة، قضمها الكبر، وباتت رؤيتها مقلقة، أغلبها منثور على الأرض؛ وللكل تأثير حي، إذ أين يوجد أجمل من هذه الخرائب؟ يغطيها كلها العشب المضر الطويل والقصير، هذه المدينة المنهارة، هي الكنيسة. إننا نشاهد اليوم المجتمع المسيحي يخوض آخر معاركه. لقد هُزِم الايمان بالله. قُلِب بينما الاعتقاد بمثال التقشف المسيحي يشهر معركته الأخيرة. إن عملاً كالمسيحية، بني بهذه الصلابة وبهذه المدة الطويلة، إنه آخر أثر روماني، لم يكن بالطبع بالامكان إعدامه مرة واحدة؛ لقد احتاج إلى معاونة زلازل كل الانشقاقات، وكل ذهن يحفر وينقض ويلين ويحلل. إلا أن أغرب ما في الأمر أن أولئك الذين كانوا أشد من يجهد للحفاظ على المسيحية، كانوا أفضل هادميها: الألمان. يبدو جلياً أن الألماني لا يفهم ماهية الكنيسة. هل هذا نتيجة للغباء؟ أم لنقص في الحذر؟ في كل حال لقد شيدت الكنيسة على حرية الذهن، على استقلالية الافكار وهي أشياء جنوبية وعلى ريبة جنوبية، بخصوص الطبيعة والانسان والذهن، باختصار على معرفة وتجربة للانسان تختلف عن معرفة وتجربة الشمال. لقد كان الاصلاح اللوثري ثورة واسعة للبساطة ضد شيء ما مفارق؛ ولاستعمال عبارة حذرة، لقد كان سوء تفاهم فظ لبشر كرماء يستحق الصفح؛ لم تكن تفهم طريقة التعبير الخاصة بكنيسة منتصرة، ولم يكن يرى فيها إلا الفساد؛ لم يكن يفهم هذا الشك المميز، رفاهية الشك هذه والتسامح الذي تسمح به لنفسها كل مقدرة منتصرة وواثقة بنفسها... لا يظهر اليوم الا بوضوح شديد كل ما كان ينقص لوثر ليتصدى لمسائل المقدرة الجوهرية، لا يرى إلا بافراط كل العطايا المضرة التي حملها؛ ويدرك كم كان ضعيف البصر، وسطحي، ومتهور؛ رجل من العوام بشكل خاص، محروم من الوراثة التي كان بامكان طائفة حاكمة أن تغنيه بها، كانت تنقصه غريزة المقدرة: لدرجة أن كل عمله وكل الارادة التي كان يملكها لاصلاح بناء روماني كهذا قد صارت ببساطة، من دون أن يعرف ومن دون أن يريد بداية للتهديم. لقد مزق وحلل بغيظ صادق، في كل مكان أطول وأدق ما نسج فيه العنكبوت.

لقد سلم الكتب المقدسة لكل قادم؛ وانتهت بالتالي بأن وقعت بأيدي علماء اللغة؛ أي ما معناه بأيدي هادمي كل اعتقاد يرتكز على الكتب. لقد دمر فكرة «الكنيسة» ملقياً بالايمان الذي كان قائماً على وحي المجامع: لأنه لا يمكن لمفهوم «الكنيسة» أن يحتفظ بقواه إلا إذا قبل أن الفكر الموحى به الذي شيد هذه الكنيسة لا يزال حياً، ويبني في داحلها ويستمر في بناء مسكنه أن يحتفظ مفهوم الكنيسة بقوته. لقد أعاد للكاهن عادة العلاقات الجنسية مع المرأة: والحال فإن ثلاثة أرباع الاحترام الذي يقدر عليه الشعب، وبالأخص إمرأة الشعب يقوم على الاعتقاد بأن رجلاً استثنائياً حول هذه النقطة لن يكون أقل استثنائية في نقاط أخرى؛ بالواقع، هنا أيضاً للاعتقاد الشعبي بشيء ما يفوق البشر، بالمعجزة وبالله المخلص في الانسان كان قد وجد أدق محاميه وأفتنهم. لوثر بعد أن أرجع المرأة إلى الكاهن، كان عليه أن ينزع منه الاعتراف السمعي، وهذا ما كان نفسانياً صحيحاً: لكن الكاهن المسيحي قد أُلغي كان نتيجة لهذا الفعل، الذي كانت أعمق فائدة له بأنه كان دائماً أذناً مقدسة، بئراً من الصمت ، قبراً للاسرار. «كل واحد هو كاهنه الخاص». خلف صيغ من هذا النمط، وخلف مكرها الفلاحي يختفي عند لوثر كره «للرجال العظام» لا يمكن سبره، ولسيطرة هؤلاء «الرجال العظام» كما تصورتهم الكنيسة: لقد كان يهدم مثلاً لم يستطع الوصول اليه، مع احتفاظه بهيئة من يقاتل ومن يرذل الفساد. هو، الراهب المستحيل، طرح بعيداً عنه سلطة homines religiosi: فلم يكن يقوم، هو نفسه إذن، في داخل النظام الكهنوتي إلا بإثارة ما كان يقاتله في النظام الاجتماعي، بهذه الدرجة من اللاتسامح: «انتفاضة الفلاحين».

أما فيما خرج من إصلاحه، من حسن أو سيء، والذي يمكن اليوم القيام بتقويمه تقريباً، فمن تبلغ به السذاجة ليمدح لوثر أو ليذمه على النتيجة، أنه بريء من كل شيء، فهو لم يكن يعرف ماذا يفعل. إن تسطيح الفكر الأوروبي، ولنقل تلطيفه إذا كنا نفضل عبارة أخلاقية، قد قام بخطوة كبيرة إلى الأمام مع اصلاح لوثر؛ وهذا الاصلاح أيضاً هو من زاد في حركة هذا الذهن، وقلقه وعطشه للاستقلال، إيمانه بأن من حقه أن يكون

حراً، أن يكون «طبيعته»، وأخيراً، إذا كان المراد أن يعترف بفضله في تهيئة ومساعدة مجيء ما نكرمه اليوم تحت إسم «العلم الحديث» فلا يجب أن ننسى أن نضيف أنه متواطئ أيضاً في فساد العالَمْ اليوم، في نقص الاحترام لديه، والحياء والعمق وسلامة النية الساذجة، وهذه الاستقامة الثقيلة في أشياء المعرفة، باختصار في دناءة الذهن التي تميز القرنين الاخيرين والتي لم يخلصنا منها التشاؤم الحديث العهد بعد: حتى الآن، تدخل «الأفكار الحديثة» أيضاً في «انتفاضة فلاحي» الشمال ضد الذهن الاشد برودة، والأشد الالتباساً والأشد حذراً للجنوب، الذي شيد في الكنيسة المسيحية أسمى أثر فيها. لا ننس، أخيراً، ما هي الكنيسة بالأخص، على النقيض من الدول: الكنيسة هي قبل كل شيء صرح تراتبي يؤمن بالمصاف الأعلى للانسان الروماني، ويؤمن بما فيه الكفاية بالذهن ليمنع عن نفسه اللجوء إلى فظاظات العنف، وهذا وحده يكفي ليجعل منها مؤسسة أشد نبلاً من الدولة.

359 ـ إنتقام الذهن، وخطط ـ خلفية للأخلاق

الأخلاق... من أين تعتقدون أنها قد حصلت إذن على أخطر محاميها وأشدهم ضغينة؟ ... هاكم رجلاً سيء الولادة لا يملك ما يكفي من الذهن ليكون سعيداً بما يملك، والذي حصل على قدر من الثقافة يكفي لكي يعرف ذلك؛ فهو يمل، يتقزز، ويحتقر نفسه؛ وللأسف وبفضل القليل من الثروة، حرم من آخر تعزية، من «نعمة العمل»، من نسيان الذات في «العمل اليومي»؛ رجل كهذا يخجل من وجوده ـ ربما كان يكتم بالاضافة إلى ذلك، بعض الآفات الصغيرة في أعماق نفسه ـ ؛ ولا يمكنه من جهة أخرى أن يمتنع عن أن يفسد نفسه أكثر فأكثر، وأن يصير أكثر إثارة وغروراً بقراءات لا حق له بها، أو بمعاشرات مفرطة الثقافة بالنسبة لقدراته الهضمية: متسمم حتى النخاع ـ لأن الفكر بالنسبة لسيء الولادة من هذا النوع يصير سماً، والثقافة سم، وسم الوحدة والملكية ـ فإنه يقع أخيراً في حالة من الضغينة، في إرادة انتقام مزمنة... ما الذي تعتقدون أنه بحاجة اليه ليحافظ أمام نفسه على مظهر الاستعلاء بالنسبة للعقول الأشد قوة منه، ليمنح نفسه، في المخيلة على الأقل لذة الانتقام الكامل ؟ ستكون الأخلاق

دائماً من دون أي مخاطرة بالخطأ، دائماً الكلمات الأخلاقية العظيمة، دائماً «بوم، بوم» العدالة، والحكمة والقداسة والفضيلة، دائماً رواقية الموقف (الرواقية، كم تخفي جيداً كل ما لا يمكله أحد ما! . .) إنه بحاجة إلى معطف الصمت الاسمى، إلى البشاشة واللطف وكل ما لا أدريه من معاطف المثال، التي يتنزه تحتها من لا شفاء عنده من احتقاره لنفسه، كما من لا شفاء من غرورهم. فلكي أفهم جيداً ما أقول: من هذا النوع من الاعداء. . . الفطريين للذهن نشأ هذا النوع من البشرية الذي يكرمه الشعب أحياناً تحت إسم القديس، الحكيم: من هذا النوع من الرجال يتشكل وحوش الأخلاق هؤلاء، الذين يقومون بالضجيج، والذين يقرعون الأجراس ـ القديس أغسطين هو واحد منهم. الخشية من الذهن والانتقام من الذهن. . ، كم من المرات بالأصل صارت هذه الآفات المفعمة بالقوة المحرضة جذوراً للفضائل! لا بل الفضيلة نفسها! ولنقله فيما بيننا، فإن إدعاء الفلاسفة بالحكمة، هذا الادعاء الأشد جنوناً، الأشد سفاهة من بين الكل، والذي ظهر من وقت لآخر على الأرض، ألم يكن دائماً، في الهند كما في اليونان، وفي المقام الأول الحاجة إلى الاختفاء؟ وربما أحياناً من وجهة نظر تربوية والتي تبرر الكثير من الكذب، كان ينادى بادعاء الحكمة هذا كنوع من حسن الادارة اللطيف للكائنات التي تتكون، تنمو، لأتباع غالباً ما يتعلق الأمر بالدفاع عنهم ضد أنفسهم في الاعتقاد بشخص (خطأ). . . ولكن ألا يشكل، في أغلب الحالات تواتراً ملجأ ينسحب اليه الفيلسوف، تعباً، وقد جمده العمر، وخشنه، بمقدار ما يترجم هنا الشعور بقرب النهاية! وذكاء الغريزة عند الحيوانات أمام الموت. فتختلي بنفسها، وتصمت وتتلبد في الكهوف، وتصير حكيمة. . . ما معنى هذا؟ الحكمة، ملجأ الفيلسوف لينجي بنفسه من ـ الذهن؟.

360 ـ نوعان من العلل التي نمزجها

هاك برأي، إحدى خطواتي، واحد أهم إنجازاتي الأساسية التي قمت بها: لقد تعلمت أن أميز علة الفعل بشكل عام عن علة الفعل الخاص، الفعل في هذا الاتجاه أو ذاك، والفعل من أجل هذه الغاية أو تلك. الأولى هي كمية القوة المتراكمة والتي تنتظر استعمالها في أي وقت

كان ولأي هدف كان. والثانية على العكس هي شيء لا معنى له بالمقارنة مع هذه القوة المهيأة، صدفة صغيرة، عادة، صدفة تفرغ بخصوصها الكمية المذكورة من الآن فصاعداً بطريقة فريدة ومحددة: إنها عود الكبريت بالنسبة إلى برميل البارود. بين كل هذه الصدف الصغيرة، أضع في عداد أعواد الكبريت هذه «الأهداف» المزعومة، وكذلك الأشد زعماً «الشعور بالدعوة»: إنها، الواحدة والأخرى، عامة نسبياً، عبثية، ويمكن إهمالها تقريباً بالنسبة إلى الكمية الهائلة للقوة التي تنحو كما قلت آنفاً إلى أن تفرغ بأي شكل كان. يختلف الرأي الشائع تماماً: لأنه عادة ما يرى في الهدف، المحرك، القوة الدافعة، طبقاً لخطأ قديم؛ إلا أن هذا الهدف ليس إلا قوة موجهة ـ لقد كان قد خُلِط بين الطيار والبخار. حتى لو لم يكن الطيار دائماً هو القوة الدافعة، . . . أليس الهدف والغاية هما حجة مُجَمِلة، عمى إضافياً للغرور الذي لا يريد أن يعرف أن السفينة لا تفعل سوى أن تتبع المجرى الذي إنخرطت به بالمصادفة؟ بأنها لا «تريد» أن تنطلق في هذا الاتجاه الا لأنها قد انجرت فيه؟ مما لا مجال للشك فيه أن هناك اتجاه ـ ولكن ليس هناك من طيار على الاطلاق؟ لا يزال يلزمنا نقد لمفهوم «الغاية».

361 ـ بخصوص موضوع الممثل

إن اشكال الممثل هو ما أقلقني لأطول وقت: فقد كنت أتساءل (ولا أزال أتساءل أحياناً أيضاً) ما لم يكن يشكل أفضل نقطة إنطلاق لتناول مفهوم «الفنان» الخطير ـ مفهوم درس حتى الآن بسذاجة لا تغتفر. الزيف مع ضمير مرتاح؛ لذة التظاهر المتفجر كمقدرة، كابتاً ما يسمى «الطبع»، مغرقاً إياه أحياناً إلى أن يطفئه؛ اللذة الداخلية بأخذ قناع، والدخول في دور، في مظهر؛ فائض من ملكات التأقلم مع كل نوع، التي لم تعد تعرف أن تستخدم مباشرة المنفعة الحصرية: هذا كله ربما لا يشكل الممثل في ذاته؟ . . . لقد انتشرت مثل هذه الغرائز من دون شك في عائلات الرعاع على أسهل ما يكون، في العائلات التي كان عليها أن تصارع في سبيل وجودها تحت طغيان الاكراه، والعبودية الشرسة، وان يتروضوا على التأقلم مع طبقتهم وأن يتوافقوا بدون استراحة مع الظروف الدائمة التجدد، وأن

يظهروا وان يمثلوا دائماً بطريقة مختلفة، والذين ينتهون دائماً بأن يعرفوا أن يضعوا معطفهم تبعاً للريح، الى أن يصيروا بأنفسهم تقريباً معاطف تبعاً لتواتر هذا التمرين، بصفتهم معلمين في لعبة الاستخفاء الأبدي هذه. ـ «إيماء» الحيوانات هذا ـ والذي صار طبيعة ثانية لديهم: إلى أن يجيء أخيراً، يوم تصير فيه هذه الملكة الايمائية وقد تراكمت بالوراثة خلال أجيال كثيرة تصير مستبدة، ولا معقولة، وغير قابلة للحكم بصفتها غريزة تحكم الغرائز الأخرى، وتخلق الممثل «الفنان» (وفي البدء الهزلي، المتشدق، المزاح، المجنون، المهرج شأن جيل بلاس Gil Blas نموذج المستخدمين الكلاسيكيين: لأن هذه هي الأنماط السابقة للفنان، لا بل غالباً «للعبقري»).

في الطبقات الاجتماعية الأرفع، تنمي نفس الضغوطات النمط عينه من الرجال، مع هذا الاستثناء، إن غريزة أخرى تصل غالباً إلى أن تمسك تماماً في زمام الغريزة التاريخية، مثلاً، عند «الدبلوماسي» ـ وأميل بقوة إلى الاعتقاد إلى أن لا شيء يمنع دبلوماسي جيد من أن يكون ممثلاً ممتازاً، ما لم يكن قلقاً متعلقاً بكرامته. أما بخصوص اليهود، شعب فنان في التأقلم بامتياز، وأميل إلى أن أرى فيهم، مسبقاً، نوع من المؤسسة التاريخية الموسومة لتشكيل الممثلين، مشتل عالمي للممثلين؛ وبالواقع يمكن السؤال ـ لأن السؤال ذو صفة حالية حادة: أي ممثل جيد ليس يهودياً اليوم؟ أديب فطري، معلم فعلي لكل الصحافة الأوروبية، يمارس اليهودي قدرته هنا بفضل ملكاته كممثل؛ لأن الأديب هو ممثل/ بجوهره: يمثل «الاختصاصي»، «الخبير». أخيراً النساء: فلنفكر قليلاً بتاريخهن: ألا يجب أن يكنّ في البدء، أن يكن بالأخص ممثلات؟ إسمعوا الأطباء الذين ينومون مغناطيسياً أولاء اللبونات الفاتنات، إخضعوا لسحر أولاء السيدات، ما الذي ينتج عن ذلك فجأة؟ «إنهن يعطين أنفسهن أدواراً»، حتى عندما، يهبن أنفسهن... المرأة فنانة لدرجة...

362 ـ إيماننا برجولة أوروبية

لا يعود الأمر إلى الثورة الفرنسية، والتي سعت دائماً إلى التآخي العالمي وإلى أكاليل التدفق الكلي، بل ندين إلى نابليون بالقدرة اليوم،

على الشعور بتتالي القرون المحاربة التي لن يجاريها شيء في التاريخ، إننا ندين إليه بدخولنا في العصر الكلاسيكي للحرب، الحرب العالمة القومية في الوقت عينه، الحرب الكبيرة (بالوسائل والمواهب والنظام) والتي ستحسدها القرون القادمة وتعتبرها باحترام على أنها نموذج للكمال: لأن الحركة القومية التي سيصدر عنها هذا الفخر الحربي ليس إلا صدمة رجعية ضد نابليون ولن توجد بدونه. سيعود اليه، إذن، يوماً الشرف باعادة صنع الانسان في أوروبا صنعاً يتفوق فيه الرجل على التاجر والمدعي، وربما على «المرأة» التي تملقتها كل من المسيحية وذهنية القرن XVIII الخيالية، وخاصة «الأفكار الحديثة». نابليون الذي كان يعتبر الحضارة وأفكارها الحديثة على أنها عدوه الشخصي، قد أكد نفسه بهذه العداوة على أنه واحد من أشد متابعي النهضة؛ هو الذي أعاد يوماً قطعة كاملة من الطبيعة القديمة، وربما القطعة الأساسية، قطعة الرخام. ومن يدري إذا لم تكن قطعة الطبيعة هذه ستتوصل إلى أن تتغلب أيضاً على الحركة القومية، لترث وتتابع بالاتجاه الايجابي جهد نابليون: هو من كان يريد أوروبا موحدة، كما هو معروف، وذلك بصفتها سيدة الأرض.

363 ـ كيف إن لكل جنس حكمه المسبق حول الحب

بالرغم من استعدادي لتقديم كل التنازلات للحكم المسبق للزواج الاحادي، فإنني لا أقبل إطلاقاً أن يتم الكلام في الحب عن نفس الحقوق للمرأة والرجل؛ هذه الحقوق نفسها غير موجودة. فكلمة الحب نفسها تدل بالواقع على شيئين مختلفين بالنسبة للرجل وبالنسبة للمرأة، ومن شروط الحب عند الجنسين ألاَّ يفترض الواحد الشعور عينه عند الآخر، ألاَّ يفترض نفس فكرة «الحب» الخاصة به. إن ما تفهمه المرأة بالحب لهو أمر واضح بما فيه الكفاية: إنه ليس مجرد التفاني، إنه هبة كلية للجسد والروح، من دون أي شرط، دون أخذ أي شيء آخر بعين الاعتبار؛ فهي تخاف، على العكس، وتحمر خجلاً لفكرة التخلي بشرط، لتخل مرتبط بشروط. إن غياب الشروط هو ما يجعل من حبها إيمان: الوحيد الذي تملكه المرأة.

أما الرجل فإذا أحب المرأة، فإن هذا هو الحب الذي يريده منها؛

فهو بالتالي بعيد جداً عن هذا المبدأ القبلي للحب الأنثوي؛ فإذا ما وجد رجال يشعرون أيضاً بهذه الرغبة في التخلي الكلي، فإنهم، لعمري. . .، لا يكونوا رجالاً. إن رجلاً يحب كالمرأة يصير من هنا بالذات عبداً؛ بينما المرأة إذا أحبت كامرأة فإنها لا تصير بذلك إلا امرأة أشد كمالاً. . .

إن شغف المرأة، التخلي الكامل عن كل نوع من أنواع الحقوق الخاصة، يفترض بالذات أن الشعور عينه، الرغبة عينها بالتخلي لا توجد عند الجنس الآخر: لأنه، إذا كان الاثنيين سيتخليان عن أنفسهما نتيجة للحب، لعمري فسينتج، . . . لا أدري ماذا، . . . لنقل ربما فضاء فارغ؟ تريد المرأة أن تؤخذ، أن تقبل على أنها ملكية، تريد أن تذوب في فكرة «الملكية»، «شيء ممتلك» فهي تقضي أن رجلاً ما يأخذ، رجل لا يعطي نفسه، لا يتخلى أبداً، ولكنه يريد، على العكس أن يغني أناه، في الحب في تكاثر القوة، في هذه الاضافة من السعادة ومن الايمان الذي تفترض المرأة أنها تقدمه في شخصها. المرأة تمنح نفسها، الرجل يزداد بها: أعتقد أن ما من عقد إجتماعي على الرغم من أفضل إرادة وأكبر عطش للعدالة بامكانه شيئاً ضد هذا التناقض الطبيعي، مهما كانت الرغبة بألاَّ يصوب النظر دائماً على قساوة وهول ولغز ولا أخلاقية هذا التناقض. لأن الحب، الحب الكبير، الحب الكلي، الحب الكامل، هو أمر طبيعي، وشأن كل أمر طبيعي، هو بالتالي «لا أخلاقي» أبداً.

يشكل الاخلاص، كما يرى، جزءاً من الحب الانثوي، ينتج عن تعريف الحب نفسه؛ ويمكن أن يولد بسهولة عند الرجل على أثر الحب، كنوع من الاعتراف بالجميل، أو من فطرة ذوقه وكنوع من التلاؤم الانتقائي، إلا أنه لا ينتمي إلى ماهية الحب، ويكاد يمكننا القول أن ثمة تناقض طبيعي بين الحب والاخلاص عند الرجل: كون حب الرجل هو رغبة بالامتلاك وليس تخلياً. تنازل: والحال، فإن إرادة التملك تتوقف بانتظام ما ان يتم تملك. . . وفي الواقع، نادراً ما يعترف الرجل وبشكل متأخر بهذه «الملكية»، فإن تعطشه الدقيق والأشد شكاً في التملك هو الذي يجعل حبه مستمراً: وبهذا الشكل من الممكن أيضاً أن يستمر بعد تخلي المرأة المكتمل - لا يقبل الرجل بسهولة إنه لم يبق للمرأة شيء «تتخلى» له عنه.

364 ـ الناسك يتكلم

يعتمد فن معاشرة البشر على البراعة بشكل جوهري (وهي تتطلب تمريناً طويلاً) نكون قادرين معه على قبول وبلع وجبة لا يوحي طبخها بأي ثقة. إذا وصلنا إلى الطاولة مع جوع سعور يكون كل شيء على ما يرام («فأسوأ صحبة تجعلك تشعر أنك رجل بين الرجال» يقول مفيستو)؛ إلا أننا لا نشعر بهذا السعور عندما نريد! فكم يكون القريب، للاسف، صعب الهضم!

المبدأ الأول: كما لو كنت أمام مأساة، خذ شجاعتك بملء يديك، إنطلق بجسارة، أعجب بنفسك بقدر ما تستطيع ذلك، شد أسنانك على اشمئزازك، وابلع قرفك.

المبدأ الثاني: «حَسِنْ» القريب، إمدحه، مثلاً، لدرجة يتعرف فيها كل الفرح الذي يتمخض به عن نفسه؛ أو أيضاً أمسك بإحدى خصاله الجيدة، بالاطراف أو باحدى أوجهه «المهمة» وشد عليها إلى أن يتبعه الكل ويمكن تغليف القريب في وشاح فضيلته بالكامل.

المبدأ الثالث: نوّم نفسك مغناطيسياً. ثبت موضوع معاشرتك على طريقة زر زجاجي إلى أن تتوقف عن الشعور بأي لذة أو ألم ونام، دون أن يبدو عليك ذلك، أصبح صلباً واكتسب الثبات الكامل: إنها وصفة منزلية للزواج والصداقة؛ جربت بوفرة، وتمدح على أنها ضرورية، إلا أنها لم تحصل بعد على اسمها العلمي. إسمها الشعبي. . . الصبر.

365 ـ الناسك يتكلم مرة أخرى

نحن أيضاً نعاشر «أشخاصاً» ونحن أيضاً نرتدي بتواضع الثياب التي بها (ومن أجلها) نُعرف، نقدر، ويسعى إلينا، وهكذا نمضي مكتسين إلى المجتمع، أي ما معناه إلى بلاد الأقنعة التي لا تريد أن يقال انها كذلك؛ ونحن أيضاً نتصرف شأننا شأن كل هذه الأقنعة المتنبهة، ونتصرف بخشونة مهذبة مع كل حشرية لا تكتفي بـ «زينا». لكن هناك أيضاً أساليب أخرى، «حيل» أخرى «لمعاشرة» الرجال: يمكنك أن تجعل من نفسك «شبحاً»؛ وهذا ما ينصح به بقوة عندما تريد أن تتخلص بحذاقة أو أن توحي اليهم

بالخوف. البرهان: نمد يدنا لندركك فلا نجد إلا الفراغ. وهذا مخيف، أو انك تصل من باب مغلق، أو أيضاً عندما تكون الأضواء مطفأة. أو أيضاً عندما نكون قد لاقينا حتفنا، هذه هي بامتياز حيلة رجل ما بعد الموت. («أتتصورون إذن؟» كان الواحد منهم يقول ذات يوم وقد دفعه الجزع إلى أقصى حد، «هل تملك مزاجاً لتحمل هذه الغرابة، هذه البرودة، هذا الصمت اللحدي، كل هذه الوحدة الديماسية، المتخفية، الصامتة، المجهولة، والتي تسمى عندنا حياة، ويمكن أيضاً وبالمقدار عينه أن تسمى موتاً، لو كنا لا نعرف ماذا سيحصل لنا ـ وانه بعد وفاتنا فقط نتوصل إلى حياتنا ونصير أحياء! آه، أحياء جداً! نحن رجال ما بعد الموت!»).

366 ـ أمام كتاب عليم

لسنا من أولئك الذين لا يفكرون إلا بين الكتب ولا تنتظر فكرتهم لكي تولد تحريض الكتاب؛ من عادتنا أن نفكر في الهواء الطلق، مشياً، قفزاً، صعوداً، رقصاً، ومن الأفضل على الجبال المنعزلة أو بالقرب من البحر، حيث الطرقات نفسها توحي بالحلم. أول حركة لدينا، للحكم على قيمة كتاب أو رجل أو موسيقى، هي في تساؤلنا: «أيعرف أن يمشي؟ بطريقة أفضل: أيعرف أن يرقص؟»... إننا لا نقرأ إلا بشكل نادر؛ ونحن مع ذلك لا نقرأ بشكل أسوأ؛ آه، كيف نتوصل بسرعة إلى رؤية الكيفية التي توصل بها المؤلف إلى فكرته وإذا ما بقي جالساً أمام محبرته، بطنه مضغوطة، ورأسه في الأوراق. كما يُقرأ كتابه بسرعة! يكشف الكتاب ضغط أمعاء المؤلف، لا مجال للشك في ذلك، شأنه شأن الهواء المحبوس، من السقف وضيق الغرفة. هذا ما شعرت به في الحين عند انتهائي من كتاب شجاع عليم، بكثير من العرفان، بالطبع، بكثير من العرفان.. ولكن مع أي تعزية... نلقى دائماً في كتاب العالم شيئاً ما مضغوطاً ضاغطاً، شيئاً ما يتنفس «الاختصاصي» حميته، جديته، سخطه، مبالغته في تقدير الزاوية التي يركن اليها. قائماً على التوشية، وأخيراً، أخيراً حدبته. لأن لكل اختصاصي حدبته الخاصة. يعكس كل كتاب عليم دائماً روحاً محدودبة: كل مهنة تحدب. تكفي رؤية أصدقاء شبابكم بعد أن تملكوا علمهم: آه، كم العكس صحيح أيضاً، كم صار يتملكهم من الآن

فصاعداً ويكتسحهم! مترسخين في زاويتهم، منكسرين متسطحين يتعذر التعرف عليهم، وقد فقدوا حريتهم وتوازنهم، وهزلوا، وقد تقرنوا من كل مكان، إلا في مكان فقد تدوروا بالكامل: . .هكذا نلقاهم مع انفعال مكتوم. لكل مهنة، ولو كانت منجم ذهب، لكل مهنة سماء من الرصاص تثقل على الروح، وتثقل وتثقل إلى أن تجعلها قشرة ملتوية وغريبة، نعجز إزاء هذا الأمر. ولا يتصور خاصة أنه من السهل تحاشي هذا التشويه بأي حيلة تربوية. كل تمكن يدفع بثمن غالٍ على هذه الأرض حيث ربما يدفع كل شيء بثمن باهظ جداً، لا يمكننا أن نكون رجل اختصاص إذا لم نكن أيضاً ضحية هذا الاختصاص: إنه الثمن إلا أنكم لا تريدون ذلك، تريدونه «بسعر أقل» ، تريدون أن يكون «أرخص» وتريدون على الأخص أن يكون «أسهل» أليس كذلك؛ يا أعزائي المعاصرين؟ والحال، فليكن! قوموا بذلك! إلا أنكم تحصلون عندها على شيء مغاير: فبدلاً من العامل والمعلم تحصلون على الأديب، الأديب ذو «الألف موهبة»، الرجل المتغير الاشكال، من لا حدبة له ـ إلا عندما يظهر لكم تملق صبي مخزن الذهن و«ممثل» الحضارة، الأديب الذي ليس بشيء حصراً ولكنه «يمثل» تقريباً كل شيء، ويلعب دور العارف، «ينوب» عن الخبير، ويتولى بكل تواضع بأن يدفع له ويكرم ويحتفى به بدلاً من الآخر. لا يا أصدقائي العلماء، فأنا لا أزال أباركم، أباركم حتى من أجل حدبتكم! لأنكم مثلي تحتقرون المعنيين بالأدب وطفيليو الثقافة! لانكم لا تجيدون المتاجرة بالذهن! لأنه ليس لديكم من آراء إلا آراء مستحيلة الصرف بالمال! لأنكم لا تمثلون شيئاً ليس أنتم: لأن إرادتكم الوحيدة هي أن تكونوا أسياداً في مهنتكم! لأنكم تقدرون كل مقدرة وتحترمون كل تمكن! لأنكم ترفضون، قطعياً، كل ما هو مزيف ومقلد ولامع ودهماوي ومصطنع في الآداب والفنون in Litteris et artibus ، ولكل ما لا يستطيع أن يبرر استقامته المطلقة أمامكم فيما يتعلق بنظامه وبتمرنه! (حتى العبقري لا يمكنه أن يعوض نقصاً كهذا، مهما كان يعرف أن يستعمل الوهم في هذا الخصوص؛ هذا ما نفهمه جيداً عندما نرى عن قرب أبرع موسيقينا ورسامينا؛ إذ يتفقون جميعاً، من دون استثناء تقريباً، بمكر، ابتكار وسائل «حذقة» وحتى مبادئ ـ بأن يمنحوا أنفسهم، وبشكل مصطنع، مظهر هذه الاستقامة وهذه الصلابة التي لا يمكنها أن

تكون إلا ثمرة المدرسة أو الثقافة؛ من دون أن يخدعوا أنفسهم، وبالطبع من دون أن يستطيعوا أن يسكتوا تماماً ضميرهم.. لأنه، وكما تعرفون ذلك تماماً... ليس كذلك؟ (إن الضمير متعب عند كبار الفنانين المعاصرين، وهذا ما يشكون منه كلهم).

367 ـ أول تمييز يجب القيام به بخصوص الآثار الفنية

كل ما يُفكر به، يكتب، يرسم، يؤلف، لا بل كل ما ينحت ويبنى، يرجع إما إلى فن ـ المناجاة الذاتية، أو إلى الفن أمام شهود. وفي هذا الفن أمام شاهد يجب تصنيف فن ـ المناجاة الذاتية ظاهرياً، الذي يرجع اليه الايمان بالله: غنائية الصلاة، لأنه ليس هناك من وحدة إطلاقاً للرجل الورع؛ نحن من اخترع الوحدة، نحن الملحدون؛ قبلنا لم تكن موجودة. لا أرى منظوراً أشد عمقاً للفنان: معرفة ما إذا كان يعاين اعداد أثره (أو أنه يعاين نفسه)، بعين الشاهد أو بعين الفنان «الذي ينسى العالم». هذا النسيان هو ماهية فن مناجاة الذات: يعتمد فن مناجاة ـ الذات على النسيان. فن ـ مناجاة الذات هو موسيقى النسيان.

368 ـ الوقح يتكلم

إن اعتراضاتي على ڤاغنر هي اعتراضات فيزيولوجية، لماذا أخفيها تحت صيغ جمالية؟ إنها «واقع»: أتنفس بصعوبة ما ان تبدأ موسيقاه بالتأثير علي؛ قدمي تحقد عليه وتثور: تشعر قدمي بالحاجة إلى إيقاع، الحاجة إلى الرقص والسير، إن ما تطلبه من الموسيقى هو قبل كل شيء الانخطاف الذي توحي به لطافة المشي والخطو والقفز والرقص. ومعدتي الا تعترض هي أيضاً؛ وقلبي؟ ودورتي الدموية؟ وأحشائي؟ وأخيراً أبح أيضاً؟... وأتساءل مذ ذاك ما الذي ينتظره جسدي من الموسيقى؟ تعزية، على ما يبدو لي: كأنما كل الوظائف الحيوانية عليها أن تسرع بتأثير إيقاعات خفيفة، شجاعة، فياضة، واثقة بنفسها، وإن حياة قلز، حياة الرصاص تسعى إلى أن تغشى معادنها القاتمة في ذهب التناسق الصافي والدقيق. تسعى كآبتي إلى أن ترتاح في عزلة وفي مهاوي الاتقان: لهذا أحتاج إلى الموسيقى. بماذا تهمني المأساة، المسرح! تشنجات الانخطافات الاخلاقية

هذه التي يكتفي «الشعب» بها! تصنع الممثلين!.. فأنا، كما يرى، من روح معادية للمسرح، وقد كان ڤاغنر على العكس رجل مسرح حتى النخاع، ممثلاً في أصله، وحتى في موسيقاه، انه أشد الصناع جنوناً في كل العصور! ... فإذا كانت نظريته، وليقال ذلك بشكل عابر: «إن المأساة هي الهدف، ولم تكن الموسيقى إطلاقاً سوى وسيلة». فإنه يطبق ومنذ البداية حتى النهاية، المبدأ المناقض، وللعرفان «الوضعية هي الهدف وليست المأساة إطلاقاً والموسيقي معها سوى الوسيلة». لم تكن الموسيقى سوى وسيلته للتشديد ولتدعيم الحركة المأساوية، لاستدخال «الايماء»: المأساة الڤاغنرية ليست إلا فرصة لمضاعفة الوضعيات المأساوية! ڤاغنر، بالاضافة إلى غرائزه الأخرى، لديه في نفسه غرائز ممثل فظيع كانت تحكمه في كل شيء، حتى، وأكرر ذلك، في الموسيقى. هذا ما برهنتُ عليه ذات يوم، وليس بدون مشقة، لڤاغنري شجاع؛ وأضفت، وكان لدي أسباب أكيدة لذلك: «كن قليلاً أكثر صدقاً مع نفسك إذن: إننا لسنا في المسرح! في المسرح، لو كنا صادقين، لسنا إلا عنصراً في حشد؛ إننا نكذب بصفتنا أفراد، نكذب على ذاتنا، نترك أنفسنا في منازلنا عند ذهابنا إلى المسرح؛ نتخلى عن حق الكلام، الاختيار، وأن يكون لنا ذوقنا الخاص، نتخلى حتى عن شجاعتنا، وعن بسالتنا التي يمكن أن ننشرها بين جدران غرفتنا الأربع ضد كل من نريد، من الله أو البشر. ما من أحد يحمل إلى المسرح أنبه ما في فنه. ولا حتى الفنان الذي يعمل في هذا المسرح: إنه مكان لسنا فيه سوى شعب، جمهور، قطيع، إمرأة، مرائي، حيث لا نعود سوى بهيمه انتخابية، ديموقراطي، «قريب»، لدينا المواطنية عينها، حيث الوعي الأشد شخصية ينهار أمام سحر «الأكثرية» المهاود، حيث تشكل البلاهة موضوع اللذة الحسية المعدي؛ إنه مملكة «الجار». نصير فيه بأنفسنا الجار...» (نسيت أن أقول بماذا أجاب هذا الفاغنري الواعي على اعتراضاتي الفيزيولوجية، قال لي: إن كل ما ينقصك، في العمق، هو أن تكون معافىً بما فيه الكفاية لموسيقانا؟).

369 ـ تقاربنا

ألا يجدر بنا أن نعترف، نحن الفنانون، أن في داخلنا تنافراً مُقلقاً، أن ذوقنا وقوتنا الخلاقة يتجاهلان بعضهما البعض بغرابة، وأن لكل واحد منهما وجوده، وتوقفه ونموه الخاص؟ أقصد أنهما في الوقت عينه شابين وعجوزين، منحلين، ناضجين أو متداعيين بدرجات مختلفة، وأن نموهما لا يتم بنفس الايقاع. لدرجة أنه، لنأخذ مثلاً، بامكان موسيقي أن يخلق طوال حياته أشياء تناقض ما يقدره ويتذوقه ويفضله قلبه وأذنه كمستمع صعب: وانه ليس من الضروري حتى أن ينتبه لهذا التناقض! وانه يمكن أن يكون، كما تبرهن عليه التجربة برتابة محزنة، هناك بسهولة ذوقاً أعلى من القوى، من دون أن تكون هذه الأخيرة قد شُلت، من دون أن يعيق هذا الذوق انتاجها؛ لكن العكس يمكنه أيضاً أن يحصل؛ وإلى هذا أريد أن أوجه اهتمام الفنان. إن رجلاً يخلق باستمرار «رجل ـ أم» بالمعنى الكبير لهذه الكلمة، رجل لا يعرف شيئاً آخر غير حمل وتوليد ذهنه، رجل لا يملك الوقت للتفكير بنفسه وبآثاره وأن يقارن أو يمارس ذوقه أيضاً، والذي ينسى ببساطة هذا الذوق. يهمله يتركه بائراً، يمكن لهذا الرجل أن ينتهي بأن ينتج آثاراً تفوق بكثير حسه النقدي، بشكل يقول فيه عن ذاته وعن آثاره ـ يقول ويفكر ـ تفاهات. وهذا بالذات ما يبدو لي أنه القاعدة العامة عن الفنانين الخصبين؛ ما من أحد يجهل الابن كأهله؛ إنها قاعدة تصح من دون استثناء ـ لنأخذ مثلاً يفرض نفسه ـ على كل الكتاب والفنانين اليونانيين: انهم لم «يعرفوا» إطلاقاً ما كانوا يفعلونه.

370 ـ ما هي الرومانطيقية

ربما يتذكر أصدقائي، على الأقل، أنني قد بدأت بالانكباب على مسألة العالم الحديث، مقدماً على أخطاء جسيمة، ومبالغات جسيمة، وبكافة الأحوال مغذياً آمالاً كبيرة. لقد كنت أعتبر ـ بعد أي تجارب شخصية؟ ـ كنت أعتبر التشاؤم الفلسفي للقرن XIX على أنه عارض لتفكير أشد حزماً من تفكير القرن XVIII، عصر هيوم وكانط وكانديلاك Candillac والحسيين، على أنه مؤشر لشجاعة أشد بأساً، لحيوية أشد انتصاراً؛ لدرجة كنت أعتبر المعرفة المأساوية كالرفاهية الحقة لحضارتنا؛ كنت أرى فيها نوعاً من التبذير الأشد كلفة، والأشد نبلاً والأشد خطراً، لهذه الثقافة،

ولكنه أيضاً وبفضل وفرته رفاهيته الشرعية. لقد كنت أفسر بالطريقة عينها موسيقانا على أنها التعبير عن المقدرة الديونيذوسية للروح الألمانية، كنت أعتقد أني أسمع فيها هدير الهزات الأرضية التي تنفجر أخيراً، من دون أن تبالي باهتزاز كل ما يسمى ثقافة، قوة أولية كانت مضغوطة من أبعد ماضٍ، لم أكن أعترف، كما يرى، بما يعطي للتشاؤم الألماني، كما للموسيقى الألمانية: طابعها الحقيقي: الرومانطيقية.

ما هي الرومانطيقية؟ كل فن، كل فلسفة يمكن اعتبارها كعلاج للحياة، كمعاون للحياة التي تنمو والتي تعارك: فهما يفترضان دائماً الألم والمتألمين. إلا أن هؤلاء الآخرين هم نوعان: أولئك الذين يتألمون نتيجة لوفرة الحياة ويتطلبون فناً ديونيذوسياً أو لديهم عملياً أو بشكل متجرد، رؤية مأساوية للحياة، والآخرون على العكس يتألمون من فقر هذه الحياة، ويطلبون من الفن، من المعرفة الراحة، الصمت، بحراً هادئاً، نسيان الذات، أو، في القطب المقابل، النشوة، الجنون، السكر والهذيان، على هذه الحاجة المزدوجة لهذه الفئة الأخيرة تجيب كل رومانطيقية في الفن وفي المعرفة؛ على هؤلاء كان (ولا يزال) كل من شوبنهور وڤاغنر يجيبان، حتى لا نسمي إلا أشهر الرومانطيقيين وأشدهم تعبيراً في المعنى الذي أسأت فهمه، لصالحهما، على كل حال، كما يمكن أن يسلم لي بهذا من دون أي تكلف. يمكن للكائن الأشد وفرة بالحياة، الديونيزوسي، اله أو إنسان، أن يسمح لنفسه ليس فقط أن ينظر إلى اللغزي، والمخيف، بل ان يقترف أيضاً المخيف وأن يستسلم لأي رفاهية في التدمير والانقلاب والنفي؛ اللؤم والغباوة والبشاعة، تبدو لي مسموحة بفضل فيض القوى الخلاقة التي بامكانها أن تحول الصحراء نفسها إلى أرض خصبة. وعلى العكس فإن الكائن الأشد تألماً، الأشد فقراً بالقوى الحية، هو من يحتاج أكثر ما يكون إلى النعومة والوداعة والطيبة في الفعل وفي التفكير؛ من يحتاج، إذا كان بالامكان، لإله، يكون بشكل خاص إله المرض، «المخلص»؛ سيكون هو من يحتاج، أيضاً الى المنطق والى وضوح نظري للوجود ـ لأن المنطق يهدئ ويعطي الثقة، بكلمة، إلى نوع من الضيق والشمول في آفاق التفاؤل الخاصة بأن تجلب له الدفء، وبأن تبعد الخشية. هكذا تعلمت شيئاً فشيئاً أن أفهم أبيقور، نقيض المتشائم

الديونيذوسي، كما «المسيحي» الذي ليس في الواقع سوى نوع من الابيقوري، وشبيهاً به، رومنطيقي بالأساس - وكان نظري يتمرن على التحديد أفضل فأفضل ليجيد استعمال هذا النوع من الاستدلال الأشد صعوبة والاشد مكراً والذي تعثر به العدد الأكبر من المفكرين - هذا الاستدلال الذي يمضي من الأثر إلى الخالق، من الفعل إلى الفاعل، من المثال إلى من يحتاجه. من كل طريقة تفكير وتقييم إلى الحاجة التي تحددها بصلف، لقد صرت من الآن فصاعداً، أستخدم امام كل القيم الجمالية، هذا التمييز الأساسي: أتساءل في كل حالة خاصة «إذا كان الجوع أم الشبع هو ما صار خلاقاً هنا؟». قد يبدو للوهلة الأولى أن تمييزاً آخر يفرض نفسه أكثر، ويبدو أكثر بداهة، هل هي رغبة التثبيت، التأبيد، حاجة إلى الكون هي التي حثت على الخلق؛ أو على العكس الحاجة إلى التدمير إلى التغيير، حاجة تجديد المستقبل، الصيرورة؟ إلا أن هاتان الحاجتان تبقيان، إذا نظرنا عن قرب أكثر، تبدوان انهما يقبلان تأويلاً مزدوجاً، تبعاً للرسم السابق الذي أفضله، وبحق على ما يبدو لي. يمكن للحاجة إلى التدمير، إلى التغيير، إلى الصيرورة أن تكون تعبيراً عن قوة فائقة، عن قوة حبلى بالمستقبل (والتي أسميها، كما هو معروف، ديونيذوسي) إلا أنه يمكن أن يكون أيضاً كره المخفق، العاجز، المحروم هو الذي يهدم والذي يجبر على التدمير لأن حالة الأشياء الموجودة، أتعس كل حالة الأشياء القائمة، كل كائن حتى، تثيره وتهيجه، راقبوا فوضويينا عن قرب لتفهموا هذا الشغف. إرادة التأبيد أيضاً تستلزم تأويلين. فبامكانها، من جهة، أن تنتج عن الحب، عن الاعتراف بالجميل، (الفن الذي توحي به في هذه الحالة، يكون دائماً فناً تمجيدياً، حماسياً مع روبينز Rubens، ساخراً بصفاء مع حافِظ Hafiz، وضاءاً وحسن الالتفات مع غوته Goethe، فهو ينشر على كل شيء نوراً هوميرياً، ويحيط أقل موضوع له بهالة). ويمكن أن تكون أيضاً الرغبة الطاغية لرجل يتألم بفظاعة ويريد أن يعطي لطبيعة ألمه الطابع الاضطراري لقانون عام، لكل ما لديه من أشد الأمور شخصية، وأشدها خصوصية، وأشدها حصراً، والذي ينتقم بالاجمال من كل الأشياء بأن يوسمها بصورته، بصورة عذابه بأن يوسمها بالحديد الحامي بصورته. هذا الشكل الأخير من الحاجة إلى التأبيد هو

التشاؤم الرومانطيقي في أشد أوجهه تعبيراً، بأن يصير مع شوبنهور فلسفة الارادة، أو أن يتبنى مع ڤاغنر ترجمة موسيقية، إنه التشاؤم الرومنطيقي، آخر أكبر حدث في تاريخ قدر حضارتنا (أن يكون بالامكان وجود تشاؤم آخر، تشاؤم كلاسيكي، هذا ما يشكل شعوراً مسبقاً خاصاً بي، إنه رؤية تعود إلي، بصفتها proprium et ipsissimum خاصاً بي: ما عدا أن تعريف «كلاسيكي» يصدم أذني، لفظ أفرط استخدامه، وفتت بافراط، صار من الصعب التعرف إليه. سأسمي إذن تشاؤم المستقبل هذا، لأنه سيأتي، لأني أراه قادماً، التشاؤم الديونيذوسي).

371 ـ نحن من لا يمكن فهمنا

هل سبق لنا أن اشتكينا من أنه قد أسيء فهمنا، من أننا لم نُعرف حق المعرفة، من أننا نخلط مع الآخرين، من أنه يُفترى علينا، من أننا نُسمع بشكل سيء أو لا نسمع بتاتاً؟ هذا بالضبط نصيبنا ـ آه! ولوقت طويل أيضاً! لنقل، كي نبقى متواضعين، حتى عام 1901، وهذه أيضاً نقطة امتيازنا؛ سنقدر أنفسنا أقل بكثير لو نحن تمنينا أن يتغير شيئاً في الأمر. يتم خلطنا مع الآخرين: ذلك أننا ننمو، ذلك أننا لا نتوقف عن التغيير، عن طرح قشورنا المسنة، وأن نلبس جلداً جديداً عند كل ربيع، وأن نصبح من دون توقف أشد شباباً، وأشد مستقبلاً، وأشد علواً وأشد قوة. واننا نفرز جذورنا بقوة أكثر في الأعماق ـ في الشر ـ في الوقت عينه الذي نعانق فيه السماء بضمة أشد محبة، أشد رحابة، وأن نطمح إلى نورها، بكل أغصاننا وبكل أوراقنا، بجشع أشد. إننا نكبر كما تكبر الشجرة. وهذا ما يصعب فهمه، أليست الحياة كلها على هذا الشكل؟ ـ إننا لا نكبر من نقطة واحدة، بل من كل مكان، ليس في اتجاه بل في كل الاتجاهات في آن معاً، إلى الأعلى إلى الأسفل، إلى الداخل، إلى الخارج، تنبت قوتنا في الوقت عينه في الجذع وفي الأغصان وفي الجذور، إننا لم نعد أحراراً في القيام بأي شيء على إنفصال، ولا أن نكون شيئاً ما منفصلاً... هذا هو، أعود فأكرره نصيبنا؛ إننا ننحو صوب الأعلى وحتى لو قبلنا أن هذه تعاستنا ـ لأننا نقترب أكثر فأكثر من الصاعقة! ـ فإننا لا نقيم لأنفسنا مجداً أقل؟ إنه مع ذلك قدر لا نتقاسمه، ولا نريد أن نتشاطره، إنه قدر القمم، إنه قدرنا.

372 ـ لماذا لسنا مثاليين

كان الفلاسفة، فيما مضى، يخشون الحواس؛ ـ هل هذا صدفة ـ ألم ننسى نحن بافراط... هذه الخشية؟ إننا كلنا اليوم حسيون، نحن، فلاسفة الحاضر والمستقبل، ليس فقط نظرياً بل عملياً... هم، كانوا على العكس يخشون أن تفتنهم حواسهم، وأن تقتلعهم من عالمهم، مملكة «الأفكار» الباردة، ليلقوا أنفسهم منجرين باتجاه الجنوب في جزيرة خطيرة حيث تذوب فضائل الفلاسفة لديهم كالثلج تحت الشمس، كان يجب أن يتم وضع «قطن في الأذنين» لكي تصنع الفلسفة؛ لقد كان شرطاً شبه إلزامي؛ بالكاد كان الفيلسوف الحق يسمع الحياة، بمقدار ما هي موسيقى؛ لقد كان ينكر إذن موسيقى الحياة؛ إنه اعتقاد باطل قديم أن يفكر الفلاسفة ان كل موسيقى تأتي من حوريات البحر...

نميل اليوم إلى صياغة حكم مناقض (وهذا ما يمكنه أن يكون خطأ بذاته أيضاً) وإلى الاعتقاد بأن الأفكار أشر فتنة من الحواس على الرغم من لحمها الفقير بالدم والمتجمد. مع أن «على الرغم» هذه تفوق الحد، ذلك أنها قد عاشت دائماً من «دم» الفيلسوف، لقد قضمت حواسه، لا بل، إذا ما صُدِّقت في هذا، «قلبه». لقد كان هؤلاء الفلاسفة الأقدمون من دون قلب: كان التفلسف بالنسبة اليهم نوعاً من مص الدماء. ألا تشعرون بنوع من القشعريرة أمام ناس مثل سبينوزا؟ ألا تشعرون أن لديه لغز عميق؟ ألا ترون على ماذا يدور الأمر هنا؟ إنه مشهد الشحوب الذي ينمو باستمرار، «إزالة الحس» المؤولة على أنها مثال. ألا تشعرون مسبقاً هنا، في كواليس الخشبة، حضور مصاصة دماء تبدأ بأن تفرغ الحواس وتنتهي بأن لا تبقي، بأن لا تترك إلا الهيكل العظمي وصرير العظام؟ أقصد بذلك، مقولات، صيغ كلمات (لأنه ـ وليغفر لي ذلك ـ ، ما تركه سبينوزا، الـ Amor intellectualis Dei، ليس إلا صرير هيكل عظمي! ما هو الـ amor، ما هو deus، عندما لا تعود تملك نقطة دم!!).

باختصار: لم تكن المثالية الفلسفية حتى الآن سوى نوع من المرض، عندما لم تكن كما عند أفلاطون، حذر صحة خطيرة بفعل غزارتها، خوف من الحواس المفرطة القوة، حكمة حكيم تابع لسقراط. ربما كان ينقصنا

فقط نحن الحديثون، أن نكون أصحاء بما فيه الكفاية لنكون بحاجة إلى مثالية أفلاطون؟ وإذا كنا لا نخشى الحواس، فإن ذلك يعود ربما. . .

373 ـ «العلم» بصفته حكماً مسبقاً

تمنع قوانين التراتبية العلماء الذين ينتمون إلى الطبقة المثقفة الوسطى من رؤية الاشكالات الكبيرة، نقاط الاستفهام الحقيقية؛ إضافة إلى أنه لا شجاعتهم ولا نظرهم يسمحان لهم بالذهاب بعيداً إلى تلك الدرجة؛ وعلينا بالأخص أن نقول هذا: إن الرغبة العميقة التي تحثهم على البحث والطموح والرغبة الحميمة التي يمكن أن تتملكهم بالعثور على أشياء قائمة على هذا الشكل وذاك، والخشية والأمل الذي يشعرون به، تهدأ وتشبع بسرعة مفرطة. إن ما يثير، مثلاً، الحماس الخاص للمدعي البريطاني هربرت سبنسر، والذي يهذي به على طريقته، هذا الذي يجعله يرسم خط أفقه، خط أمله على حدود المرغوب ـ أقصد هذه المصالحة بين «الأنانية والغيرية» التي يهذر بها ـ لا تنبه فينا، أو تكاد لا تنبه فينا، إلا الاشمئزاز: فالانسانية التي لم يعد لديها من أفق نهائي الا هذه المنظورات السبنسرية تبدو لنا جديرة بالاحتقار والزوال. ولكن بمجرد أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من اعتباره أسمى أمل، ما يبدو، وبوجه شرعي، للآخرين امكانية مقززة، يطرح علامة استفهام لم يكن قادراً على التنبؤ بها. . . وينطبق الأمر عينه على هذا الايمان الذي يرضي اليوم العديد من العلماء الماديين الذين يعتقدون أنه يمكن للعالم أن يكون لديه قياس في مقايستنا الصغيرة، ومعادلة في فكرنا الصغير، إنهم يؤمنون بـ «عالم حقيقي» يمكن لعقلنا الانساني الصغير، لعقلنا الفظ الصغير أن يتوصل أخيراً إلى آخره. . . وماذا! أنريد حقاً أن نترك الوجود ينحط هكذا؟ أن نحقره إلى مستوى تركيب حسابي. أن نجعل منه قصاصاً صغيراً للرياضيين؟ علينا أن نرفض في البدء ومهما كان الثمن أن ننزع عنه طابعه الملتبس؛ إن الذوق الحسن هو ما يفرض ذلك، أيها السادة، احترام كل ما يتجاوز أفقكم؟ فقط يستحق الجهد تأويل للعالم يعطيكم الحق، تأويل يسمح بالبحث وبمتابعة أعمالكم في الاتجاه الذي تقولون انه علمي (وتفكرون بالميكانيكية، أليس كذلك؟) فقط يستحق الجهد تأويل للعالم يسمح لكم بأن تحسبوا وأن تزنوا وأن تروا

وأن تلمسوا، إنه عمل أبله وحماقة. ما لم يكن جنون أو غباوة. أليس من المحتمل، على العكس، أن يكون أول شيء، وربما الشيء الوحيد، الذي يمكن الوصول اليه في الوجود، هو أشد ما لديه من سطحي، وخارجي، وظاهر؛ جلده فقط؟ تمظهراته الملموسة؛ قد يكون التأويل «العلمي» كما تفهمونه أيها السادة واحداً من أشد التأويلات حماقة، من أشدها غباوة من كل التأويلات الممكنة: فليقال هذا لسمعكم، لوعيكم، يا ميكانيكيي عصرنا الذين تتصورون أن الميكانك الخاص بكم هو علم القوانين الأولى والأخيرة وانه على كل وجود أن يرتكز عليه كما على أساس ضروري. عالم ميكانيكي بجوهره! لكنه سيكون عالماً جوهرياً عبثياً! إذا قسنا «قيمة» الموسيقى بما يمكن أن يعد وان يحسب فيها، بما يمكن أن نترجمه إلى أرقام، . . . أي عبثية لا يشكلها هذا التقييم «العلمي»! ما الذي نكون قد أدركناه، فهمناه، عرفناه من لحن كيل بهذا المكيال؟ لا شيء، وحرفياً لا شيء، مما يجعل «موسيقاه» موسيقى بالفعل! . . .

374 ـ جديدنا «اللامتناهي»

إلى أن يمتد الطابع المنظوري للوجود؟ ألديه حتى طابع آخر؟ إن وجوداً من دون أي تأويل، من دون «أي معنى» الا يصير بالضبط «عديم ـ المعنى»؟ من ناحية أخرى، أليس كل وجود هو بالضبط وجود «تأويلي»؟ هذا ما لا تستطيع أن تقرره، على أنه صح، أشد تحليلات العقل حماسة، أشد استبطان صبراً ودقة: لأن فكر الانسان، خلال هذه التحاليل، لا يمكنه أن يمنع نفسه من رؤية نفسه إلا تبعاً لمنظوره الخاص، لا يمكنه أن يرى نفسه إلا تبعاً له.

لا يمكننا أن نرى إلا بعيوننا؛ إنها حشرية لا أمل لها بالنجاح بأن نسعى إلى معرفة ما هي أنواع العقول والمنظورات التي يمكن لها أن تكون موجودة؛ إذا كان هناك، مثلاً، كائنات تشعر بمرور الزمان عكسياً أو دورياً دوران إلى الأمام ودوران إلى الخلف (هذا ما يغير إتجاه الحياة ويقلب أيضاً تصور العلة والمعلول). ومع ذلك فإني أعتقد أن هذا الكبرياء المضحك والذي ينص على أن زاويتنا الصغيرة هي الوحيدة التي يحق لها أن تملك منظوراً. على العكس تماماً، لقد عاد العالم، بالنسبة لنا،

«لامتناهياً»، بهذا الاتجاه الذي لا يمكننا معه أن نرفض أن يكون لديه امكانيات لامتناهيه من التأويلات. مرة أخرى تعود قشعريرة رهيبة تأخذنا، ولكن من يملك الرغبة بأن يؤول مباشرة، ومن جديد، وعلى الطريقة القديمة وحش العالم المجهول هذا؟ أن ينطلق يعبد، مثلاً، المجهول مع م مفخمة! للأسف، لدينا إمكانيات عديدة لتأويلات من إله لهذا المجهول، أن نؤوله بالشيطان، أو بالعبادة أو بالجنون، ... دون أن نأخذ بالحسبان طريقتنا، طريقتنا الآدمية بالقيام به، طريقتنا المفرطة الآدمية، التي نعرفها!...

375 ـ لماذا نبدو «أبيقوريين»

إننا حذرون، نحن الناس الحديثين، مع آخر القناعات، يبقى حذرنا بالمرصاد؛ يشك في كل ما يفتن، ويخشى الوقوع في شرك كل إيمان عظيم، وكل نعم قاطعة وكل كلا تخاطر بأن يستسلم لها الوعي! من أين يأتي هذا الخوف؟ ربما كان، في الجزء الكبير منه، حذر «طفل ملذوع»، خشية مثالي محبط، لكنه أيضاً، وبالأخص حشرية متحمسة لذلك الذي كان قد «وضع في الزاوية» للتكفير، وبعد أن يئس من هذه الزاوية يلقى نفسه من الآن فصاعداً في غبطة وحماسة «اللامحدود» في «الحرية المطلقة». على هذا النحو تنتج حاجة تكاد تكون أبيقورية للمعرفة، ولا تتخلى بسهولة عن الطابع الاشكالي للاشياء؛ كما ينمو أيضاً إشمئزاز بخصوص الكلمات الكبيرة والوضعيات الأخلاقية، ذوق يرمي بكل المعارضات الثقيلة والفظة، ويعي بفخر أنه تمرن على الحذر.

بالواقع، هنا يكمن موضوع فخرنا في شد الزمام بشكل خفيف حتى في اندفاعنا العنيف نحو اليقين. في هذه السيطرة، على الذات التي يبرهن الفارس عنها حتى في أشد جولاته جنوناً: ذلك أننا لم نكف عن امتطاء الحيوانات المهتاجة والثائرة، وإذا كنا نتردد فمما لا شك فيه أن السبب لا يعود، إلى الخطر...

376 ـ تباطؤ الحياة

إنه شعور يعرفه كل الفنانين، رجال «المؤلفات»، رجال من النمط الأمومي: في كل مرة ينهون فيها حقبة من حياتهم ـ التي تقطعها

المؤلفات ـ يعتقدون أنهم قد بلغوا الهدف، وأنهم مستعدون لقبول الموت من دون عناء قائلين لأنفسهم، «لقد نضجنا له» لا يعبر هذا عن تعب، بل هو بالأحرى بعض نعومة، رأفة خريف مشمس يتركها الأثر المؤلف والنضج عند الفنان. عندها يتباطئ إيقاع الحياة، ـ يصير سميكاً ويسيل كالعسل ـ يتباطئ حتى استراحات طويلة، حتى الاعتقاد باستراحة طويلة.

377 ـ نحن من لا وطن لنا

لا ينقص اليوم بين الأوروبيين من بامكانهم القول أنه لا وطن لهم، في المعنى المطرِ للكلمة. مع بعض الحق لهم في ذلك؛ إليهم أوصي بحكمتي السرية، «علمي الجذل». لأن نصيبهم شاق وأملهم غير أكيد، يلزم فعل قوة حقيقي لابتكار ما يعزيهم، ولكن لأي فائدة؟ نحن أبناء المستقبل، كيف يمكننا أن نشعر، في خضم هذا اليوم أننا في مسكننا الخاص! ما من مثال بامكانه أن يعجبنا يستطيع بفضله الواحد منا ألاَّ يشعر كثيراً بالغربة في هذه المرحلة الانتقالية، الهشة والمنكسرة؛ إما فيما يخص «حقائق» هذه المرحلة، فنحن لا نؤمن بأنها مستديمة. فطبقة الجليد التي لا تزال تحمل اليوم قد رقت كثيراً: تعصف ريح الصقيع، ونحن من لا وطن لنا نحن شيء ما يكسر الجليد وحقائق أخرى مفرطة الرقة... نحن لا نحتفظ بشيء، نحن لا نريد العودة إلى أي نوع من الماضي، إننا لسنا «متحررين» ولا نعمل من أجل «التطور» ولا نحتاج أن نصم آذاننا كي نسمع حوريات المستقبل على الساحة والذي تغنيه، لحن «الحقوق المتساوية»، أغنية «المجتمع الحر» و«لا أسياد ولا عبيد»، لا شيء من هذا يجذبنا! باختصار، إننا لا نجد أنه من المرغوب فيه أن تتشيد على هذه الأرض مملكة العدالة والوئام (لأنها ستكون بالضرورة مملكة الكفاف والاحتيال)! إننا نصفق لكل أولئك الذين يحبون الخطر مثلنا، الخطر، المغامرة، الحرب، الذين لا يستسلمون إطلاقاً للتكيف، والترميم والتساهل والمصالحة؛ إننا نعد أنفسنا بين الفاتحين؛ إننا نفكر بضرورة نظام جديد وعبودية جديدة إذا لزم الامر ـ لأنه ليس من تقوية ومن سمو للنمط البشري لا يفرض نوعاً جديداً من العبودية ـ ؛ ومع كل هذا، أليس كذلك، من الصعب جداً أن نجد أنفسنا

إنسانية، الأكثر لطافة، الأكثر عدلاً من كل ما وجد حتى الآن تحت الشمس. أي تعاسة في أن هذه الكلمات الجميلة لا توحي لنا إلا بأفكار خلفية شنيعة! إننا لا نرى فيها إلا التعبير - والقناع - عن ضعف عميق، عن التعب، والعمر، والقوة المتداعية! بماذا تهمني الزخارف التي يزين بها المريض ضعفه! فليعرضها على أنها فضيلته!... إننا نعرف جيداً، لكن نعم! إن الضعف يحول المرء لطيفاً، آه، لطيفاً بشدة! وعادلاً بشدة، ليس في ذلك أدنى شك؛ «دين الرحمة» الذي يريدون أن نرتد إليه الآن؟... نعرف جيداً الرجال الصغار، والنساء الصغيرات الهيستيريات الصغيرات اللائي يحتجن اليوم إلى هذا الدين كغشاء أو كزينة! إننا لسنا بانسانيين؛ لن نسمح إطلاقاً لأنفسنا بالتجرؤ على الكلام عن «حبنا للانسانية»؛ لسنا ممثلين بما فيه الكفاية، ولا من اتباع سان - سيمون ولسنا فرنسيين بما فيه الكفاية. ينبغي، حقاً، أن نصاب بفائض «غالي*» من الإثارة الإيروتيكية ونفاذ الصبر العشقي، لكي يكون ممكناً الاحتكاك، مع هذه الانسانية بالذات، بكل حميتنا. هل هناك على الاطلاق مثل هذا العجوز الأشد هولاً بين كل العجائز المهولات؟ (... ما لم تكن «الحقيقة»؟ سؤالاً محفوظ للفلاسفة). كلا نحن لا نحب الانسانية، لكن من جهة أخرى نحن «ألمان» أقل بكثير، في المعنى الذي تأخذه هذه الكلمة في أيامنا، حتى نستطيع أن نرافع لصالح القومية، وكره الاعراق، حتى نستطيع أن نتمتع بجذام القلب هذا، بتسمم الدم هذا، الذي يجعل شعوب أوروبا تنعزل عن بعضها، تتمترس، وتضع نفسها في الحجر الصحي. إننا في هذا مفرطي التجرد، سيئي الذهن ومدللين ولكننا، مطلعون بافراط، ولقد سافرنا كثيراً: إننا نفضل أكثر بكثير العيش على الجبال، على الهامش، «خارج العصر» في قرون الماضي أو المستقبل، ليس إلا لكي نوفر على أنفسنا هذا الغيظ المكتوم الذي سيحكم به علينا مشهد سياسة تعقم الذهن الألماني، بحقنه بالغرور، إضافة إلى كونها سياسة وضيعة: التي لكي لا يتفكك ماتبدعه مباشرة إلى أن تتموضع بين كرهين مميتين؟ ألا يجب أن تتطلب أن تهدف إلى استمرار تجزئة أوروبا إلى دول صغيرة؟.. نحن من لا وطن لنا، إننا

(*) نسبة إلى بلاد الغال - فرنسا القديمة.

من أعراق مفرطة التداخل لنشكل «رجالاً عصريين»؛ إذن قلما تجذبنا المساهمة في هذا الاعجاب ـ العنصري بالذات، في هذا الفسق، الذي يتم التباهي به في ألمانيا كما لو كانت إشارة ملكية؛ فهي تبدو مزدوجة الزيف وغير مناسبة، في وطن «الحس التاريخي»، إننا بكلمة ـ ولتكن هذه الكلمة كلمة شرف ـ أوروبيون جيدون، ورثة أوروبا، ورثتها الاغنياء والمفعمون، لكننا أغنياء أيضاً يفيض من الواجبات التي راكمها الذهن الأوروبي على مر آلاف السنين: بصفتنا هذه، «خارجين» من المسيحية، ومعادين لها، لأننا بالضبط قد «تخرجنا» من مدرستها، لأن آبائنا كانوا مسيحيين صادقين من دون أي تحفظ، وكانوا قد ضحوا لايمانهم عن طيب خاطر بكل ممتلكاتهم ودمهم وموقعهم ووطنهم. نحن، . . . نحن نقوم بالأمر عينه. لكن لمن؟ لعدم إيماننا الشخصي؟ لكل نوع من عدم الايمان! كلا، إنكم لتعرفون الأمر جيداً، يا أصدقائي! فالنعم التي تختبئ فيكم أقوى من كل اللاءات وربما كنتم تتألمون منها بشدة مع حقبتكم؛ وإذا لزمكم أن تبحروا، أنتم أيها المغتربون، فإن ما يدفعكم أنتم إلى ذلك، هو إيمان أيضاً! . . .

378 ـ وسنعود شفافين. . .

نحن مبذرو وأغنياء الذهن، نحن المقيمون على جوانب الطرقات كالينابيع، ولا نريد أن نمنع أحداً من أن يغرف من مائنا، إننا لا نعرف للاسف! أن ندافع عن أنفسنا في كل مرة نريد ذلك؛ ليس لدينا وسيلة لمنع أي كان من أن يعكرنا وأن يغشى علينا ـ لترمي علينا الحقبة التي نعيش فيها «أشد ما لديها في الحاضر» قذارة طيورها الوسخة، ترهات أولادها، المشاق الصغيرة والكبيرة للمسافرين المتعبين الذين يرتاحون بالقرب منا. لكننا سنقوم بما قمنا به دائماً: سنترك كل شيء يمضي إلى القاع، كل ما يرمى به الينا، ـ لأننا عميقون ولا ننسى أبداً، ـ إننا سنترك كل شيء وسنعود شفافين.

379 ـ استطراد المجنون

ليس مبغضاً للبشر من كتب هذا الكتاب: إن بغض البشر يُدفع غالياً جداً في هذه الأيام. لنبغض كما كان يبغض الانسان فيما مضى بطريقة من يمسك زمام الأمور، على وجه تام، من دون حسم، شرط الفؤاد، بكل

حب البغض. . . يجب معرفة التخلي عن الحقد: كم من المسرات الدقيقة من الصبر حتى من الطبيعة لا ندين بها بالضبط لاحتقارنا، إضافة إلى أنها تجعل منا «من اختارهم الله». يشكل الاحتقار المرهف ذوقنا وامتيازنا وفننا وربما فضيلتنا، نحن أحدث المعاصرين! على العكس من ذلك يضعنا البغض على قدم المساواة، وجهاً لوجه، في البغض ثمة شرف، في البغض أخيراً، هناك الخشية جزء كبير ومهم من الخشية. إلا أننا نحن، من لا خوف لدينا، نحن أسمى العقول في هذا القرن، نعرف هذا التسامي لدرجة أن نعرف أنه ليس لدينا ما نخشاه من هذا الزمن، فلن يقطع رأسنا، ولن نسجن ولن ننفى وحتى لن تمنع كتبنا ولن تحرق، تحب هذه الحقبة الذهن، فهي تحبنا، وستحتاجنا عندما نكون مضطرين إلى أن نفهمها اننا فنانون يحتقرون؛ وان كل تعامل مع الرجال ـ يسبب لنا إشمئزازاً خفيفاً؛ وأننا مع لطفنا وصبرنا وأدبنا وبشاشتنا الجمة، ليس بمقدورنا أن نجعل من حس الشم لدينا أن يتخلى عن أحكامه المسبقة ضد مجاورة الرجال؛ وإننا نحب الطبيعة بحرارة بمقدار ما تتحرك بشكل أقل إنسانية وأننا نعبد الفن إذا كان الفنان يهرب من الانسان يسخر منه أو يسخر من ذاته. . .

380 ـ المسافر يتكلم

لكي يكون بالامكان تفحص أخلاقنا الأوروبية عن بعد، لكي نقيسها أمام الأخلاق الأخرى في الماضي أو في المستقبل، علينا أن نفعل مثل المسافر الذي يريد أن يعرف ارتفاع أبراج مدينة: فهو يغادر المدينة. لكي نفكر في «الأحكام الأخلاقية المسبقة»، علينا أن نقيم خارج الأخلاق. أن نتسلق، أن نصعد، حتى لا تكون أحكاماً مسبقة على تلك الأحكام. أن نطير إلى وجهة نظر ما أبعد من الخير والشر، وأن نعبر بالتالي أبعد من خيرنا ـ ومن شرنا أن نتحرر من كل «أوروبا» هذه الاوروبا التي تفهم على أنها جملة أحكام قيمية مستبدة دخلت إلى دمنا. فإرادة التموضع بالتالي خارجها واعلى منها ربما كان بعض جنون، تصور لاعقلاني وفريد للواجب، ـ ذلك أننا نحن أيضاً، نحن الباحثون عن المعرفة لدينا «لا ـ إرادتنا الحرة» الشخصية ـ فالسؤال هو في معرفة هل بإمكاننا حقاً أن نصعد إلى هناك. يتعلق ذلك بشروط جمة، أهمها أن نعرف وزننا؛ ثقيل هو أم

خفيف؟ إنه إشكال «جاذبيتنا النوعية». يجب أن نكون فائقي الخفة لكي نستطيع أن نصطحب بعيداً لهذا الحد ارادة المعرفة التي تتملكنا، لنصطحبها في شكل ما إلى أعلى من زمانها، أن نصنع عيوناً يستطيع نظرها أن يحيط بآلاف السنين، وأن تخيم فيها سماء صافية! وأن نتجرد عن أشياء عديدة تثقل علينا وتعيقنا وتجعلنا محنيين، تثقلنا، نحن أوروبيو اليوم. رجل هذا الماوراء، الرجل الذي يريد أن يكتشف المقاييس الأسمى لقيم حقبته، عليه أن يتجاوزها، في البدء، في ذاته - وهذا دليل قوته - العائق الذي تضعه هذه الحقبة، وبالتالي ليس الحقبة نفسها، بل الاشمئزاز الذي أوحت به اليه حتى ذلك الحين، اعتراضاته عليها والآلام التي سببتها له: عليه بكلمة أن ينتصر على لا عصريته، على رومنطيقيته.

381 - في مسألة الوضوح

لا نكتب فقط لكي نُفهم، بل أيضاً حتى لا نُفهم. لا يبخس كتاب لأن شخصاً ما وجده غامضاً: ربما كان هذا الغموض يدخل في نوايا المؤلف؛ فهو لا يرُيد أن يكون مفهوماً من أي كان. كل ذهن متميز قليلاً، كل ذوق راق قليلاً يختار مستمعيه، وباختيارهم يغلق الباب على الآخرين. كل القواعد المتميزة للاسلوب تولد من هنا: لقد صنعت لتمنع، لتحفظ المسافة، لتحظر «الوصول» إلى مؤلف؛ لتمنع البعض من الفهم ولتفتح آذان الآخرين، الآذان التي تملك تناغماً معنا.

أما فيما يخصني، أقوله فيما بيننا، فإني لن أسمح لا لجهلي ولا لحيويتي أن تمنعاني من أن أكون واضحاً بالنسبة لكم، آه يا أصدقائي؛ أقول «لا حيويتي» مع أنها تستعجلني للتصدي برشاقة لموضوع، طالما كان بامكاني فقط التصدي له. لأني أتعامل مع الاشكالات العميقة كما مع الحمامات الباردة: دخول سريع، وخروج في الحال. هل سيقال ان هذه الطريقة تعيق الوصول، والنزول إلى العمق بما فيه الكفاية؟ إنها خرافة الخائف من الماء، حكم مسبق لاعداء الماء البارد؛ إنهم يتكلمون عنه بدون تجربة. آه لو كانوا يعلمون كم ينشط الماء البارد!... إضافة، وليقال بشكل عابر: أتعتقدون حقاً أن شيئاً ما يبقى غامضاً لأنه لم يلمس إلا لمساً خفيفاً، ألقيت اليه نظرة عابرة، ألقيت اليه لمحة خاطفة؛ أتعتقدون أنه من

الواجب البدء بأي ثمن بالجلوس عليه بكل وزننا؟ أن يُحضن كما البيضة على طريقة نيوتن، نيوتن الذي قال عن نفسه: Diu noctuque incubando؟.

هناك على الأقل بضع حقائق متوحشة بشكل خاص وحساسة للدغدغة بحيث لا يمكن استحواذها إلا فجأة؛ فهي إما أن تفاجأ أو أن تترك... أخيراً لاختصاري منفعة أخرى: نظراً لنوع الاشكالات التي تشغلني فإني أضطر غالباً إلى أن أكون مختصراً لكي أسمع بشكل أسرع، أيضاً يجب على اللاأخلاقي أن يتحاشى إفساد البراءة؛ أقصد بذلك الحمير والعوانس من الجنسين اللذين لا يملكون من هذه الحياة سوى هذه البراءة؛ أفضل من ذلك، على كتاباتي أن تحمسهم، أن ترفعهم، أن تجرهم إلى صراط الفضيلة، فأنا لا أعرف شيئاً على الأرض أمتع من رؤية الحمير العجائز والعوانس المتحمسين تثيرهم مشاعر الفضيلة الناعمة؛ و«هذا ما رأيت». هكذا تكلم زرادشت.

هاك فيما يخص إيجازي؛ إلا أن جهلي مُقلق أكثر، وأنا أبعد من أن أخفيه عن نفسي. هناك ساعات أخجل منه، وبالطبع، هناك ساعات أخجل فيها من خجلي. ربما كنا، نحن الفلاسفة اليوم، جميعاً في وضعية وعرة أمام المعرفة الانسانية: فالعلم ينمو، وأعلم العلماء بيننا يكادوا أن يكتشفوا أنهم يعرفون القليل القليل. إلا أن الأمر سيكون أتعس لو كان غير ذلك، فواجبنا يبقى ألاّ نضع أنفسنا في مقام غيرنا. إننا شيءٌ آخر غير العلماء، مع أننا حتمياً، علماء أيضاً. لدينا حاجات مختلفة، نمو مختلف، هضم مختلف: يلزمنا أكثر، ويلزمنا أقل أيضاً. ما الذي يلزم لذهن كي يتغذى؟ ما من صيغة بامكانها الاجابة على هذا السؤال، لكن إذا كان ذوق هذا الذهن يحمله على الاستقلالية، على المجيء والذهاب السريع، على الرحلات، لا بل المغامرات، التي لم ينحت لها إلا من هم أشد رشاقة، فإنه سيحبذ أن يعيش بالقليل مع الحرية على أن يعيش في العبودية التي تشبعه. ليس الدهن ما يريده راقص جيد من غذائه، بل أقصى الليونة والقوة.... ولا أدري ما الذي بإمكان فيلسوف أن يتمنى غير أن يكون راقصاً جيداً. لأن الرقص هو مثاله، وفنه أيضاً، أخيراً، ورعه الوحيد، «عبادته»...

382 ـ الصحة الكبيرة

نحن الجدد، من لا اسم لنا، الناس الذين يصعب فهمهم، نحن مقدمات مستقبل لم تتم البرهنة عليه بعد. إننا نحتاج من أجل هدف جديد إلى وسيلة جديدة أيضاً، نحتاج إلى صحة جديدة، إلى صحة أقوى، أشد جدة، أشد صبراً، أشد تطلباً، أشد فرحاً مما كانت عليه كل صحة حتى الآن. ان الروح التي تتحرق لتحيط بكل القيم التي جرت حتى الآن وبكل ما كان قد تم اعتباره مرغوباً به، وبزيارة كل شواطئ هذا «المتوسط» المثالي، الروح التي تريد أن تتعلم، أن تعرف بمغامرات تجاربها الأكثر شخصية، مشاعر الفاتح، الممهد للمثال، المشاعر التي عرفها الفنانون فيما مضى، القديسين، المشرعين الحكماء، العلماء، الورعين، العرافين، النساك، تحتاج لشيء قبل كل شيء آخر: الصحة الكبيرة . . . تلك التي لا يمكن أن تملكها، تلك التي يجب اكتسابها، يجب اكتسابها باستمرار، لأنه يضحى بها بدون توقف، لأنه بدون توقف يجب التضحية بها! . . . آنئذٍ، عند نهاية رحلاتنا الطويلة ـ نحن مغامرو المثال، ربما أشجع مما توصي به الحكمة، على الرغم من غرقنا المتعدد وخسائرنا نتمتع بصحة أفضل مما يراد لنا، بصحة مخيفة، عند كل تجربة ـ يبدو لنا الآن، وكتعويض، اننا نجد أنفسنا في مواجهة أرض لم يتم اكتشافها، لم تر أي عين حدودها، أبعد من كل الأراضي وكل زوايا المثال، عالم، مسرف الحد في الجمال، في المجهول، في الاشكالات، والمخيف والالهي لدرجة تدهش حشريتنا وعطشنا لدرجة لم يعد أي شيء، أي شيء، باستطاعته أن يشبعهما.

كيف عند هذه اللمحات، مع هذا الجوع الرهيب للمعرفة، مع سعير الوعي هذا، كيف بامكاننا أن نكتفي من الآن فصاعداً بالرجل الحالي؟ إننا نرثي له، إلا أنه واقع لا مفر منه: لم يعد باستطاعتنا أن نحافظ على وقارنا أمام أهدافه، أمام أجدر آماله، لم يعد باستطاعتنا حتى أن نكرس له نظرة. إننا نلاحق مثالاً مختلفاً جداً، مثال عجيب مليء بالمخاطر، ولا نريد أن نحث أحداً عليه، لأننا لا نعترف بسهولة لأحد بالحق في الحصول عليه؛ مثال ذهن يلعب بسذاجة ـ أقصد بدون نية لأن امتلاءه وقدرته تفيضان، ـ بكل ما كان يعتبر حتى حينه طيباً، ولا يمكن لمسه، إلهي؛ ذهن لا تعني

بالنسبة له كل القيم العليا التي يستخدمها الشعب منطقياً كمعيار، لا تعني الا خطر، انحطاط، هوان، أو، على الأقل، إرتخاء، عمى، نسياناً آنياً للذات؛ انه مثال رفاهية، ملاطفة، انساني وفائق الانسانية في آن معاً، لا يقدر غالباً إلا أن يظهر بمظهر لا إنساني، عندما يظهر على الأقل إلى جانب كل ما كان جدياً على الأرض حتى الآن ـ إلى جانب احتفالات الكلمة والحركة واللهجة والنظرة، والاخلاق، على أنه محاكاة ساخرة لها متجسدة ولا إرادية مثال يبشر من خلاله حقاً، رغم كل شيء، بالجدية الكبيرة، وتوضع أخيراً علامة الاستفهام، بينما يتغير مصير الروح، فلتتقدم إبرة الساعة ولتبدأ المأساة.

383 ـ خاتمة

لكن فيما أنا أنهي مؤلفي، أخط ببطء، ببطء شديد علامة الاستفهام السوداء هذه، وأتحضر أيضاً لتذكير قرائي بفضائل القراءة المتأنية ـ آه، كم هي منسية ومجهولة! ـ ها أنا أسمع من حولي أشد الضحكات سفاهة، أشدها سخرية، وأشدها شيطنة: أرواح كتابي نفسها تنقض علي، تشد أذني، وتعيدني إلى النظام: «نحن لا نبالي به! إلى الشيطان، إلى الشيطان، موسيقى الغراب السوداء هذه! أليس هذا الصباح؟ ألا تلمع الشمس؟ ألسنا وسط مرج أخضر رطب؟ مملكة الرقص الحقة! أهناك لحظة أفضل للفرح؟ من سيغني لنا أغنية، أغنية الصباح، أغنية خفيفة، رشيقة للغاية ومشمسة لدرجة لا تنجح معها بأن تبعد الأفكار السوداء؛ . . . بل تدعوها على العكس إلى مشاطرتنا رقصنا وغنائنا؟ فمزمار الراعي البسيط أجدى من كل هذه الموسيقى الغامضة، من كل نبوءات التعاسة هذه، غناء العلجوم الرنان هذا، صوت الضريح وصفير المرموط التي أتحفت بها وحدتنا حتى اليوم، يا سيدي الناسك، وموسيقي المستقبل! لقد انتهى كل هذا! فلننشد منذ الآن فصاعداً أعذب الألحان وأجذلها!».

أهذه رغبتكم، يا أصدقائي البرمين؟ إذن، فليكن! من لا يستسلم لكم عن طيب خاطر؟ مزمار الراعي خاصتي ينتظر ذلك أصلاً، حلقي أيضاً ينتظر، وإذا ما أخرج أصواتاً مبحوحة بعض الشيء، وأيماني واسفاه، لا تحقدوا علي؛ ألسنا في الجبل؟ ما ستسمعونه سيكون جديداً على الأقل؛

وإذا لم تفهموه، إذا لم تفهموا المغني، فواسفاه أيضاً! أليس هذا نصيبه؟ أليس هذا ما دعي «لعنة تردفار»[1]؟ فلن تسمعوا موسيقاه ونغمته إلا بشكل أفضل، فلن تستطيعوا إلا أن ترقصوا بشكل أفضل على أنغام مزماره.. أتريدون ذلك؟...

---

(1) تلميح الى عنوان قصيدة لغوته Goethe، يحدد نيتشه معناها قصداً. (إشارة من المترجم الفرنسي).

ملحق

أغنيات أمير خارج السرب[1]

إلى غوته[2]

من لا يفنى
ليس إلا رمزاً من إنشائك
الله، المخادع
خدعة شاعر

دولاب العالم يدور
لامساً هدفاً بعد هدف
يسميه الحقود قانون
المجنون يقول: لعبة.

(1) يلعب نيتشه على كملة «Vogelfrei» التي تعني في آن معاً «خارج القانون»، و«مرَّ كالعصفور».
(2) كل هذا المقطع تحوير سافر عن غوته.

لعبة العالم المتجبرة
تشبك الكين بالظاهر
الجنون الأبدي
يشبكنا خبط عشواء.

إستعداد شاعر

منذ عهد قريب، وأنا أرتاح
تحت ظلال وارفة
سمعت تيك ـ تاك حفيفاً
لطيفاً، كأنه إيقاع
برمٌ، تغضنت
ثم، مستسلماً
انتهيت، كما الشاعر
بأن أتكلم مع نفسي تيك ـ تاك

مفاجئاً نفسي أقرض الشعر
مع كل مقطع صرخة حماس
أخذني الضحك في الحال
لربع ساعة من الزمن.
أنت، شاعر؟ أنت شاعر؟
أفي عقلك خلل؟
«نعم، سيدي العزيز، إنك لشاعر!»
قال العصفور النقار، وقد هز كتفه متهكماً.

من انتظر في هذا الدغل؟
لمن أترصد كقاطع طريق؟
كلمة؟ صورة؟ القافية
في الحال يحضر خرابي
لا شيء مما يزحف أو يدب
يفلت من وثب أشعاري
«نعم، سيدي العزيز، إنك لشاعر»
قال العصفور النقار، وقد هز كتفه متهكماً
القافية كالسهم
أي قشعريرة، أي رجفة
ما ان تصيب القلب
حرباء تتشنج!
آه، ستموتون بها، أيتها الصعاليك الصغيرة
أو تتمايلون من النشوة.
«نعم، سيدي العزيز، إنك لشاعر».
قال العصفور النقار، وقد هز كتفه متهكماً.

آيات لا شكل لها تتسارع
كلمات صغيرة مجنونة، ما هذا الترتيل
إلى أن تعلق، خط بعد خط
في تيك ـ تاكاي ـ الخاصة
أن أقول هناك عرقاً لئيماً
يسعده هذا؟ أيكون الشعراء بدون قلب؟
«نعم، سيدي العزيز، إنك لشاعر»

قال العصفور النقار، وقد هز كتفيه متهكماً.

أتسخر أيها العصفور؟ أتريد أن تضحك؟
إذا كان برأسي لوثة،
ما الذي سيكون عليه قلبي المسكين؟
آه، إخش حاذر غضبي!
إلا أن الشاعر يجدل القوافي
حتى في ملء الغضب
«نعم، سيدي العزيز، إنك لشاعر»
قال العصفور النقار، وقد هز كتفيه متهكماً

في الجنوب

متعلقاً على غصن ملتوٍ
أهدهد سأمي.
طير دعاني
عش عصفور يأويني
أين أنا أذن؟ آه، بعيد، بعيد...

البحر الأبيض يرقد
شراع قرمزي يرتسم
صخرة، شجرُ تين، برج وميناء
أغان رعوية، ثغاء حملان...
آه براءة الجنوب، لاقني.

المضي خطوة خطوة ـ أي حياة!
هذا «الواحد اثنين» يرن المانياً وثقيلاً.
سألت الريح أن تحملني
الطير علمني التحليق
عبرت البحر باتجاه الجنوب.

العقل! آه العقل المحبط!
هاك ما يقودنا سريعاً إلى الهدف
لكن في التحليق عرفت ما يخدعني...
وها أنا أشعر بالشجاعة والدم وحماس جديد.
لحياة جديدة، للعب جديد...

أن تفكر وحيداً، نعم إنها الحكمة
لكن أن تغني وحيداً... إنها الحماقة!
تجمعي حولي
واسمعي، إذن، في صمت،
أغنية على شرفكِ
أيتها الطيور الخبيثة!

شابة لهذا الحد، مزيفة لهذا الحد، طوافة لهذا الحد،
يبدو لي أنك قد خُلقتِ للحب
ولتمضية كل الوقت الجميل
في الشمال ـ أتردد في الاعتراف به
أحببت عجوزاً رهيبة:
تدعى «الحقيقة».

بيبا الورعة

طالما جسدي الصغير جميلاً
فالأمر يستحق العناء بأن أكون تقية
معروف أن الله يحب النساء
وخاصة الجميلات.
لا شك في أنه سيغفر عن طيب خاطر
لراهبي الصغير
بأن يجهد لرفقتي
شأنه شأن العديد من الرهبان الصغار

إنه ليس إطلاقاً حمار من آباء الكنيسة
لا ، انه شاب ، وغالباً ما يحمر
غالباً، على الرغم من أشد الأحزان
تملؤه الرغبة والغيرة
لا أحب الشيوخ
وهو لا يحب العجائز
بأي حكمة رائعة
دبر الله كل هذا!

تجيد الكنيسة الحياة
تسبر القلب والنظر
لا تبغي سوى الغفران
من لا يمنحني إياه!
ثلاث كلمات من طرف الشفاه

إنحناءة وتخرج
وبخطيئة صغيرة جديدة
تمحى تلك القديمة

فليتبارك الله على الأرض
الذي يحب الفتيات الجميلات
ويغفر عن طيب خاطر
أوجاع القلب هذه

طالما جسدي الصغير جميلاً
فالأمر يستحق عناء أن أكون تقية
وليتزوجني الشيطان
عندما أصير عجوزاً مفرمة الاسنان.

الزورق الغامض

الليلة الماضية، بينما كل شيء ينام
ولم يعد يسمع إلا
زفرات ريح حائرة
لم تعد الوسادة تمنحني الراحة
ولا الخشخاش، ولا من يعطي نوماً
عميقاً: راحة الضمير.

أخيراً متخلياً عن النوم

ركضت إلى الشاطئ
القمر يلمع، والطقس لطيف، وجدت
على الرمال الحارة، رجل وزورقه
ينامان كلاهما، الراعي والنعجة
وهو يغط، يترك الزورق الشاطئ

ساعة مضت، ربما ساعتين
ربما سنة؟ فجأة
بادت أحاسيسي
في لاوعي أبدي.
وهوة فُتحت، لا عمق لها...
وكان كل شيء قد انتهى...

... جاء الصباح: على أعماق سوداء
يعوم زورق يرتاح ويرتاح...
ماذا جرى؟ صرخ صوت، ثم مئة.
ماذا جرى؟ دم، مأساة؟...
كلا، .. لقد كنا جميعاً ننام...
آه! كم كان حسناً أن ننام جيداً.

إعلان حب
(أوقع الشاعر في الحفرة)

آه معجزة! ألا يزال يطير؟
وجناحاه لا يرفان

ما الذي يحمله اذن ويرفعه؟
ما هو هدفه، طريقه، ولجامه منذ الآن؟

كما النجم والابدية
يعيش الآن في الأعالي التي تخشاها الحياة
مشفقاً حتى على الحسد
ومن يراه يحلق، يطير بنفسه إلى الأعلى!

آه يا طائر القطرس
نحو الأعالي تدفعني غريزة أبدية.
كنت قد حلمت بك: وذرفت الدموع
دموع ـ نعم أنا أحبك.

أغنية معاز مُنظِّرْ

ها أنا مضطجع، مريض الاحشاء
تفترسني الفسافس
وهناك، لا يزال ضوء وضجيج
أسمعهم يرقصون...
كان عليها، في هذه الساعة
أن تنساب إليّ.
أنتظر كالكلب
ما من إشارة تأتي.

إشارة الصليب هذه، عندما وعدت

كيف أمكنها أن تكذب؟
هل تركض خلف كل واحد
شأنها شأن معازي؟

من أين يأتيها ثوبها الحريري؟
آه، آه! يا طفلتي المتكبرة!
ألا يزال هناك كبش
في هذه الغابة؟

كم يحيلنا الانتظار المحب
كئيبين ولاذعين
هكذا ينمو في ليلة خانقة
فطر سام في الحديقة

الحب يقضمني
شأن الآلام السبعة،
ليس لي رغبة بشيء
وداعاً يا بصلاتي!

القمر قد غاب في البحر
تعبت النجوم كلها،
يرتفع النهار رمادياً
لا أطلب الا الموت.

هذه الأرواح المتشككة

لهذه الأرواح المتشككة
احتفظ بحقد مميت
كل مجاملاتها ليست الا تنكيلاً
كل مدائحها لا تتنفس إلا الحقد والغيظ

لأنني لا أعيش
مشدوداً إلى زمامها
فإنها تحييني بنظرة مبطنة
برغبة ميؤوس منها

فلتلعنني إذن بقلب مفتوح
ولتدر لي ظهرها
هذه العيون المتوسلة والضائعة
تخطئ دائماً في أمري!

مجنون حتى اليأس

للأسف كل ما كتبته على الطاولة والحائط
بقلب مجنون، بيد مجنونة
استخدم لتزيين الحائط والطاولة

لكنكم تقولون: لا تعرف يدا المجنون سوى التلطيخ
والطاولة والحائط يجب أن يطهرا

إلى أن يختفي أدنى أثر!

فلتسمحوا! سأقدم لكم العون،
لأنني تعلمت استعمال الممحاة والمكنسة
كناقد، ككناس.

لكن عندما ينتهي العمل
أحب كثيراً أن أراكم، أنتم يا أعقل العقلاء
Coneh . . . من الحكمة والطاولة والحائط.

(كيف يواسي الشعراء أنفسهم)
Rimus remedium

من فمك الرائل
يا ساحرة الزمان
تنسل من فمك ساعة بعد ساعة
بلا جدوى يعوي اشمئزازي:
«ملعونة، ملعونة حفرة الأبدية!».

الكون من القلز:
ثور مضطرم لا يسمع أي صرخة
يكتب الألم في عظامي
بخناجره المستلة:
«ليس للكون قلب
من الحمق أن تحقد عليه».
اسكبي كل خشخاشك

اسكبيها، اسكبي، أيتها «الحمى» كل سمومك في دماغي!
منذ وقت طويل تستنطقين يدي وجبهتي.

ماذا تريدين؟ و«بأي.. ثمن؟».
فلتكوني ملعونة... فتاة ساقطة!
ملعونة السخرية.

لا، سودي
برد في الخارج، اسمع المطر...
أيجدر بي أن أكون أكثر حيطة معك؟

هاكِ الذهب: كم تلمع القطعة؟!
ان أميك «سعادة»؟
أباركك، أنتِ، الحمى؟

يفتح الباب بفظاظة
يتقاطر المطر حتى سريري
تطفىء الريح النور ـ نكبة
من لا يملك الآن مئة قافية
أراهن، أراهن
انه سيتصدع!

«آه، سعادتي»

حمائم القديس ـ مارك، أراها من جديد
الساحة صامتة. يرتاح الصباح فيها
بتثاقل أرسل أناشيدي، إلى حضن النضارة الناعم،
كأسراب الحمائم في اللامتناهي
ثم ادعوها من جديد
لأعلق قافية جديدة على ريشها

آه، يا سعادتي، آه، يا سعادتي!
سماء هادئة، سماء زرقاء صافية، سماء حريرية
كم تحمي خفيفاً الصرح المبرقش
الذي احب، ماذا أقول؟.. الذي أخشى،
الذي أحسد...؟!
ما أسعدني لو شربت روحه!
هل أعرف إطلاقاً أن أعيدها اليه؟
لا، صمتاً، يا قوت عيني!
آه يا سعادتي، آه يا سعادتي!

برج متقشف بضراوة الأسد
تنتصب قاطعاً تضحك من المجهود
تغمر الساحة، بنغمتك العميقة
ولا تكلم فرنسياً، أتكون أنت l'accent aigu
لو مثلك، مكثت هنا،
أعرف أي حرير يعلقني...

آه، يا سعادتي، آه، يا سعادتي!

إبتعدي أيتها الموسيقى، أتركي، في البدء،
الظلال تتكثف
وتنمو حتى الليل الاسمر والفاتر.
لا يزال من الباكر جداً لك،
فزخرفاتك الذهبية لم تلتمع بعد
بسناها الوردي
لا يزال النهار بيناً
النهار بيِّنٌ جداً لاحلام ـ الشعراء، والاشباح
والمتوحدين.
آه، يا سعادتي! آه يا سعادتي!

نحو بحار جديدة

هناك، هناك أريد أن أمضي: من الآن فصاعداً
أؤمن بذاتي.
وبمواهب الطيار لدي.
ينفتح البحر أمامي، في الأزرق
يحملني زورق من جنوى
كل شيء يتلألأ لي بروعة جيدة،
يرتاح الجنوب في الزمان وفي المكان. . .
فقط عينيك، برهبة
تنظر إلي، آه، أيها اللامتناهي.

سيلس ماريا

هنا كنت أجلس، كنت أنتظر منتظراً لا شيء،
أبعد من الخير والشر، متمتعاً حيناً بالضوء.
وحيناً بالظل، شارداً لستُ إلا لعباً،
بحيرة، جنوب، زمن بدون هدف
عندما فجأة، يا صديقتي، صار الواحد اثنين...
وزرادشت مر بقربي.

إلى الريح الشمالية

(أغنية للرقص)

آه، ريح الشمال، صائدة الغيوم،
قاتلة الكآبة، منقية السماء،
كم أحبك، آه، أنتِ الصاخبة!
ألسنا معاً من نفس الرحم
وليدين مرصودين سوية
أبدياً لنفس المصير؟

على الدروب المنزلقة للصخور
أسرع إليك راقصاً
ما ان تصفري وتغني؛
أنتِ، يا من، من دون زورق ولا مجداف
بأشد شقيقات حريتك حرية!

تنطلقين فوق البحار المتوحشة

بالكاد استيقظت، حين سمعت نداءك
قفزت إلى الشعاب
إلى الحائط الأصفر للبحر
مرحباً! وكنت قد هبطتي
شأنك، شأن الشلالات الماسية
منتصرة من أعالي الجبال

على حلبة السماوات المتحدة
رأيت أحصنتك تعدو
رأيت العربة التي تحملك
رأيت يدك المرتجفة
على ظهر الاحصنة
تجندل بسوطها كالصاعقة

رأيتك تقفزين من عربتك
لتنطلقين أسرع نحو الأسفل
رأيتك سهماً حاداً
عامودياً يشق الفضاء
مثل شعاع ذهبي ينفذ
أزهار أول تلاميح الفجر

ارقصي منذ الآن على ألف ظهر
ظهر الأمواج، حيل الأمواج

مرحى لكل من يخلق رقصات جديدة!
لنرقص إذن بألف طريقة،
كتاب ـ ليسمى فننا
جذلة معرفتنا!

لنقتلع من كل نبتة
زهرة لمجدنا،
ورقتين لتاجنا
لنرقص، شأننا، شأن الشعراء الجوالين،
بين القديسين والعاهرات
الرقص بين الله والعالم!

من لا يعرف الرقص مع الريح
من يعيش ملتفحاً بالقماط
محنطاً أو عجوزاً مقعداً
من يتصرف بمداهنة
بسوقية، خراف الفضيلة
أخرجوه من جنتنا!

لنرفع غبار الطرقات إلى أنوف المرضى
لنرعب الضعفاء!
لنطهر كل الشاطئ
من أنفاس الصدور الضيقة.

لنطرد كامدي السماء

المعتمين عشاق الغيوم،
لنصفي مملكة السماء
لنزمجر، . . . معك أنتِ
آه، يا أشد العقول الحرة حرية
كما العاصفة تزمجر هنائي.

لتحفظ الذاكرة أبدياً
هناء كهذا الهناء،
شهادة عليه،
لتحمل عالياً هذا الاكليل
أقذفه أعلى، أعلى أيضاً
حلق، على درجات السماء،
علقه في النجوم.

فهرست

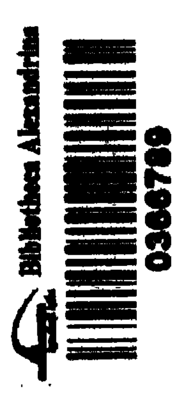
2001/1/658

من منشوراتنا في الفلسفة

اسم الكتاب	اسم المؤلف/ المترجم
العقلانية التطبيقية	غاستون باشلار/بسام الهاشم
جدلية الزمن	غاستون باشلار/د.خليل أحمد خليل
جماليات المكان	غاستون باشلار/د.غالب هلسه
الفكر العلمي الجديد	غاستون باشلار/د.عادل عوا
شاعرية أحلام اليقظة	غاستون باشلار/د.جورج سعد
تكوين العقل العلمي	غاستون باشلار/د.خليل أحمد خليل
شعلة قنديل	غاستون باشلار/د.خليل أحمد خليل
الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي	نيتشه/د.سهيل القش
المنطق من أرسطو حتى راسل	ر.بلانش/د.خليل أحمد خليل
أصول الفكر اليوناني	جان بيار فرنان/د.سليم حداد
تاريخ الفلسفة اليونانية	وولتر ستيس/مجاهد عبد المنعم مجاهد
الضحك	هنري برغسون/د.علي مقلد
الطاقة الروحية	هنري برغسون/د.علي مقلد
الأهواء	جيروم انطوان ريمي/د.سليم حداد
المنطق الرياضي	د.رياض فاخوري
في العمارة الفلسفية	د. جهاد نعمان
مبدأ العلة	هيدجر/ د.نظير الجاهل
مدرسة فرانكفورت	بول لوران أسون/د.سعاد حرب
فلسفة هيغل الجمالية	د.رمضان بسطاويسي محمد غانم
الخبرة الجمالية	د. سعيد توفيق
الواقعية في الفن	سيدني فنكشتين/د.خليل أحمد خليل
في الجماليات	د. علي أبو ملحم
أصل الدين	فيورباخ/ د.أحمد عبد الحليم عطية
الخيال الرمزي	جيلبير دوران/علي المصري
مقدمة في علم الاستغراب	د. حسن حنفي

جماليات الفنون وفلسفة تاريخ الفن عند هيغل	د.رمضان بسطاويسي محمد غانم
محاضرات في الفلسفة الإسلامية	د.محمد محمد الحاج حسن الكمالي
رحلات داخل الفلسفة الغربية	د.جورج زيناتي
بين الأصالة والتغريب	د. حسين سعد
التصور الذري في الفكرالفلسفي الاسلامي	د. منى أبو زيد
الإنسان في الفلسفة الاسلامية	د. منى أبو زيد
نيتشه والفلسفة	جيل دولوز/ أسامة الحاج
إشكالية المرجع في الفكر العربي	عبد الإله بلقزيز
المتخيل والتواصل	محمد نور الدين أفاية
انفعالات النفس	رينه ديكارت/جورج زيناتي
التشكلات الأيديولوجية في الاسلام	بنسالم حميش
ماكس فيبر والتاريخ	كاترين كوليو/د.جورج كتورة
هيدجر والسؤال عن الزمان	فرنسواز داستور/د.سامي أدهم
هيغل والمجتمع	جان بيار لوفيفر/منصور القاضي
زرادشت نيتشه	جان بيار سوفرين/أسامة الحاج
أرسطو والسياسة	فرانسيس وولف/أسامة الحاج
الدين الطبيعي	جاكلين لاغري/منصور القاضي
هوبس/فلسفة، علم ، دين	بيار فرنسوا مورو/أسامة الحاج
الماكيافيلية وداعي المصلحة العليا	ميشيل سينيلار/أسامة الحاج
هيغل والفن	جيرار برا/منصور القاضي
انشتين، غاليلو ونيوتن	فرانسواز بالبيار/د.سامي أدهم
فرينه وعلم التربية	ليليان موري/ رينا شربل
سبينوزا والسياسة	اتيان بالبيار/منصور القاضي
سقراط	فرانسيس وولف/منصور القاضي
روبسبيير ـــ سياسة للفلسفة	جورج لابيكا/منصور القاضي
كونت، الفلسفة والعلوم	بيار ماشيري/د.سامي أدهم
باشلار والثقافة العلمية	ديدييه جيل/د.محمد عرب صاصيلا
نيتشه مفتتاً	بيير بودو/أسامة الحاج
الخطاب الأشعري	سعيد بن سعيد العلوي
التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو	إعداد السيد ولد أباه
ميشال فوكو: المعرفة والسلطة	د.عبد العزيز العيادي
الأمة والدولة	الفضل شلق
الزمان أبعاده وبنيته	عبد اللطيف الصديقي
الظاهرة الرأسمالية	د.حسن الضيقة

الفلسفة اليابانية المعاصرة	بوري كوزلوفسكي/خلف محمد الجراد
الأنا والآخر والجماعة	د.سعاد حرب
الاغتراب عند أريك فروم	د.حسن محمد حسن حماد
العلم في نقد العلم	د.منى فياض
أزمة الخطاب التقدمي العربي	تركي علي الربيعو
زعزعة الأساسات	بول تيليش/مجاهد عبد المنعم مجاهد
الجدل بين أرسطو وكانط	د.محمد فتحي عبد الله
في الطغيان والاستبداد والدكتاتورية	د. دولة خضر خنافر
مبدأ التطور الحيوي لدى فلاسفة الإسلام	د.محفوظ علي عزام
التفكيكية ـ دراسة مقارنة	بيير ف.زيما/ أسامة الحاج
الفكر الديني عند زكي نجيب محمود	د. منى أبو زيد
البرغسونية	جيل دولوز/ أسامة الحاج
فلسفة كانط النقدية	جيل دولوز/ أسامة الحاج
الخطاب الاصلاحي في المغرب	عبد الاله بلقزيز
الخطاب العربي المعاصر	فادي اسماعيل
الزمان في الفكر الاسلامي	د. إبراهيم العاتي
عن الإنسان أتحدث	د. تركي الحمد
موضع الفوضى	ريمون بودون/منصور القاضي
فرانكنشتين: الأسطورة والفلسفة	جان جاك لوسيركل/ أسامة الحاج
نيتشه	جيل دولوز/ أسامة الحاج
دوركهايم والانتحار	ك.بودلو ور.استابليه/أسامة الحاج
علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت	د.رمضان بسطاويسي محمد غانم
التجريبية والذاتية	جيل دولوز/ أسامة الحاج
المذهب الباطني في ديانات العالم	لوك بنوا/ نهاد خياطه
العالم أو كتاب النور	ديكارت/أميل خوري
الفكر والوعي	د.هاني يحيى نصري
ميادين العقل العملي في الفلسفة الاسلامية	د. علي زيعور
فيكتور هيغو ـ الفيلسوف	جان مورال/بيار خباز
المعرفة شرط إنسانية الانسان	فرتجوف شيئون/ نهاد خياطه
أزمة الفكر العربي المعاصر	د. علي أبو ملحم
نقض الالحاد	د.هاني يحيى نصري
الفلسفة والفكر السياسي في الصين	د. عمر عبد الحي
الفكر السياسي واساطير الشرق الأدنى القديم	د. عمر عبد الحي



دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع